Qur'anic Studies (3)

دُروسٌ قُرآنيّة (٣)

نَظمُ القُرْآنِ وَ الكِتاب

The Composition of the Qur'an and the Book

الأستاذ يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al - Haddad

الكِتاب الثاني: مُعْجِزة القرآن

(القسم الثاني : ص ٢٩٨ ــ ٥٨٦)

Book Two : The Miracle of the Qur'an

(The Second Part: pp 298 - 586)

www.muhammadanism.org
November 7, 2011
Fonts: Arabic Transparent & Andalus

الفصل الرابع

المعجزة الذاتية

توطئة عامة

نواحي الإعجاز في التنزيل و التأليف و التدوين

قبل القول بالإعجاز في النظم و البيان ، و قبل المناداة بالإعجاز في الهدى و الإيمان، و في التشريع و في « العلم » و في القصص ؛ يجب النظر في الإعجاز في التنزيل أولاً ، لأن كيفية التنزيل ، ووسائطه ، من الدلائل على معجزته .

و يجب النظر أيضاً بالإعجاز في التأليف ، تأليف الآيات في السورة ، و السور في المصحف . والظواهر البادية من اسقاط و نسيان ، من محو و تبديل ، من ناسخ و منسوخ ، دلائل تبين هل الإعجاز في التأليف معجزة .

و يجب النظر أخيراً بالإعجاز في الجمع و التدوين ، فأدوات حفظ القرآن ، و أساليب جمعه ، و تعدد و تعاقب اصداراته ، كلها دلائل تظهر هل من إعجاز في الجمع و التدوين يجعله معجزة .

تلك النواحي الثلاث تكون ما نسميه « المعجزة الذاتية » الثلاثية . فهل في القرآن من معجزة ذاتية ؟ في تنزيله ؟ أم في تأليف آياته و سوره ؟ أم في جمعه و تدوينه ؟

الجزء الأول

الإعجاز في التنزيل

توطئة

الإعجاز الأوّل يكون في التنزيل

« و إنّه لتنزيل رب العالمين ... و إنه لفى زُبر الأوّلين »
(الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٦)
« قلْ : نزّله روح القدس من ربك بالحق »
(النحل ١٠٢)
« و لو نزَّلنا عليك كتاباً في قرطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا :
إنْ هذا إلاّ سحر مبين »
(الأنعام ٧)

قبل الإعجاز في اللفظ و النظم ، في الأسلوب و البيان ، إن الإعجاز الأول المطلوب يكون في التنزيل نفسه . فإذا لم يكن من إعجاز في كيفية التنزيل و طرقه ، فالإعجاز في النظم و البيان ، مهما بلغ ، لا يرفع التنزيل نفسه الى الإعجاز المطلق الذي نسميه معجزة .

و الموقف الحق في قصة إعجاز القرآن و معجزته ، ما حكاه ابن حزم في (الفِصَل) : ((**لم يقلْ أحد إن كلام غير الله معجز** . لكن لمّا قاله الله تعالى ، و جعله كلاماً له ، أصاره معجزاً ، و منع من مماثلته)) . هذه شبهة أولى : إن الإعجاز ليس في الكلام ذاته ـ و هو المطلوب ـ بل في كونه صادراً عن الله نفسه .

فالإعجاز الحق هو في كلام الله المباشَر ، لا في كلام الله بالواسطة . و القرآن كلام الله بواسطة جبريل : ((قلْ : نزَّله روح القدس من ربك بالحق)) (النحل ١٠٢) . و هذه شبهة ثانية على الإعجاز في التنزيل .

و الإعجاز الحق ما كان تنزيلاً مبتدئاً ، لا تفصيل التنزيل القائم . و القرآن يشهد على نفسه أنه تفصيل التنزيل ، ((تفصيل الكتاب)) (يونس ٣٧): ((وإنه كتنزيل رب العالمين ... و إنه لَفي زبر الأولين)) (الشعراء ١٩٢ و ١٩٦) . نلاحظ وحدة الضمير ، ممّا يجعل ((تنزيل رب العالمين)) في القرآن ، من ((زبر الأولين)). فهو تفصيل التنزيل الموجود قبله . و هذا أكثر من شبهة على إعجاز تنزيله .

و الإعجاز الحق في التنزيل ، ما كان محكماً بلا متشابه فيه ، ما لا يعتريه ناسخ ومنسوخ ، ما لا يُعرض على جبريل كل سنة لتنقيحه، ما لا ((تبديل)) فيه و لا ((محو)) ... و هذا أكثر من شبهة على إعجاز تنزيله .

الإعجاز في التنزيل يحمل معه الإيمان المطلق به ، فلا يعترى نبيَّه ((شك)) منه . والتنزيل الذي يعقبه ((شك)) في نفس نبيّه ، لا يكون معجزاً في ذاته ، و لا معجزاً لغيره . فلا يحمل مثل هذا الافتراض : ((و لو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا سحر مبين)) (الأنعام ٧) **فالنتيجة الحاسمة** أن الله لم يُنزل ((كتاباً في قرطاس)) .

إن الإعجاز الأول يكون في التنزيل نفسه ، في كيفيته ، و في طرقه .

بحث أوّل

التنزيل في لغة القرآن

إن تعبير « التنزيل » في القرآن متشابه ، لا يُبنى عليه عقيدة .

فلفظ « أنزل » و مشتقاته يطلقه القرآن على الخالق و على المخلوق ، على سائر المخلوقات كما على الوحي نفسه . فالله « ينزّل الملائكة ، بالروح من أمره ، على مَن يشاء من عباده » (النحل ٢) . و الله « أنزل من السماء ماء » (٢ : ٢٢ ؛ ١٣ : ١٧ ؛ ١٤ : ٣٢ ؛ ١٦ : ٦٥ ؛ ٢٠ : ٥٣ ؛ ٢٢ : ٦٣ ؛ ٣٥ : ٢٧ ؛ ٣٩ : ٢١) . و الله « أنزل جنوداً لم تروها » (التوبة ٢٦) من الملائكة أو من عناصر الطبيعة و يخاطب الناس بقوله: « وأنزلنا عليكم المن » (البقرة ٥٧) . و يقول : « قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم » (الأعراف ٢٦) « و أنزل لكم من **الأنعام** ثمانية أزواج » (الزمر ٦) .

و يأتي لفظ التنزيل على **المجاز** ، في شتى المجازات : « ثم أنزل الله **سكينته** على رسوله على المؤمنين » (التوبة ٢٦ ، كذلك ٤٠) « بغياً أن يُنزِّل الله من **فضله** على مَن يشاء من عباده » (البقرة ٩٠) « ما لم ينزّل به **سلطانا** » (٣ : ١٥١ ؛ ٧ : ٣٣ ؛ ٢٢ : ٧١) « ما أنزل الله بها من سلطان » (١٢ : ٤٠ ، ٥٣ : ٢٣) .

و هكذا فتعبير التنزيل يطلق على الله ، و على المخلوق ، على الأشخاص و على الأشياء ؛ يُستعمل حقيقة و مجازاً .

و في لغة القرآن **تنزيل الكتاب مثل تنزيل الحديد و الميزان :** « لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات ، و أنزلنا معهم **الكتاب و الميزان** ليقوم الناس بالقسط . و أنزلنا **الحديد** فيه بأس شديد و منافع للناس » (الحديد ٢٥) .

و هكذا فإن تعبير « التنزيل » في لغة القرآن متشابه لا يُبنى عليه عقيدة . لذلك فإن تنزيل القرآن ، في لغته ، لا يوجب حكماً الوحي المباشر من الله ؛ ووحيه بالوسائط المخلوقة يُنسب ، بحسب لغته ، الى الله نفسه ، فقد أنزل الله الكتاب و الميزان و الحديد معاً (الحديد ٢٥) .

ففى لغة القرآن نفسه ، على تنزيله ، شبهة في إعجازه طريقته .

بحث ثان

التنزيل و مسألة خلق القرآن [1]

إن لغة القرآن في تعبير التنزيل المتشابه أباحت لهم القول في خلق القرآن . و القول بخلق القرآن شبهة على إعجازه و على طريقة تنزيله .

تجاه مقالة المسيحيين بأزلية المسيح لأنه ((كلمة الله)) كما يقول الإنجيل و القرآن ، قال المسلمون الأوائل بأزلية كلام الله في القرآن . ثم ثارت الشبهات بينهم و الخصومات في أزلية القرآن أم في خلقه . و تفرّق القوم الى **ثلاث مدارس .**

مدرسة السلف الصالح قالت **بأزلية حرف القرآن .**

فجاءَ **المعتزلة** و أنكروا أزلية القرآن ، **و قالوا بخلق القرآن** من النقل و من العقل . استشهدوا بقوله : ((ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ، إلاّ استمعوه وهم يلعبون)) (الأنبياء ٢) ؛ ((ما يأتيهم من ذكر من الرحمان محدث إلا كانوا عنه معرضين)) (الشعراء ٥) . وفسروا قوله : ((كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير)) (هود ١) ، بأن ما صادفه فعل بعد فعل يكون محدثا . ثم اعملوا عقلهم فقالوا : إن القرآن مركب من حروف وكلمات ، و المركب محدث ! و في نظرهم إن المقولة بأزلية القرآن تحمل تناقضاً في ذاتها ، فهي القول بقديمين : الله و القرآن ! لأنه إما أن يكون القرآن ذات الله أو غير ذاته : فإن كان القرآن ، كلامُ الله ، ذاتَ الله ، فهل يصح أن يكون من ذات الله ما ورد فيه من أعمال مخلوقة، و أحداث بشرية ؟ و إن كان القرآن ، كلامُ الله ، غَيْر ذاته ، فالقول بأزليته هو القول

---

(١) راجع بحثا سابقا في الموضوع ، من ناحية أخرى

بقديمين ، و هذا هو الكفر بعينه . و لا يُردُّ عليهم بتمييز الأشاعرة في كلام الله أنه في منزلة بين المنزلتين : فلا هو عين الذات ، و لا هو غيرها . لأنه على كل حال من ذات الله ، ومحال أن تكون الأعمال المخلوقة ، و الأحداث البشرية المذكورة في القرآن من ذات الله على أيّ حال .

و جاء **الأشاعرة** بحل وسط . فقالوا : إن كلام الله على نوعين ، **الكلام النفسى** في ذات الله ، **و الكلام اللفظى** في غير ذاته . و اطلاق اسم كلام الله على اللفظى يكون إمّا مجازاً و إما باشتراك اللفظ . و ميّزوا بين **معنى القرآن و حرفه** ، فقالوا : معنى القرآن هو كلام الله غير المخلوق ، و حرف القرآن مخلوق . فالمعنى هو القديم في القرآن ؛ أما الحروف والكلمات و الورق و الحبر و غير ذلك ، فكله محدث . و ظنوا بذلك أنهم يردّون على مقالات المعتزلة في خلق القرآن .

و ذهبت مقالة الأشعرية عقيدة في الإسلام ، و أصبحت نظريتهم مقالة أهل السنة والجماعة من بعدهم .

و التمييز بين معنى القرآن القديم ، و حرفه المخلوق **لا يقطع الشبهات** في التنزيل ولا في الإِعجاز .

إن الإِعجاز الذي يتحدّى و يتحدّون به هو في حرف القرآن من لفظ و نظم : فإذا كان حرف القرآن مخلوقاً ، زال إِعجاز القرآن على الإطلاق ، لأنه « لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز » كما أعلن ابن حزم . و إذا كان الكلام اللفظى عبارة عن الكلام النفسى في ذات الله ، فهناك تناقض : لأن المعاني أرواح ، و الألفاظ أجساد لها ، و الروح في جسد ، كالمعنى في كلام لا يكون مخلوقا و غير مخلوق معاً ؛ و لا يكون غير مخلوق من حيث هو معنى ، وبالوقت ذاته مخلوقاً من حيث هو حرف . فإن كلام الله في ذاته هو من ذاته فهو غير مخلوق؛ و كلام الله المنزل في كلام بشري مخلوق . فالتنزيل ، من حيث هو تنزيل ، مخلوق و غير معجز في ذاته ؛ مثل خلق الكون ، فعمل إلهي معجز ، لكن المخلوق غير معجز ، لأنه محدث . و التنزيل مثل الخلق محدث فهو مخلوق و غير معجز .

و إذا كان القرآن كلام الله في ذاته ، فهل يصح أن يتحدّى الله به بشراً ؟ و لا صلة ، و لا مجانسة بين كلام الخالق و كلام المخلوق ، و التحدّي بالكلام إنما يكون من جنس واحد .

لقد حاول الباقلاني الردّ على هذه الشبهات فقال : إنه تحدّى ، ليس بإِعجاز كلام الله الأزلي ، بل بصورته العربية التى هي عبارة عن الأزلية و حكاية عنها ، و دلالات عليها ، وأمارات لها .

يُردّ عليه بيسر يفضح المغالطة : هل من فرق بين القرآن الأزلي ، كلام الله في ذاته ، و القرآن العربي ، المنزل عربيّاً ؟ فإذا كان هناك من فارق ، فالوحي نفسه مشبوه ؛ و اذا لم يكن ثمة من فارق ، فالتحدّي به ممنوع ، لأنه لا مجانسة بين كلام الخالق و كلام المخلوق .

يقولون : إن القرآن تنزيل من اللوح المحفوظ ، فهو معجز .

و يرد بعضهم : اذا كان قرآن اللوح المحفوظ عين كلام الله الأزلي ، فالتحدّي به ممنوع ، و اذا كان مثل الكلام المنزل بشريا فالتحدّي مشبوه ، إذ « لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز » .

و المغالطة الكبرى هي بين كلام الله الذاتى ، الذي هو بلا صوت و لا حروف و لا كلمات و كلام الله المنزل الذي هو بأصوات و حروف و كلمات و نظم و أسلوب .

و القول الفصل ان إعجاز القرآن الذي به يتحدّى هو في حرفه أي في لفظه و نظمه . **و حرف القرآن مخلوق ، فليس في إعجازه من معجزة .** و ليس القرآن « معجزة لغوية » في تنزيله .

بحث ثالث

تنزيل القرآن بالمعنى أم بالحرف

هذه المسألة قريبة من سابقتها ، و متفرعة عنها .

اختلف علماء الكلام « في المنزل إلى النبي على ثلاثة أقوال :

(أحدها) إنه اللفظ و المعنى ؛ و أن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ و نزل به على النبي .

(الثاني) إن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، و أنه صلى الله عليه و سلم علم تلك المعاني و عبَّر عنها بلغة العرب . و تمسك قائل هذا بظاهر قوله : « نزول به الروح الأمين على قلبك » ، لا على لسانك ـ فلفظ القرآن و نظمه ، في هذه المقالة ، من محمد نفسه .

(الثالث) إن جبريل ألقى اليه المعنى و أنه هو نفسه عبر عنه بهذه الألفاظ بلغة العرب)) ـ فلفظ القرآن و نظمه ، في هذه المقالة ، من جبريل نفسه [1].

و هكذا فإن قولاً واحداً من ثلاثة يقول بالتنزيل باللفظ و المعنى ؛ و إن قولين من ثلاثة يقولان بالتنزيل بالمعنى وحده .

و بما أن الاجماع على إعجاز القرآن في لفظه و نظمه ، فالاختلاف في التنزيل بالمعنى أم باللفظ يجعل الإعجاز **معجزة مشبوهة .**

و الواقع القرآني الذي يشهد بوجود الناسخ و المنسوخ في القرآن ، و بوجود المحكم والمتشابه فيه ؛ و بوجود الاختلاف في التعبير عن الشيء الواحد ؛ و بوجود الاختلاف في النظم و الأسلوب بين القرآن المكي و المدني ؛ و بين سور القرآن المكي و المدني ؛ فإن **القول بالتنزيل بالمعنى** أقرب الى حقيقة الواقع القرآني . و عليه يكون التعبير و اللفظ و النظم و التأليف من جبريل أو من النبي . و في هذه الحالة لا يكون القرآن معجزاً للخلق ، لأنه ((لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز)) .

فالإعجاز كمعجزة يقتضى التنزيل ؛ و التنزيل يقتضى أن يكون كلام الله في القرآن قائماً في ذات الله . فهل لفظ القرآن في ذات الله أم معناه ؟ إنه لا يصح أن تكون ألفاظ القرآن في ذات الله لأنها مخلوقة . و اذا كان معنى القرآن وحده في ذات الله ، سقطت معجزة الإعجاز لأنها في اللفظ و النظم و البيان و الأسلوب .

فسواءٌ كان تنزيل القرآن بالمعنى أم بالحرف ، فليس من معجزة خاصة به في تنزيله.

بحث رابع

نزول القرآن على سبعة أحرف

تنزيل القرآن بالمعنى ، من دون حرفه ، يزيده إشكالاً و إحراجاً و شبهة نزول القرآن على ((سبعة أحرف)) كلها شافٍ كافٍ ، ما لم يختم آية عذاب برحمة ، و آية رحمة بعذاب . و حديث الأحرف السبعة المشهور المتواتر **شبهة ضخمة** على سلامة التنزيل ، و على صحة حفظ القرآن

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١ : ٤٤ .

كما أُنزل ، و على إعجازه . و اختلفوا على نوع الاختلاف بين هذه الأحرف السبعة : أهو اختلاف في الألفاظ أم اختلاف و تعدّد في المعاني . و أكثر العلماء على أنه « اختلاف الألفاظ باتفاق المعاني » ، بحسب تحديد الطبري ، إمام المفسرين بالحديث .

أوّلاً : حديث الأحرف السبعة و التنزيل

عقد السيوطي في (الإتقان ١ : ٤٧) فصلاً قيماً أكّد فيه **صحة الحديث** بشهادة واحد و عشرين صحابيّاً ، و ينقل لنا خبر استفتاء جماعى أجراه الخليفة عثمان بن عفان في المسجد، فشهد جميع الحاضرين بصحته ، و شهد هو معهم علناً على الاجماع عليه .

ثم يفسّر الحديث الغريب بأغرب منه . قال : ليس المراد بالأحرف السبعة اقتصار العدد على سبعة ، بل المراد **التيسير و التسهيل و السعة .** فقد يكون أكثر من سبعة .

و قال : « اختلف في معنى هذا الحديث على نحو **أربعين قولاً ... و أنه من المشكل الذي لا يُدرى معناه** ، لأن الحرف يصدق ، لغةً ، على حرف الهجاء و على الكلمة و على الجهة » . و يجزم أن أكثر العلماء على رأي ابن جرير الطبري : « إن المراد به سبعة أحرف من **المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة** نحو : أقبل و تعالَ و هلمَّ و عجّلْ و أسرعْ ... » .

و هذه هي مقالة الطبري [1] التى أجمعوا عليها : « **إن اختلاف الأحرف السبعة** هو اختلاف الألفاظ باتفاق المعاني » (١ : ٤٨) . ثم يردّ على المقالات المخالفة .

يردّ أولاً على مَن ردَّ حديث الأحرف السبعة المختلفة بحسب الآية : «أفلا يتدبرون القرآن ، و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (النساء ٨٢) ، بقوله: « إنها تقصد اختلاف الأحكام و المعاني ، لا اختلاف الألفاظ و التعابير ، بدليل اختلاف الصحابة ، كلٌّ في قراءَته ، و تصويب النبي لهم جميعا » (١ : ٤٨) .

ثم يردّ على التفاسير الخاطئة للحديث المشهور .

يردّ على من قال : « إنه **اختلاف في التأويل** أي في المعاني المتعدّدة ـ إن الذي تمارى فيه الصحابة كان اختلافاً في اللفظ ، دون ما تدل عليه التلاوة من التحليل و التحريم وما أشبه » (١ : ٤٩) .

---

(١) **تفسير الطبري** : اخراج الأخوين شاكر ج ١ .

و يرد على مَن قال : إنها **لغات أي لهجات سبع** ، في حرف واحد ، و كلمة واحدة ـ « بأنها باختلاف الألفاظ ، و اتفاق المعاني » (١ : ٥٧) .

و يرد على فهم الأحرف السبعة بأنها **القراءات السبع الشائعة** على المصحف العثماني ـ « إن اختلاف القراءَة في الرفع و الجر و النصب ، و نقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة ، كما هي القراءَة اليوم اليس من الأحرف السبعة في شيء . و إن المراء فيها لا يوجب كفراً » (١ : ٦٥) .

و يرد تأويل الأحرف السبعة **بمعاني القرآن المتعدّدة** من الأمر و النهي ، و الوعد والوعيد ، و الجدل و القصص و المثل (١ : ٦٢ ـ ٦٦) ـ بأن تماري الصحابة كان بالإلفاظ المختلفة ، و تصويب النبي لها جميعاً .

أخيراً يقص كيف **أتلف عثمان** بن عفان ستةً من الأحرف ، و جمع الأمة على حرف واحد ، من السبعة ، هو الحرف العثماني الوحيد الباقي الى اليوم ، و عليه اختلاف القراءات السبع بعد الجمع .

و تابع الطبري في تفسيره أكثر الأئمة . منهم أبو عبد الله الزنجاني . قال : « المراد بالأحرف السبعة **أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة** » . و هذا ممّا يجعلها سبعة نصوص مختلفة لقرآن واحد . فهل أنزل الله سبعة قرائين ؟!

و من الغرابة أن يستصوب النبي ذاته التلاوة لقرآن واحد ، بأحرف سبعة مختلفة يقول أبو جعفر النحاس [1] : « **يُفهم من سلف الأمة ، و خيار الأئمة** أن معنى (نزل القرآن على سبعة أحرف) من أنه نزل **بسبع لغات** ، و أمر بقراءَته على **سبعة ألسن ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني .** و من الروايات الثابتة عن عمر بن الخطاب ، و عبد الله بن مسعود ، و أُبَى بن كعب ، و سائر من قدّمنا الرواية عنهم ، أنهم تماروا في القرآن ، فخالف بعضهم بعضاً في نفس التلاوة ، « دون ما في ذلك من المعاني ! و أنهم احتكموا الى النبي ص فاستقرأ كل رجل منهم ، **ثم صوّب جميعهم في قراءَتهم على اختلافها** ، حتى ارتاب بعضهم لتصويه إياهم . فقال رسول الله ﷺ للذى ارتاب منهم ، عند تصويبهم جميعهم : **إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف** » .

---

(١) في كتابه : **الناسخ و المنسوخ** .

فهذه الشهادة عن « سلف الأمة و خيار الأئمة » تؤكد أن أحرف القرآن السبعة قبل جمعه على حرف واحد ، لم تكن في التنزيل نفسه ، بل في اختلافهم على قراءة القرآن الواحد.

و هذه القراءات المختلفة ، بنصوص مختلفة لقرآن واحد ، بتصويب النبي لها جميعاً شهادة قائمة على **أن القرآن الواحد أمسى ، على عهد النبي نفسه ، سبعة قرائين .** و لتستير هذه الشبهة الضخمة على صحة التنزيل و سلامته ، كان حديث نزول القرآن على سبعة أحرف .

و تعدّد النص الواحد الى سبعة نصوص شبهة ضخمة على صحة التنزيل .

ثانياً : حديث الأحرف السبعة و التاريخ

لذلك يرى اليوم علماء الإسلام الأعلام أن حديث الأحرف السبعة ليس قضية تنزيل ، بل قصة تاريخ وواقع بعد التنزيل .

نقل محمد صبيح [1] عن الدكتور طه حسين : « ـ و قد أحاط في موضوعه بآراء المحدثين و القدماء من المسلمين ، كما أحاط بآراء المستشرقين ـ إن القرآن الذي تُلي **بلغة واحدة و لهجة واحدة هي لغة قريش و لهجتها** ، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته ، و تعددت اللهجات فيه ، و تباينت تبايناً كثيراً ... و ليست القراءات السبع المتواترة الى يومنا ، بالأحرف السبعة التى أُنزل عليها القرآن ، **و انما هي شيء وهذه الأحرف السبعة شيء آخر ...** و قد اتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف ، و النبي بين أظهرهم ، فنهاهم عن ذلك و ألح في نهيهم فلمّا توفي استمرّ أصحابه يقرأون القرآن على هذه الأحرف السبعة ، كلٌ يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي . فاشتد الخلاف و المراء في ذلك ، حتى كادت تقع الفتن بين الناس و لاسيّما في جيوش المسلمين . فرُفع الأمر الى عثمان فجزع له و أشفق . فجمع لهم المصحف الإمام ، و أذاعه بالأمصار ، و أمر بما عداه من المصاحف فمُحي محواً . **و على هذا مُحيت من الأحرف السبعة ستة أحرف ، و لم يبق إلا حرف واحد** ، هو الذي نقرأه في مصحف عثمان ، و هو حرف قريش. **و هو**

---

(١) في كتابه : **عن القرآن** ص ١٠١ الذي ينقل عن : **الأدب الجاهلي** ص ٢٩ .

الحرف الذي عادت فاختلفت لهجات القراء فيه ، فمدَّ بعضهم و قصّر بعضهم ، و فخّم فريق و رقّق فريق ، و نقلت طائفة و أثبتت طائفة ...

((ثم أورد الأستاذ طه حسين ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه . و قال : و الحق أن ليست هذه القراءات السبع (الأحرف السبعة) **من الوحي في قليل و لا كثير .** و ليس منكرها كافراً و لا فاسقا و لا مُغتَمزاً في دينه . و إنما هي قراءات مصدرها اللهجات و اختلافها . للناس أن يجادلوا فيها ، و أن يُنكروا بعضها و يقبلوا بعضها . و قد جادلوا فيها بالفعل و تماروا و خطّأ بعضهم بعضاً . و لم نعرف أن أحداً من المسلمين كفَّر أحداً لشيء من هذا)).

تلك هي قصة الأحرف السبعة قبل التوحيد العثماني : إنها قصة تاريخ و أمر واقع لا قصة تنزيل على أحرف سبعة . فوجود أحرف أي نصوص سبعة لقرآن واحد ، على زمن النبي و صحابته من بعده ، باختلاف الألفاظ و اتفاق المعاني ، **ليس من التنزيل في شيء :** فهل يعقل أن يُنزل الله على نبي واحد كتاباً واحداً بسبعة نصوص ؟

إن حديث الأحرف السبعة المشهور المتواتر يصوّر لنا **الحالة التعسة** التي وصل اليها نص القرآن قبل جمعه . أجل ((إن القرآن الذي تُلى بلغة واحدة ، و لهجة واحدة ، لم يكد يتناوله القراء حتى كثرت قراءاته ، و تعدّدت اللهجات فيه ، و تباينت تبايناً كثيراً)) . فاقتتل عليه الغلمان في المدارس ، و الجنود في الحروب .

إن هذا الحديث **يصور أمراً واقعاً مفجعاً :** ففي زمن النبي ، و بحضرته ، يختلفون في نص القرآن الواحد ، و يضطّر محمد الى تصويبهم جميعاً . و زاد الخلاف ، في زمن الخلفاء الراشدين ، حتى كاد نص القرآن يضيع . إن هذا التعدّد في نص القرآن الواحد ، على حياة النبي نفسه ، ثم من بعده ، برهان قاطع للاشتباه اللازم على صحة النص المنزل . و لو كانت الأحرف السبعة من التنزيل في شيء ، لَما تجرّأ عثمان على إبادة ستة منها ! و لَما وافقته الأمة على فعلته . و لكنه فعل برضى الأمة و قبول الأئمة ، لرفع خطر الاختلاف على سلامة النص القرآني . لكن الواقع التاريخي كان قد تخطاه في الاختلاف الى سبعة نصوص ، فما فوق . و كانت براعة فائقة من النبي ان ينسب هذه الفوضى في نص القرآن إلى تدبير إلهي ،

و تنزيل رباني . هذا إن صح الحديث ، كحديث نبوي . و لكن من السذاجة الجاهلة أن يتستّر السلف الصالح بحديث شريف لستر أمر خطير . أجل لقد اختلف نص القرآن الواحد اختلافاً كثيراً ، على حياة النبي و على حياة صحابته و على حياة الخلفاء الراشدين ، قبل اختيار عثمان و لجانه المختلفة للحرف العثمانى الناجي ، الذي نجا بقوة الحديد و النار .

هذا الواقع التاريخي يفرض النتائج التالية :

أولاً : إن نص التنزيل قد فسد على حياة محمد و صحابته قبل جمعه . و في هذا الواقع شبهة ضخمة قائمة ، لا مرد لها ، على سلامة النص المنزل من التحريف .

ثانياً : إن معجزة « حفظ » القرآن من التحريف أسطورة . فهل كان عثمان ، و هل كانت لجانه المختلفة المتتابعة ، معصومين حتى يختاروا النص الصحيح من الأحرف السبعة المتداولة ؟ و هل كان بوسعهم أن يفعلوا بعد أن صار القرآن الواحد قرائين ؟ أمن الممكن ، بعد نصف قرن تقريباً ، من تلك الفوضى ، الرجوع الى النص المنزل ، بدون تحريف . هذه معجزة إلهية ، و قد مُنعت المعجزات مبدئياً منعاً مطلقاً على النبي (الإسراء ٥٩) ، و لا شاهد أن جماعته من بعده كانوا من أهل المعجزة و من أهل العصمة .

ثالثاً : إن هذا الواقع التاريخي شبهة ضخمة قائمة على صحة التنزيل و على صحة الإعجاز معاً : إن نصّاً منزلاً على صحته شبهة لا يقوم التحدّي به و بإعجازه .

و هكذا فإن حديث الأحرف السبعة التاريخي ينقض إعجاز القرآن من أساسه ، لأنه مبنى على حرفه المنزل ، و هذا الحرف قد صار « سبعة أحرف » أي سبعة قرائين فما فوق، قبل توحيده العثمانى بالحديد و النار ، و تدوينه على ثلاثة اصدارات ، لأبي بكرٍ ثم لعثمان ثم للحجاج بن يوسف . فحق لهم أن يقولوا : « إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة » .

بحث خامس

ميزات التنزيل القرآني

في القرآن و الحديث ، للتنزيل القرآني ميزات تقوم عليها شبهات نورد منها ما تيسر ، لنرى مدى الإِعجاز في التنزيل .

أولاً : بحسب القرآن

١ ـ الميزة الأولى : النسيان من القرآن .

أول ميزة تواجهنا في تنزيل القرآن هي النسيان منه بعمل النبي ، أو بعمل الله: ((سنقرئك فلا تنسى ، إلاّ ما شاء الله)) (الأعلى ٦ ـ ٧) . إن قضية النسيان أمر واقع للنبي، فقد كان ينسى بعض الوحي ؛ و قضية مبدإ إلهي ، فقد يشاء الله أن ينسى النبي ، كما يدل الاستثناء : ((إلاّ ما شاء الله)) .

نقل البيضاوي : ((روى أنه ص أسقط آية في الصلاة ، فحسب أُبي أنها نُسخت ، فسأله ، فقال : نسيتها)) . فإذا أوحى الله لعبده شيئاً فهل يصح أن ينساه أو يتناساه ؟

و في آية النسخ ، تصريح بأن الله قد ينسى نبيه عمداً بعض الوحي : ((ما ننسخ من آية **أو ننسها** ، نأت بخير منها أو مثلها)) (البقرة ١٠٦) . فهل يصح أن يوحي الله شيئاً ثم يأمر بنسيانه ؟

و بعد آية النسيان (الأعلى ٦) يأتي هذا التحذير : ((إنه يعلم الجهر و ما يخفى)) (الأعلى ٧) . فهل كان النبي يقصد النسيان ؟ إن آية التبديل (النحل ١٠١) و آية المحو (الرعد ٣٩) توحيان بأن النسيان من التنزيل قد يكون مقصوداً من الله ، و من النبي أيضاً .

فهل ميزة النسيان المقصود من التنزيل هو من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

٢ ـ الميزة الثانية : استباق الوحي و التنزيل

هذه هي الظاهرة الثانية التى تطالعنا : كان محمد يستعجل الوحي و يستبقه ، فجاءَه هذا التوبيخ : « لا تحرّكْ ، لسانك لتعجل به ! إنّ علينا جمعه و قرآته ، فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه، ثم إن علينا بيانه » (القيامة ١٦ ـ ١٩) . فهذا العتاب يدل على أن النبي كان يستبق الوحي أحياناً . و كان يتدخل في جمع القرآن و قراءَته . و كان ينفرد أحياناً ببيان القرآن قبل كمال تنزيله .

فسّره البيضاوي : « لا تحرك ، يا محمد ، بالقرآن لسانك **قبل أن يتم وحيه** لتأخذه على عجل ، مخافة أن يتفلت منك ... و هو اعتراض **بما يؤكد التوبيخ** على حب العجلة » .

و في (أسباب نزول) الآية (القيامة ٣٤) نقل السيوطي مثالاً على هذه العجلة المذمومة : « أخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن قوله « أولى لك فأولى » أشيء قاله رسول الله ص من قِبَل نفسه أم أمره الله به ؟ قال: **بل قاله من قبل نفسه ، ثم أنزله الله** » .

و فسّر البيضاوي قوله : « ثم إن علينا بيانه ـ أي بيان ما أشكل عليك من معانيه . وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب » . و خطاب منزل أو قرآن لا يفهمه النبي نفسه للحال ، بل هو بحاجة الى بيان متأخر عنه ، كيف يكون معجزاً للناس ؟ والإِعجاز هو السهل الممتنع الذي تنزيله هو بيانه .

و يظهر أن استباق الوحي كان من عادة النبي ، فيعود الى تحذيره : « و لا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ! و قلْ : ربِّ زدني علماً » (طه ١١٤) . قال البيضاوي أيضاً في تفسيره : « **فيه نهي عن الاستعجال في تلقى الوحي من جبريل** ، ومساوقته في القراءَة حتى يتم وحيه . و قيل : نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه » .

فهل في استباق الوحي و التنزيل إِعجاز هذا الوحي و التنزيل ؟

٣ ـ الميزة الثالثة : إمكان فتنة الناس للنبي عن الوحي

ظاهرة خطيرة و مؤلمة ، و هي إمكان فتنة الناس للنبي عن الوحي ، و إمكان ركون النبي الى فتنتهم : « و إن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره : و إذاً لا تخذوك خليلاً ! و لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ! ثم لا تجد علينا نصيراً » (الإسراء ٧٣ ـ ٧٥) .

يشهد القرآن أن هذه الإمكانية كادت تكون عند محمد أمراً واقعاً في شيء قليل . قال البيضاوي : ((**و الآية تدل على جواز السهو على الأنبياء و تطرق الوسوسة اليهم**)) .

و التحذيرات و التهديدات المتواترة في **أزمة الشك** التى انتابت محمداً من التوحيد ، ومن النبوّة ، و من الوحي و التنزيل ـ كلها تدل على جواز فتنة محمد ((عن الذي أوحينا إليك))، كقوله في السورة التالية نزولاً : ((فإن كنت في **شك ممّا أنزلنا إليك** ، فسأل الذي يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءَك الحق من ربك : **فلا تكونَنَّ من الممترين ! و لا تكونَنَّ من الذين كذبوا بآيات الله** ، فتكون من الخاسرين)) (يونس ٩٤ ـ ٩٥) .

و لا عتاب إلاّ بعد ذنب . و هذا الشك من نتائج تلك الفتنة . فهل إمكان فتنة النبي عن الوحي من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

٤ ـ الميزة الرابعة : ترك بعض الوحي

إن الظاهرة الرابعة في التسلسل التاريخي للنزول هي إمكان ترك النبي بعض ما يُوحى اليه : ((فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ! و ضائق به صدرك ! أنْ يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه مَلَكٌ ؟ ـ إنما أنت نذير ، و الله على كل شيء وكيل)) (هود ١٢) . إنّ تحدّي المشركين المتواتر للنبي بمعجزة كالأنبياء الأولين ، و عجزه المتواصل عنها مع الوعد بها ، حمله على ترك بعض الوحي ؛ و أُفهم أنه نذير لا معجزة معه . فسره البيضاوي : ((ليس عليك إلاَّ الانذار بما أوحى إليك ، و ما عليك ردّوا أو اقترحوا : فما بالك يضيق صدرك)) .

أجل لا يلزم من توقع الشيء حدوثه ؛ و لكن مجرّد التهمة شبهة . و ضيق صدر النبي من عدم وقوع المعجزة دليل على ما همَّ به من ترك بعض الوحي . و لولا عزم النبي على ترك بعض الوحي ، ما كان القرآن ليوبخه هذا التوبيخ اللاذع : فلا يليق بالله توبيخ بلا ذنب ، و لا معاتبة بلا زلة . فهل محنة ترك بعض الوحي من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

٥ ـ الميزة الخامسة : التبديل في آي القرآن

ظاهرة مذهلة تمس التنزيل في صميمه ، و الآية صريحة لا تحتاج الى تأويل: ((و اذا بدلنا آية مكان آية ـ و الله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفتر ! بل أكثرهم لا يعلمون)) (النحل ١٠١) . فالتبديل في آي القرآن أمر واقع ، بنص القرآن القاطع . و يشهد على حقيقة

التبديل أيضاً فتنة الارتداد عن الإسلام التى انتابت الجماعة الصغيرة بعد الحادثة ، فاستنزلت غضب الله : « من كفر بالله بعد إيمانه ... فعليهم غضب من الله ، و لهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦ ـ ١٠٩). وهذا التبديل في آي القرآن يؤكد الظواهر الأخرى ، و ينقلها من الإمكان الى الواقع : مثل ترك النبي لبعض الوحي ، و فتنة الناس له عن بعض آخر ، واستعجال الوحي و استباقه ، و نسيان أو تناسي بعضه . **و المشكل الأكبر** في التبديل أن التنزيل هو من اللوح المحفوظ : فأيهما المثبت في اللوح المحفوظ المبدَل أو المبدَل به ؟ و إذا كان ما في اللوح المحفوظ مكتوب منذ الأزل فكيف جرى تنزيل غيره ؟ إن المؤمن ليحار من واقع التبديل في التنزيل حيرة لا شفاء منها . فهل التبديل من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

٦ ـ الميزة السادسة : الاستعاذة من الشيطان قبل قراءَة القرآن

بمناسبة التبديل في التنزيل يأتي النبي هذا الأمر : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (النحل ٩٨) . فذهبت سُنّةً في الأمة ، فهم يستعذون من الشيطان ، قبل الاستفتاح باسم الرحمان !

و كلام الله هو نفسه استعاذة تطرد الشيطان . أتكون الاستعاذة من المخلوق أقوى من الاستفتاح بذكر الخالق ؟ و هل للشيطان على الوحي و التنزيل ذلك التأثير حتى أنه ليفسده بتدخله ، اذا لم يستعذ النبي منه ؟ إن صح ذلك ، فهو في التنزيل بلاء عظيم !

و سورة (المؤمنون) التى تلى سورة (النحل) يظهر **هلع النبي من حضور الشيطان عنده** و من همزاته له : « و قلْ : ربّ أعوذ بك من همزات الشيطان ، و أعوذ بك، ربّي أن يحضرون » (٩٧ ـ ٩٨) . فالاستعاذة هي إذن من حالة واقعية . و هنا ذروة الحيرة في تنزيل يخشى من حضور الشيطان !

فهل حضور الشيطان للتنزيل من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

٧ ـ الميزة السابعة : المحو من التنزيل

و هذه ظاهرة أخرى تبلبل الراسخين في الإيمان : « لكل أجل كتاب : يمحو الله ما يشاء ويثبت ، و عنده أُمّ الكتاب » (الرعد ٣٩) .

يقول الجلالان : « أمُّ الكتاب أي أصله الذي لا يتغيّر منه شيء ، و هو ما كتبه في الأزل » ، و هذا كناية عن اللوح المحفوظ . قال السيوطي : « و معلوم أن ما نزل من الوحي نجوماً جميعه في أم الكتاب و هو اللوح المحفوظ » [1] .

---

(١) **الإتقان** ١ : ٢١ .

وهذا المحو في التنزيل قد يلحق المكتوب في أم الكتاب ، أو المنزل عن أم الكتاب . وكيف يلحق المحو و الاثبات ما كتبه منه الأزل في اللوح المحفوظ ؟ أم كيف يلحق المحو والاثبات المنزل حرفياً أو معنوياً عن اللوح المحفوظ ؟ و أيهما المكتوب في أم الكتاب : هل الممحو أم المثبت ؟

أجل قد ((تتبدّل الأحكام بتغير الأزمان)) ! لكن هل يتبدّل الزمن مع نبي واحد و كتاب واحد ، و في عهد واحد ، و ربما في سورة واحدة ؟ أجل ((لكل أجل كتاب)) ، سواء في التنزيل أم في القضاء و القدر . و قد يمحو الله ما يشاء و يثبت من كتاب منزل الى كتاب آخر منزل ؛ أمّا في الكتاب الواحد فلا يصح ذلك على الحكيم العليم . و التنزيل هنا من ((أم الكتاب)) : فما هو المكتوب فيها منذ الأزل ، هل الممحو أم المثبت ؟ و كيف يصح محوه من اللوح المحفوظ ؟ أم كيف يصح محوه من التنزيل عن اللوح المحفوظ ؟ و هل الإعجاز في التنزيل هو في المحو أم في المثبت ؟ لا شك في المثبت . فقد كان التنزيل الممحو اذن غير معجز ! فهل يصح تنزيل من الله لا إعجاز فيه ؟ و بما أن الممحو و المثبت هما من معدن واحد ، فالممحو من التنزيل شبهة على المثبت منه . فهل المحو في التنزيل من الإعجاز في هذا التنزيل ؟

٨ ـ الميزة الثامنة : النسخ في التنزيل

إن النسخ في أحكام القرآن ميزة انفرد بها على كتب الله . و هو قضية مبدإ و قضية أمر واقع : ((ما ننسخ من آية ، أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها)) (البقرة ١٠٦) . نذكر هذه الميزة هنا ، و سنفرد لها بحثا آخر . نقول فقط : أين الإعجاز في التنزيل ، هل هو في المنسوخ أم في الناسخ ؟ و ما هو المثبت في اللوح المحفوظ ، هل المنسوخ أم الناسخ ؟ تتبدل الأحكام بتغير الأزمان ، من عهد الى عهد ، و من نبي الى نبي ، و من كتاب الى كتاب . لكن هل يصح النسخ في الكتاب الواحد و عند النبي الواحد و في العهد الواحد ، و في السورة الواحدة ؟ فهل هذا النسخ في التنزيل من الإعجاز في هذا التنزيل ؟

٩ ـ الميزة التاسعة : المتشابه في التنزيل

يقسم القرآن تنزيله الى محكم و متشابه ، و يقتصر المحكم في التنزيل القرآني على الأحكام فيه ؛ و ما سواها فهو من المتشابه ، أي أكثر القرآن . و في هذا المتشابه يصرح جازماً : ((هو

الذي أنزل عليك الكتاب : منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب **و أخر متشابهات** : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون **ما تشابه منه** ، ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله . و ما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، كلٌ من عند ربنا . و ما يذّكر إلا أولو الألباب » (آل عمران ٧) .

نعلّق هنا بكلمتين . الأولى : إن الآيات المحكمات « هنّ أم الكتاب » . و نعلم أنّ « أم الكتاب هي أصله الذي لا يتغيّر منه شيء ، و هو ما كتبه في الأزل » (الجلالان) ، و أم الكتاب كناية عن اللوح المحفوظ . فإذا كانت الآيات المحكمات هنّ أمّ الكتاب ، و اللوح المحفوظ ، فالآيات المتشابهات ، و هي أكثر القرآن ، **من أين نزلت ؟** هل هي من عند النبي نفسه ؟ و الثانية ، يقول : إن المحكم و المتشابه ، « كلٌ من عند ربنا » ، و المتشابه غير معجز على الإطلاق ، لأنه « ما يعلم تأويله إلا الله »: فهل « عند ربنا » تنزيل معجز ، وتنزيل غير معجز ؟

إن تنزيل المتشابه غير المعجز هو شبهة على تنزيل المحكم المعجز ! فهل المتشابه في التنزيل ، و هو أكثره ، من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

١٠ ـ الميزة العاشرة : إلقاء الشيطان في التنزيل

أغرب ميزات القرآن ظاهرة إلقاء الشيطان في تنزيله : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي ، إلاّ إذا تمنىّ (قرأ) ألقى الشيطان في أمنيته (قراءَته) . فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يُحكم الله آياته ، و الله عليم حكيم ، يجعل ما يُلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، و القاسية قلوبهم ، و إن الظالمين لفي شقاق بعيد ؛ و ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ، فيؤمنوا به فتخبتَ له قلوبهم ، و إن الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » (الحج ٥٢ ـ ٥٤) .

آيات ملأى بالغرائب . **العجيبة المذهلة أن الشيطان قد يُلقي في قراءَة القرآن** . فهل من ضامن بعد ذلك لسلامة التنزيل الرباني ، و إن أحكم الله آياته بعد الإلقاء الشيطانى ؟ الغرابة الثانية أن تدخل الشيطان في الوحي قد جرى لكل رسول و نبي . و ليس في الكتاب ولا في الإنجيل من شاهد على ذلك . إنما هي ميزة انفرد بها التنزيل القرآني ، بنص القرآن القاطع . الغرابة الثالثة أن إلقاء الشيطان في التنزيل فتنة منه تعالى للمنافقين « الذين في قلوبهم مرض » ، و للكفار « القاسية قلوبهم » ، و لليهود « الظالمين ، في شقاق بعيد » . **إنه يعلّل**

الغرابة بأغرب منها: فهل التنزيل من الرحمان الرحيم للفتنة أم للرحمة؟ أما النصارى « الذين أوتوا العلم » فإنهم يؤمنون به و تخبت له قلوبهم . و إن جماعة محمد « الذين آمنوا » فيهديهم الله ، في هذه المحنة ، الى صراط مستقيم ، على آثار الذين أوتوا العلم .

إن إلقاء الشيطان في التنزيل القرآني فتنة مقصودة تبلبل الأمة . فهل إلقاء الشيطان في التنزيل من الإِعجاز في هذا التنزيل ؟

أخيراً **الميزة الجامعة المانعة** للتنزيل القرآني أنه **قليل من العلم المنزل :** « و ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (الإسراء ٨٥) .

في اصطلاح القرآن « العلم » هو العلم المنزل ؛ و « أولو العلم » هم أهل الذكر وأهل الكتاب ، الذين يسميهم في السورة نفسها « **الذين أوتوا العلم من قبله** » (١٠٧) . فهؤلاء عندهم الكتاب « الإمام » (الأحقاف ١٢ ؛ هود ١٧) ، فعندهم فيه « العلم » كله . و بما أنه يصف اليهود « بالظالمين ، في شقاق بعيد » (الحج ٥٣ قابل العنكبوت ٤٦) ، النصارى بأولي العلم قائماً بالقسط (آل عمران ١٨) ، الراسخين في العلم » (آل عمران ٧) ، فالعلم المنزل الكامل هو عند هؤلاء « الراسخين في العلم ». و برهان ذلك أن القرآن نفسه « هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ، و ما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » (العنكبوت ٤٩).

فالتنزيل الكامل هو عند « الراسخين في العلم » أي النصارى . أما في القرآن، « ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

تلك هي ميزات التنزيل القرآني ، و كلها دلائل قاطعة على أنه ليس من الإِعجاز في التنزيل .

إن «**دلائل الإِعجاز** » ، قبل أن تظهر في النظم و البيان ، يجب أن تكون في التنزيل نفسه .

ثانياً : بحسب الحديث

لقد وردت أحاديث عن النبي تزيد الشبهات على « دلائل الإِعجاز » في التنزيل ، وعلى موقف النبي من التنزيل القرآني .

١ ـ جاء في الصحيح عن أنس : « إن نصرانيّاً كان يكتب الوحي لمحمد ، و كان هذا النصراني يقول : **لا يريد محمد إلاّ ما كتبتُ أنا** » **!**

٢ ـ و جاءَ فيه عن عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، و كان من كتبة الوحي أيضاً ، أنه كان يقول : « كنت أصرف محمداً حيث أريد ! كان يثملي علي (عزيز حكيم) ، فأقول (عليم حكيم) ، فيقول : نعم ، كلٌ صواب ! حتى قال لى آخر الأمر : **اكتبْ كيف شئت** » !

و في (أسباب النّزول) ، على الآية ٩٣ من الأنعام : « **سأُنزل مثل ما أنزل الله** »، نقل السيوطي « أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبى سرح . كان يكتب لِلنبي ص ، فيُملي عليه (عزيز حكيم) ، فيكتب (غفور رحيم) ، ثم يقرأ عليه ، فيقول : نعم سواء . فرجع عن الإسلام و لحق بقريش » .

٣ ـ و على آية الأنعام نفسها (٩٣) نقل الطبري [١]، عن السدي ، نحوه . ثم زاد: « قال : إن كان محمد يُوحى إليه ، فقد أُوحي إليَّ ، و إن كان الله يُنزله ، **فقد أنزلتُ مثل ما أنزل الله !** قال محمد (سميعاً عليماً) فقلت أنا : (عليماً حكيماً) » .

٤ ـ و كان عبد الله بن مسعود من كتبة الوحي أيضاً . و قد روي عنه أن محمداً أملى عليه آية فكتبها . ثم التمسها ثانى يوم في مصحفه فلم يجدها ، و كانت الصحيفة خالية . فأخبر النبي ص فقال له : « **إنها نسخت من ليلتها** » .

٥ ـ و على الآية : « و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ... » و طلب النبي فاصلة ....

روى الطبري عن عبد الله بن سعد بن أبى سرح أيضاً أنه قال : « فقلتُ : (تبارك الله أحسن الخالقين) ؛ فقال محمد : اكتبها ، كذلك نزلت . فشك عبد الله و قال : لئن كان محمد صادقاً ، لقد أُوحي إلى كما أوحي اليه ! و لئن كان كاذباً ، لقد قلتُ كما قال » ! و أورد السيوطي في (أسباب نزولها) : « أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال : وافقتُ ربى في أربع منها ، نزلت (و لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ...) فلمّا نزلت ، قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين » . و كثرة الطرق دليل على أن للقصة أصلا .

٦ ـ **و قصة عمر بن الخطاب** في تنزيل القرآن قصة ذات مغزى كبير . جاءَ في الحديث ، عن ابن عمر ، قال : « ما نزل بالناس أمر قط ، فقالوا و قال ، **إلا نزل القرآن على**

---

(١) قابل السيوطي أيضاً : **أسباب النّزول** على (الأنعام ٩٣).

ما قال عمر » ! و أخرج ابن مردويه ، عن مجاهد ، قال : « **كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن** » ! و هكذا ، إن صحت الأحاديث ، فإنهم يجعلون لعمر بن الخطاب يداً في معاني القرآن ، و في تعابيره و الفاظه .

و قد حاول بعضهم حصر دور عمر في التنزيل **في ثلاث أو أربع موافقات** ، كما نقل النجارى و غيره عن عمر : « **وافقت ربى في ثلاث** . قلتُ : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت : (و اتّخذوا من مقام إبراهيم مصلى) . و قلت : إن نساءَك يدخل عليهن البَرّ و الفاجر ، فلو أمرتهنَّ أن يحتجبن ! فنزلت آية الحجاب : (و اذا سألتموهن متاعاً ، فاسألوهنّ من وراء حجاب ، ذلك أطهر لقلوبكم و قلوبهن) . و اجتمع على رسول الله ص نساؤه في الغيرة ، فقلت لهن : عسى ربه ، إن طلقكنّ ، أن يبدّله أزواجاً خيراً منكنَّ ! **فنزلت كذلك** : « عسى ربه ، إنْ طلقكنَّ ، أن يبدّله أزواجاً خيراً منكنّ »!

إن دور عمر في تنزيل القرآن لم يقتصر على تلك الموافقات الثلاث كما يظهر من الحديثين السابقين . و هذا الدور الثابت من الحديث يترك في النفس ريبة تكاد لا تنتهي .

٧ ـ و في قصة أسرى بدر ، و شورى الصحابة في أمر قتلهم أو فدائهم ، قال عمر بالقتل ، و أشار أبو بكر الصديق بالفداء . فنزل القرآن بالمقالتين معاً ، مع تفضيل رأى أبي بكرٍ بقبول الفداء . قابل (أسباب النّزول) للسيوطي ، في القصة . و قد تكون المرة الوحيدة التى نزل بها القرآن على خلاف ما قال عمر ، اذا استثنينا قصة صلح الحديبية .

٨ ـ و على الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة الواقعة : « ثلة من الأولين **و قليل** من الآخرين » ، نقل السيوطي في (أسباب النّزول) : « أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم ، عن أبي هريرة قال : « لما نزلت (ثلة من الأولين و قليل من الآخرين) ، شق ذلك على المسلمين فنزلت : « ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين » (الواقعة ٣٩ ـ ٤٠) .

و أخرج ابن عساكر في (تاريخ دمشق) عن جابر بن عبد الله، قال: « لما نزل (ثلة من الأولين ، و قليل من الآخرين) ، قال عمر : يا رسول الله ، ثلة من الأولين ، و قليل منا؟ **فامسك آخر السورة سنة** ، ثم نزلت (ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين) . فقال رسول الله ص : يا عمر تعالَ فاسمع ما قد أنزل الله » !

و أخرجه ابن أبي حاتم عن عروة بن رويم مرسلاً)) .

و هنا يظهر عمر لسان حال الجماعة في التنزيل .

٩ ـ جاء في (أسباب النّزول) للسيوطي عن آية المحاسبة على الوسوسة (البقرة ٢٨٤) : روى أحمد و مسلم و غيرهما عن أبي هريرة ، قال : لمّا نزلت (و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله) ، اشتد ذلك على الصحابة ، فأتوا رسول الله ص ثم جثوا على الركب فقالوا : **قد أنزل عليك هذه الآية و لا نطيقها !** ... فنسخها ، و أنزل : (لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت) .

((و روى مسلم و غيره عن ابن عباس نحوه)) .

و كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً . فإن صحت ، فهذا **بلاء عظيم في التنزيل**: أينزل الوحي بما يفرض الله على عباده ، أم بما يشتهون ؟! أتنزل الشريعة بما يريد الله أم بما يريدون ؟!

١٠ ـ و في (أسباب النّزول) نقل السيوطي أيضاً في الآية : ((و امرأة مؤمنة ، إنْ وهبت نفسها للنبي ، إنْ أراد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين)) (الأحزاب ٥٠) ، ((إنَّ أم شريك الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ ، و كانت جميلة ، فقبلها . فقالت عائشة : ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير ، فنزلت . فلما نزلت هذه الآية ، قالت عائشة : **إن الله يُسرع لك في هواك**)) !

١١ ـ و نقل أيضاً في (أسباب النّزول) : ((أخرج الشيخان عن عائشة أنها كانت تقول : أما تستحي المرأة أن تهب نفسها ؟ فأنزل الله (تُرجىء من تشاء منهنَّ ، و تؤوي إليك من تشاء) . فقالت عائشة : **أرى ربك يُسارع لك في هواك**)) !

فالله تعالى ، في التنزيل القرآني ، يُسارع في هوى النبي ، و في هوى جماعته .

١٢ ـ و في ما أسقط النبي أو الصحابة من القرآن ، قد ورد حتماً أكثر من ذلك .

روى المسوّر بن محزمة أن عبد الرحمان بن عوف قال : ((ألم نجد في ما أنزل علينا (جاهدوا كما جاهدتم أول مرة) ، فإنا لا نجدها . قال : **أُسقطت في ما أُسقط من القرآن**)) .

١٣ ـ و روى عن ابن عمر : ((لا يقولنَّ أحدكم : (أخذت القرآن كله) ، و ما يدريه ما كله ! **قد ذهب منه قرآن كثير !** و لكن ليقلْ : قد أخذت منه ما ظهر)) [١] !

---

(١) عن دروزة : **القرآن الكريم** ص ٥٩.

و النتيجة الحاسمة : أن تلك الميزات و تلك الأحاديث شبهات على الإِعجاز في التنزيل .

و في الصحيحين ، و في كتب (أسباب النّزول) كثير من هذه الأحاديث . و مهما كانت درجتها من الصحة ، فإنَّ فيها شيئاً من الواقع التاريخي ، و إلاّ كان القوم على النبوّة وعلى التنزيل يكذبون .

و النتيجة الحاسمة منها أن للمخلوق ضلعاً في التنزيل القرآني ، و يداً في ما بقي من القرآن ، و في ما أُسقط منه .

فمهما رقّت شهادة الحديث و (أسباب النّزول) ، فهل تدلّ على إعجاز في التنزيل ؟ و بما أن القرآن **قد نزل أحياناً** « **على ما قال عمر** » ، فقد ضاهي عمر إِعجاز القرآن .

إن تلك الشبهات من الحديث ، و تلك الميزات في القرآن ، ليست دلائل على الإعجاز في التنزيل . إنما هي شبهات تترك المؤمن و غير المؤمن في حيرة لا تنتهي من أمر التنزيل في القرآن .

بحث سادس

عَرضات القرآن السنوية على جبريل لتنقيح القرآن

في تنزيل القرآن ميزة ما بين الواقع و الخرافة ، أشار اليها العلماء : و هي عرْضات القرآن السنوية على جبريل : « و المعتمد أن جبريل كان يعارضه في رمضان ، بما ينزل به طول السنة » [1] .

أوّلاً ـ وإليك هذه القصة الغريبة كما أثبتها السيوطي في (الإتقان ١ : ٥١) :

---

(١) **الإتقان** : ١ : ٤١ ـ في آخر الصفحة .

« أخرج ابن اشته (في المصاحف) و ابن أبى شيبة في (فضائله) من طريق ابن سيرين عن عبيدة السلماني قال ، القراءة التى عُرضت على النبي ﷺ في العام الذي قُبض فيه هي القراءة التى يقرأها الناس اليوم .

« و أخرج ابن اشته عن ابن سيرين قال : كان جبريل يعارض النبي ص **كل سنة في شهر رمضان مرة .** فلما كان العام الذي قبض فيه **عارضه مرتين** . فيرون ان تكون قراءَتنا هذه على العرضة الأخيرة » .

هذا هو الواقع الذي يعلّمون : كان جبريل ، كل سنة ، في شهر رمضان ، يستعرض القرآن مع النبي . إن صح ما يعلّمون فما معنى هذا الواقع ؟ **معناه المحتوم** إنه في بحر السنة دخل القرآن ما ليس منه فاضطر جبريل الى تنقيحه ، أو كان التنزيل الأول ناقصا فجرى تكميله .

و تنزيل بحاجة كل سنة إلى استعراض و تنقيح هل هو من الإِعجاز في التنزيل !

و لإكمال الرواية أشركوا زيداً بن ثابت في العرضة الأخيرة : « و قال البغوى في (شرح السنة) يقال : إن زيداً بن ثابت شهد العرضة الأخيرة **التى بيّن فيها ما نسخ و ما بقى،** و كتبها للرسول ص و قرأها عليه . و كان يُقرىء الناس بها حتى مات . و لذلك اعتمده أبو بكر و عمر في جمعه ، وولاّه عثمان كتابة المصاحف » .

فميزات العرضة الأخيرة أنها كانت مرتين ، و بيّن فيها ما نسخ و ما بقى من القرآن ، و أن زيداً حضرها و كان شاهداً لها ؛ و إن زيداً كتب القرآن الباقى فيها و قرأه على النبي .

و نرى هنا تهافت الرواية ، فهي كلها قيل عن قيل ، بلا سند و لا شاهد . و ما فضل زيد على أبي بكر الصديق ، و خصوصاً على عمر بن الخطاب الذي طالما نزل القرآن على ما قال ؟ إنها روايةً موضوعة لبيان حسن اختيار زيد لوضع المصحف العثمانى ، و هو الذي استنكر و استكبر إمكانية جمع القرآن بعد الرخص النبوية الأربع بتلاوته على سبعة أحرف ، بقراءات مختلفة لكل حرف ، و بجميع لغات العرب المختلفة ، مع الرخصة الكبرى بقراءته بالمعنى من دون الحرف المنزل .

لكن **الواقع التاريخي** الذي يتراءَى من خلال هذه الرواية أن النبي كان ينقّح ما نزل من القرآن في بحر السنة ، كما كان فحول الشعراء ينقحون حولياتهم . و هذا التنقيح السنوى المتواصل ليس من « دلائل الإِعجاز » في القرآن .

و الدلائل القرآنية على تنقيح القرآن السنوى المتواصل هي :

١) التبديل في آي القرآن : « و اذا بدَّلنا آية مكان آية ـ و الله أعلم بما ينزل ـ قالوا : إنما أنت مفتر » ! (النحل ١٠١) .

٢ و٣) النسخ في آي القرآن أو النسيان المفروض : « ما ننسخ من آية ـ أو نُنسِها ـ نأت بخير منها ، أو مثلها » (البقرة ١٠٦) . و إمكان الإتيان « **بخير منها** » يرفع صفة الإِعجاز عنها و عن غيرها .

٤) المحو من آي القرآن : « يمحو الله ما يشاء و يثبت ، و عنده أُم الكتاب » (الرعد ٣٩) ؟

فالمحو من التنزيل ، و النسيان الذي يفعله الله فيه ، و النسخ منه ، و التبديل فيه ، كلها دلائل قرآنية قائمة على تنقيح القرآن المتواصل .

فليس الإِعجاز في النظم و البيان من التنزيل نفسه ، بل من عمل النبي ، أو عمل جبريل ، « و لم يقل أحد إن كلام غير الله معجز في ذاته » ، على حدّ قول ابن حزم .

و يأتي الحديث فيؤيد القرآن في هذه الظاهرة الغريبة .

يقول دروزة [١] : « هذه الآيات (البقرة ١٠٦ و النحل ١٠١) تفيد أنه وقع بعض **التبديل و النسخ** في بعض آيات القرآن ، **في عهدى النبي المكي و المدني** ، بوحي الله . مما هو مؤيد بأحاديث عديدة ، مثل حديث مروي عن أبى موسى الأشعري جاء فيه : (**نزلت سورة نحو براءَة ثم رفعت**) ؛ و مثل حديث أخرجه الطبراني عن ابن عمر جاءَ فيه : (إن النبي أقرأ رجلين سورة فكانا يقرأان بها ، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا له ذلك ، فقال : إنها مِمّا نُسِخَ فالهوا عنها) ؛ و مثل حديث رواه البخاري عن أنس: (إنه نزل في قصة أصحاب بئر معونة قرآن قرأناه ثم رُفع) ».

---

(١) **القرآن المجيد** ص ٩٠

فالتنقيح للقرآن كان صارماً حتى ((**ذهب منه قرآن كثير**)) على قول ابن عمر . فهل هذا التنقيح السنوى للقرآن من الإِعجاز في التنزيل ؟

ثانياً ـ و ما وقع للنبي في تنزيل القرآن ، وقع للصحابة عند جمعه . فلقد كان القرآن برخصة من النبي يُقرأ على سبعة أحرف ، ((باختلاف الألفاظ و اتفاق المعاني)) . و كان يُقرأ فيه أيضاً المنسوخ كله ، كما جمعه مصحف علي ابن أبي طالبٍ . فحدثت البلبلة والفوضى في نص القرآن .

نقل السيوطي أيضاً **تاريخ ما فعله الصحابة** عند جمع القرآن ، عن الطبري ، مع الموافقة عليه : ((إن القراءَة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، إنما كان جائزاً لهم و مرخصاً لهم فيه . فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق و تختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد ، اجتمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً . **و هو معصومون من الضلالة** [1] . و لم يكن في ذلك ترك واجب و لا فعل حرام . **و لا شك أن القرآن نُسخ منه في العرضة الأخيرة .** فاتّفق رأي الصحابة على أن كتبوا ما تحقّقوا أنه قرآن مستقر في العرضة الأخيرة ، **و تركوا ما سوى ذلك**)) .

هذا موجز لتاريخ جمع القرآن . لقد وُجد الصحابة عند جمع القرآن أمام سبعة أحرف، ((باختلاف الألفاظ ، و اتفاق المعاني)) (الطبري) ، أي أمام **سبعة قرائين** مختلفة لفظاً ونظاماً و ترتيباً (كما يشهد مصحف علي) : **فاتفق رأى الصحابة على حرف منها .** و هذا أخطر ما في حفظ القرآن و جمعه : **فنص القرآن العثمانى توفيقي عن الصحابة ، لا توقيفي عن النبي .**

و لتغطية ما في الأمر من أخطار و مشاكل ، يلجأون الى **روايتين :** الرواية الأولى قصة العرضة الأخيرة و ما نُسخ من القرآن فيها باستعراض جبريل و النبي و زيد ؛ و هذا النسخ و الاسقاط من القرآن إنما كان بفعل الصحابة بزعامة بنى أمية ، لأن التيار المعارض من آل البيت ، بزعامة عليّ و فاطمة الزهراء ، قد حفظ في مصحف علي الناسخ و المنسوخ الذي أسقطوه من الحرف العثمانى ، و حفظ الترتيب على تاريخ النزول .

و الرواية الثانية لتبرير عملهم هي قوله : ((و هم معصومون من الضلالة)) ـ فأيُّ شاهد من قرآن أو من حديث يشهد بعصمة الصحابة و لجان عثمان ؟ و لا عصمة إلا للنبي ، و في

---

(١) هل كان الصحابة أنبياء مثل محمد حتى يكونوا معصومين ؟!

حال التنزيل فقط ، و بعد التنزيل فالأمر متروك الى استقامة النبي ، و استقامة جماعته بعده ، حيث لا يتمتعون بعصمة و لا بمعجزة .

فاختيار الحرف العثماني ، من بين سبعة أحرف فما فوق ، و من بين قراءات مختلفة عليها ؛ و من بين لغات العرب المختلفة ، إنما هو باتفاق رأى الصحابة و حزب عثمان و بنى أمية .

النتيجة الحاسمة : إن قصة عرضات القرآن متعارضة في ذاتها ، و هي إنما تدل على تنقيح متواصل للقرآن .

و هكذا فالتبديل في مكّة (النحل ١٠١) و النسخ في المدينة (البقرة ١٠٦) شاهدان على تنقيح القرآن على عهد النبي ، و قصة العرْضات السنوية للقرآن إنما تدل على تنقيح متواصل لنص القرآن . فإذا كان النص الأصيل المنزل منقولاً عن اللوح المحفوظ بواسطة جبريل نفسه ، فكيف كان جبريل يغيّر فيه و يبدّل و ينسخ و يُسقط و ينقّح كل سنة ؟ فهل قرأ غلطاً أم نقح غلطاً ؟ أم هو كان الله نفسه يغيّر ما في اللوح المحفوظ المكتوب منذ الأزل حتى يضطر جبريل الى التنقيح السنوى المتواصل ؟ أم هل كان النص الأصيل المنزل قد دخله التحريف في بحر كل سنة ، ممّا يضطر معه جبريل الى تقويمه و تنقيحه سنوياً ؟ و هنا الطامة الكبرى التى تنطوي عليها قصة العرضات السنوية للقرآن .

فإذا كان ذلك على حياة النبي المعصوم ، فماذا يكون مع الفوضى التى قامت حتى الجمع العثمانى غير المعصوم ؟ فهل في قصة عرضات القرآن السنوية ، و في قصة اختيار الحرف العثمانى من « دلائل الإِعجاز » في التنزيل ؟

بحث سابع

قصّة الناسخ و المنسوخ ، و الإِعجاز في التنزيل

إن قصة الناسخ و المنسوخ في القرآن قضية واقع تاريخي ، و قضية مبدإ في التنزيل القرآني . و هي مشكل يحار فيه المؤمن و غير المؤمن . و النسخ في **التنزيل الواحد** والكتاب الواحد بلاء من الله عظيم ، خصوصاً في مطابقة النسخ مع التنزيل من اللوح المحفوظ ، حيث الناسخ

والمنسوخ معاً حقيقة الهية واحدة . و « إن النسخ ممّا خصّ الله به هذه الأمة لحِكَم ، منها التيسير »[1] . و على وجود الناسخ و المنسوخ في التنزيل ، ثم في المصحف العثمانى الباقي، إجماع في الأمة . لكن ، تجاه شبهات النسخ على صحة التنزيل ، قام فريق ، منذ الزركشي في (البرهان) حتى اليوم ، يقول بأن لا نسخَ في القرآن .

أوّلاً : قصّة النسخ وغرائبها و شبهاتها

١ ـ لكنّ النسخ في التنزيل القرآني **أمر واقع** ، بإجماع الأئمة . قال السيوطي: والتأليف في الناسخ و المنسوخ « **أفرده بالتصنيف خلائق** لا يحصون ... قال الأئمة ، لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ و المنسوخ . و قد قال عليّ لقاض: أتعرف الناسخ و المنسوخ؟ قال : لا ! قال : هلكتَ و أهلكت » ! و قد عدّ العلماء ، مثل النحاس و ابن حزم في كتابيهما (الناسخ و المنسوخ) نيّفاً **و مئتي آية** في المصحف العثمانى . و اقتصرها السيوطي في (الإتقان ١ : ٢٣) على **عشرين** موضعاً . و ذلك من دون الذي أسقطه عثمان عند جمع القرآن ، و من دون ما أسقطه جبريل و محمد عند معارضة القرآن كل سنة .

٢ ـ و النسخ على أنواع

بمعنى **الإزالة** . و منه قوله : « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته » .

و بمعنى **التبديل** . و منه قوله : « و اذا بدّلنا آية مكان آية » .

و بمعنى **التحويل** ، كتناسخ المواريث ، بمعنى تحويل الميراث من واحد الى واحد .

و بمعنى **النقل** من موضع الى موضع . و منه (نسخت الكتاب) اذا نقلت ما فيه حاكياً للفظه و خطه ـ و في وقوع النسخ بالنقل خلاف .

أما النسخ بالإزالة أو الرفع من التنزيل ، و التبديل في التنزيل ، و التحويل في أحكام القرآن ، بإبطال حكم و إقامة حكم مكانه ، فهو أمر واقع في الأنواع الثلاثة .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٢ : ٢٥

٣ ـ و تقسم سور القرآن باعتبار الناسخ و المنسوخ الى أربعة أقسام

قسم ليس فيه ناسخ و لا منسوخ ، و هو ثلاث و أربعون سورة .

و قسم فيه الناسخ و المنسوخ معاً و هو خمس و عشرون سورة .

و قسم فيه الناسخ فقط و هو ستة .

و قسم فيه المنسوخ فقط و هو أربعون .

و هكذا يعدون الآيات الناسخة و المنسوخة ، على قول الزركشي [١] **في احدى وسبعين سورة** .

٤ ـ و الناسخ على أنواع

نقل السيوطي عن مكّي : « **فرض نسخ فرضاً** ، و لا يجوز العمل بالأوّل ، كنسخ الحبس للزواني بالحد . و فرض نسخ فرضاً ، **و يجوز العمل بالأول** كآية المصاهرة . **وفرض نسخ ندباً** كالقتال ، كان ندباً فصار فرضاً . **و ندب نسخ فرضاً** كقيام الليل نُسخ بالقراءَة في قوله : « فاقرأوا ما تيسّر من القرآن » .

٥ ـ و المنسوخ على أضرب

أحدها : ما نُسخ تلاوته وحكمه ـ وهو نوع من القرآن نزل ثم رُفع .

الثاني : ما نُسخ حكمه دون تلاوته . **وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة .**

الثالث : ما نُسخ تلاوته دون حكمه ... وأمثلة هذا الضرب كثيرة ، وهي التي نقلوا عنها قول ابن عمر : « **قد ذهب منه قرآن كثير** » ! وقول عائشة : « **قبل ان يغيّر عثمان المصاحف** » ! وقول أبي موسى الأشعري : « نزلت سورة نحو براءَة ورفعت » ! وقول عمر وعبد الرحمان عوف : « اسقطت في ما أُسقط من القرآن » ! وقول ابن عمر : « إنها ممّا نُسخ فالهوا عنها » ! ... « والسبب في رفع التلاوة هو الاختلاف » [٢] .

---

(١) **البرهان في علوم القرآن** ج ٢ ص ٤٤.
(٢) **الإتقان** ١: ٢٥ ـ ٢٧.

٦ ـ ومن غرائب النسخ في التنزيل القرآني ما أورده السيوطي أيضاً [١] :

« قال بعضهم : ليس في القرآن ناسخ إلاّ والمنسوخ قبله في الترتيب إلاّ في آيتين : آية العدة في (البقرة) ، وقوله : « لا يحل لك النساء من بعد » . وزاد بعضهم ثالثة ورابعة .

« وقال ابن العربي : كل ما في القرآن من الصفح عن الكفّار والتولّي والاعراض والكف عنهم منسوخ **بآية السيف** (براءَة ٥) **نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية ! ثم نسخ آخرها أولها** » **!**

« وقال أيضاً : من عجيب المنسوخ قوله تعالى : « خذ العفو ...» فإن أولها وآخرها وهو (وأعرض عن الجاهلين) منسوخ ، **ووسطها محكم** ، وهو (أمر بالعرف) .

« وقال : من عجيبه أيضاً آية أولها منسوخ ، وآخرها ناسخ ، ولا نظير لها وهي : «عليكم أنفسكم ، لا يضركم مَن ضلّ إذا اهتديتم » ، يعني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذا ناسخ لقوله ؛ « عليكم أنفسكم » .

« وقال السعيدي : لم يمكث منسوخ مدة أكثر من قوله « قلْ : ما كنت بدْعاً من الرسل » ، مكثت ست عشرة سنة حتى نسخها أول الفتح عام الحديبية .

« وقال شيدلة : **يجوز نسخ الناسخ فيصير منسوخاً** ... يمثل له بآخر سورة (المزمّل) فإنه ناسخ لأولها ، منسوخ بفرض الصلوات . وقوله «انفروا خفافاً وثقالاً فهو ناسخ لآيات الكهف ، منسوخ بآيات العذر .

٧ـ **والغرابة الكبرى** أن يقع النسخ أثناء التنزيل القرآني ، فيضطر جبريل الى معارضة القرآن كل سنة ليرفع المنسوخ أحياناً ، ويضع الناسخ أحياناً . وفي العرضة الأخيرة «بيّن فيها ما نُسخ وما بقي » . ومع ذلك فقد بقي ناسخ ومنسوخ كثير كتبه علي في مصحفه ، وأسقطه عثمان . ومع ذلك أيضاً فقد بقي ناسخ ومنسوخ في المصحف العثماني : **ممّا يدل على أن النسخ كان كثيراً في القرآن** .

وهكذا فالظاهرة الكبرى ما قاله ابن حزم : «إعلم أن **نزول المنسوخ بمكّة كثير ، ونزول الناسخ بالمدينة كثير**» ! وهذا يعني أن القرآن المدني نقض في أحكامه القرآن المكي .

---

(١) **الإتقان** ١: ٢٤

فإن أول ما نُسخ من القرآن استقبال بيت المقدس بآية القبلة ، وصوم عاشوراء بصوم رمضان (في البقرة) كما نقلوا عن ابن عباس. ((قال مكي: وعلى هذا فلم يقع في القرآن المكي ناسخ)).

والسر كل السر ، في القول بالناسخ والمنسوخ ، هو أكثر من تصريح القرآن بوجود النسخ (البقرة ١٠٦) ؛ **إنه بسبب وجود معارضة بيّنة في أحكامه** . ((قال ابن الحصار : إنما يُرجع في النسخ الى نقل صريح عن رسول الله ص ، أو عن صحابي . قال : **وقد يُحكم به عند وجود التعارض المقطوع به** ، مع علم التاريخ ليُعرف المتقدم والمتأخر . قال : ولا يُعتمد في النسخ قول عوام المفسرين ، بل ولا اجتهاد المجتهدين ، من غير نقل صريح ولا **معارضة بيّنة**)) [1] .

فيجب القول بالنسخ ((**عند وجود التعارض المقطوع به**))

فهل القول المحتوم بالناسخ والمنسوخ ، لرفع التعارض المقطوع به فيه ، والمعارضة البيّنة ، هو من الإِعجاز في التنزيل ؟

وتزيد **الشبهة الضخمة القائمة** ، لوجود الناسخ والمنسوخ في المصحف العثماني ، على صحة التنزيل وإِعجازه ، من إسقاط عثمان من القرآن ، كل ما جمعه علي في مصحفه من الناسخ والمنسوخ بعد إسقاط جبريل منه عند معارضته وهكذا بعد محاولة النبي ثم محاولة الصحابة لم يسلم النص العثماني من النسخ فيه .

وهذا الاسقاط من القرآن أولاًعلى يد النبي ، ثم على يد جماعة عثمان ، **للتخلّص من كثرة المنسوخ** ، انما هو البرهان القاطع على أنه ليس في التنزيل القرآني إِعجاز مانع .

وغرائب النسخ وعجائبه التي يلحظها الأئمة ، كما رأيت ، ليست من ((دلائل الإِعجاز)) في التنزيل القرآني .

أجل ((ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى)) ؛ فإنما ((تتبدّل الأحكام بتغيّر الأزمان)) ما بين زمان وزمان ، وكتاب وكتاب ، ونبي ونبي . **لكنّ مبدأ النسخ نفسه** ، في التنزيل الواحد ، على يد النبي الواحد ، في الكتاب الواحد ، لا يصح من

(١) **الإتقان** ١: ٢٤

الحكيم العليم . هذا ما يسميه أهل الكتاب : **بَدَاءٌ** كالذي يرى الرأي ثم يبدو له . واذا اعتبرنا أنّ النسخ **بيان لمدة الحكم المنسوخ** ، كان التنزيل مدعاةً للتهكّم ، لأن الناسخ والمنسوخ قد يحصلان ما بين ليلة وضحاها ، وفي آية واحدة قد ينسخ آخرها أولها ! وحاشا للحكيم العليم أن يلهو في التنزيل ، وأن يسخّره لأحوال عابرة .

فمهما قيل في تبرير النسخ القرآني ، فإنه شبهة ثابتة على الإعجاز في التنزيل . وهي شبهة مثلّثة : شبهة على رفع المنسوخ في عرْضات القرآن المتواترة على جبريل ، شبهة على إسقاط الصحابة للمنسوخ الذي كان يحفظه مصحف علي بن أبي طالب ؛ شبهة على المنسوخ الموجود في المصحف العثماني ، والذي أفلت من رقابة عثمان وجماعته .

فكان المنسوخ سبباً في ذهاب قرآن كثير على يد النبي ثم على يد صحابته .

والمشكل الأكبر إن الناسخ والمنسوخ **كلاهما تنزيل من اللوح المحفوظ** ، بواسطة جبريل ، على النبي : فكيف يكون « التعارض المقطوع به » بين الناسخ والمنسوخ مكتوباً منذ الأزل في اللوح المحفوظ؟ وكيف يليق بالحكيم العليم تنزيل المنسوخ والناسخ معاً في كتاب واحد ، وفي سورة واحدة ، وفي آية واحدة ؟

إن النسخ القرآني ، كما وصفوه ، تحدّ للعقل وللنبوّة وللتنزيل .

ثانياً : النسخ ميزة القرآن وحده

وممّا يزيد في غرابته « **أن النسخ ممّا خصّ الله به هذه الأمة** » في كتابها .

١ـ فالنسخ القرآني يتعلق بآي القرآن نفسها ، لا يتعداها الى سواها من كتب الله ، كما تصرّح آية النسخ : «ما ننسخ من آية ـ أو ننسها ـ نأتِ بخير منها ، أو مثلها» (البقرة ١٠٦) **فالقرآن ينسخ بعضه بعضاً** ؛ ويرون في ذلك من « دلائل الإعجاز » في التنزيل !

« والقول بأن من القرآن ما نزل وتُلي ، ثم نسخ ، قول فيه تعسف شديد ، وفيه **مدخل إلى الفتنة والتخرص** . فإذا ساغ أن ينزل قرآن ويُتلى على المسلمين ثم يرفع ، ساغ لكل مبطل أنْ يقول أيَّ قول ! ثم يدَّعي له أنه كان قرآناً ثم نُسخ . وهكذا تتداعى على القرآن المُفتريات والتلبيسات ؛ ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء !

« ثم من جهة أخرى ، **ما حكمة هذا القرآن الذي ينزل لأيام أو شهور ، ثم يُرفع** » ؟ (١)

٢ـ ومن الإفتراء على القرآن الادّعاء « **بأن الله نسخ التوراة والإنجيل بالقرآن** » (٢)

يدل على ذلك قولهم : شرع مَن قبلنا شرع لنا .

ويدل عليه تصريح القرآن المتواتر : « يريد الله ليبيّن لكم **ويهديكم سُنن الذين من قبلكم** ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم » (النساء ٢٦) ؛ « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » (الشورى ١٣) ؛ وفي آخر الأمر يقرّ التوراة والإنجيل والقرآن كلاً على شريعته في سورة المائدة : « وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله (٤٣) ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٤٥) ـ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومَن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون (٤٧) ـ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، **مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتّبع أهواءَهم عمّا جاءَك من الحق: **لكل جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** » (٤٨) . وهذا هو القول الفصل : « أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة : آخر سورة نزلت المائدة ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه » . (٣)

هذا الحكم الأخير ، الذي لا ناسخ له : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » ، يقضي على الإفتراء بأن القرآن نسخ التوراة والإنجيل . « قالوا : وانما حقّ الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت آيةً (٤) . والقول الفصل في دعوى القرآن للتوراة والإنجيل أنه يوم الدين ، حتى بعد القرآن : « كل أمة تُدعى الى كتابها » (الجاثية ٢٨) .

٣ـ ويبرّرون النسخ في القرآن بالنسخ في الكتاب ـ وليس لهم سند من كتاب . يقول عبد الكريم الخطيب (٥) : « وقد نسخ الله سبحانه كثيراً من الشرائع التي تقدّمت شريعة

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٢:٢٥.
(٢) عبد الكريم الخطيب : **إعجاز القرآن** ١:٤٣٧.
(٣) السيوطي : **الإتقان** ١:٢٧.
(٤) السيوطي : **الإتقان** ١:٢٢.
(٥) **إعجاز القرآن** ١: ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

الإسلام . يقول ابن كثير في تفسيره (الجزء الأول) : « والذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ هو الكفر والعناد . فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يشاء . كما **أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية** : كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرَّم ذلك . وكما أباح لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حلَّ بعضها . وكان نكاح الاختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حرَّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها . وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل . وأمر جمهور بني إسرائيل قتل مَن عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل » .

وفات ابن كثير وتلميذه الخطيب أن النسخ المذكور وقع في عهود متباعدة آلاف السنين. وما جرى لآدم ثم لنوح ثم لإبراهيم ثم لإسرائيل (يعقوب) لم يكن نسخاً لحكم سابق ، بل تنزيل حكم مبتدئاً . ففي التوراة شريعة موسى ، لا شريعة آدم ولا نوح ولا إبراهيم ولا إسرائيل (يعقوب) ؛ وليس فيها نسخ . وأمر الله في التوراة بقتل من عبد منهم العجل هو قضاء في الحال ، لا تشريع للاستقبال ، وقد نُفّذ .

فليس في ما يذكرون من نسخ في الشريعة الواحدة ؛ انما **النسخ ميزة القرآن وحده** .

وما ورد ممّا يشبه النسخ **ما بين الإنجيل والتوراة** ، فهو ما بين كتابين وشريعتين ؛ والسيد المسيح مع ذلك لا يسميه نسخاً ، بل تكميلاً : « لا تظنّوا أني جئتُ لأنسخ التوراة أو النبيّين ! ما جئت لأنسخ بل لأكمّل » (متى ٥:١٧) .

وهكذا فالقرآن ينسخ بعضه بعضاً ؛ ولا يقتدي بغيره ، مع أنه أُمِر صريحاً : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة ... اولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتدهْ » (الأنعام ٨٩ - ٩٠).

ثالثاً : حجّة مَن قال لا نسخ في القرآن واهية متهافتة

هذا الواقع المرير في اختصاص القرآن بالنسخ في آيه ، فينسخ بعضه بعضاً ، وما ينجم عنه من مدخل في الفتنة ومن حمل على الشبهات على التنزيل والإعجاز ، قام فريق يقول : **لا نسخ في القرآن** .

تزعم هذا التيّار الزركشي في (البرهان في علوم القرآن) . وعنه ينقل الى اليوم مَن يذهب مذهبه ، مثل عبد الكريم الخطيب [1] .

قال : « **أكثر العلماء** على أن في القرآن نسخاً بدليل قوله تعالى «ما ننسخ من آية ، أو نُنسها ، نأت بخير منها أو مثلها » (البقرة ١٠٦) . ثم إن الذي ينظر في كتاب الله يرى آيات تعطي أحكاما خاصة ، ثم تأتي بعد ذلك آيات تعطي **أحكاماً تخالف هذه الأحكام** ... ولا معنى لهذا التخالف بين الآيات في أحكامها إلاَّ أن اللاّحق قد نسخ السابق وأزال الحكم الذي تضمّنه وإن بقيت قرآناً متلواً ...

« **وكثير من العلماء** أيضاً يرى أن النسخ في القرآن ليس نسخاً بمعنى الإزالة ، على ما فهم القائلون بالنسخ . وانما هو نسْأ وتأخير ، أو مُجمل أُخّر بيانه لوقت الحاجة ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب آخر ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو لمداخلة معنى في معنى ... وأنواع الخطاب كثيرة **فظنوا ذلك نسخاص ، وليس به** . وإنه الكتاب المهيمن على غيره ، وهو نفسه متعاضد » [2] .

ويؤيّد رأيه بأن آية النسخ شرطية ، «وهل اذا جاء في القرآن الكريم شرط ، أيجب أن يقع هذا الشرط ، وأن يتحقق تبعا لذلك جوابه ؟ ... وعلى هذا يجوز في الآية الكريمة ألاّ يقع شرطها ولا جوابها » .

ويضيف الخطيب بأن آية النسخ ليست مبدأ عاماً في القرآن ، بل آية مخصوصة بنسخ القبلة من بيت المقدس الى المسجد الحرام : « وعلى هذا فإن أقرب مفهوم الى النسخ الذي تشير اليه الآية «ما ننسخ من آية » هو نسخ الأمر بالتوجه بالصلاة الى بيت المقدس وجعله الى المسجد الحرام » .

ثم يشرع في « تأويل ما يبدو فيه النسخ » تأويلاً يجعل التشريع القرآني قوانين عابرة، لحالات طارئة ، ليس عليه مسحة الشريعة الخالدة .

وخطأهم قائم على سوء فهم آية النسخ : «ما ننسخ من آية ـ أو نُنْسِها » وعلى تبنّي قراءَة ثانية : «أو نَنْسَأْها» أي نؤخرها . فالاختلاف في صحة القراءة لا يُبنى عليه عقيدة

---

(١) **إعجاز القرآن** ١: ٤٣٥ ـ ٤٧٢.
(٢) الزركشي : **البرهان** ٢:٤٤.

أو مذهب . وليس حرف (أو) عطف بيان للنسخ بالتاخير ؛ إنما حرف (أو) يدل على حالين مختلفتين : حالة النسخ وحالة النسيان أو التأخير . وليس في قوله : « ما ننسخ » شرط قد لا يتم وقوعه ، إنما هو تقرير واقع يصير مبدأً . وهب فيه شرطاً ، فهو أسلوب قرآني في التقرير ، كما في قوله الصريح : « واذا بدّلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزّل ـ قالوا : إنما أنت مفتر » (النحل ١٠١) : فالشرط واقع يشهد عليه علم الله بالتبديل في التنزيل ، وتهمة النبي بالإفتراء بسبب ذلك ، ومحنة ارتداد بعض المسلمين بسبب التبديل في القرآن (النحل ١٠٦) . فآية التبديل في القرآن تفسّر وتشهد لصحة النسخ في القرآن .

والنتيجة الحاسمة أن التبديل والنسخ في القرآن شبهة على الإِعجاز في التنزيل .

فالتنزيل القرآني ، كما فيه تبديل آية مكان آية ، فيه أيضاً نسخ آية بآية . وعليه شبه إجماع بين الأئمة مهما قال المكابرون . فقصة التبديل في القرآن ، مثل قصة النسخ في القرآن، ليستا من « دلائل الإِعجاز » في التنزيل . وتنزيل يعتريه النسخ والتبديل ليس من الإِعجاز في التنزيل .

بحث ثامن

طريقة الوحي القرآني أدنى طرق الوحي

للقرآن نظرية جامعة في طرق الوحي ، وتحديد منزلة الوحي القرآني منها : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً ـ أو من وراء حجاب ـ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه عليٌّ حكيم » ؛ « **وكذلك** أوحينا إليك **روحاً من أمرنا** : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ، وإنك لتُهدَى الى صراط مستقيم » (الشورى ٥١ ـ ٥٢)

أوّلاً : القرآن وحي بالواسطة

بحسب القرآن نفسه ، طُرق الوحي الإلهي ثلاث : الوحي المباشر من الله للنبي ؛ والوحي من وراء حجاب ؛ والوحي بواسطة رسول يوحي بإذنه تعالى ما يشاء .

أما **الوحي بواسطة رسول** فهو طريقة الوحي لمحمد ، كما يشهد بذلك القرآن كله مع آية (الشورى ٥٢) : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٤) ؛ « قل : نزّله روح القدس من ربك بالحق » (النحل ١٠٢) ؛ « قل : مَنْ كان عدواً لجبريل ؟ فإنه نزّله على قلبك ، بإذن الله ، مصدقاً لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين » (البقرة ٩٧) . فالروح الأمين ، روح القدس ، جبريل هو « روح من أمرنا » الذي بتنزيل القرآن على قلب محمد هداه الى الإيمان بالكتاب الذي جعله الله نوراً يهدي به مَن يشاء من عباده . فتعبير « روح من أمرنا » لا يعني القرآن ، بسبب قوله « أوحينا » ـ الذي ورد على المشاكلة مع قوله السابق : « أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » ـ بل « روح » من عالم الأمر والخلق الذي تذكره سائر الآيات : فلو كان «روح من أمرنا» يعني القرآن ، لكان القرآن مخلوقاً من عالم الأمر . مع ذلك فالقرآن وحي بالواسطة .

أما **الوحي** «**من وراء حجاب** » فهو ميزة الوحي الموسوي الذي كان تكليماً من الله مباشراً ، لكن بدون رؤية ولا مشاهدة : «وكلّم الله موسى تكليماً » (النساء ١٦٤) ؛ فهو يفضل الأنبياء بهذا التكليم المباشر (البقرة ٢٥٣) « من وراء حجاب » (٤٢:٥١) .

أمّا **الوحي المباشر ، القائم على الرؤية** ، فيبقى من نصيب السيد المسيح من حيث هو « كلمة الله » القائم في ذات الله قبل أن يُلقى الى مريم . فصار كلام الله فيه عينَ « كلمة الله » . فالوحي المسيحي الإنجيلي هو وحي مباشر من الله بدون حجاب . فهو فوق التنزيل القرآني بالواسطة ، وفوق التكليم الموسوي «من وراء حجاب» : إنه ذروة الوحي والتنزيل ، بالاتصال المباشر بالله ، والمشاهدة بالعيان .

جاء في الصحيحين حديث مشهور على لسان عائشة : « مَن زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية » ! واستشهدت بالآية : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار » (الأنعام ١٠٣) . فلم ير محمد ربه في تنزيل ، ولا في اسراء ، ولا في غيرهما . وكان الوحي إليه تنزيلاً بواسطة الروح الأمين ، روح القدس ، جبريل .

وجاءَ في فاتحة الإنجيل بحسب يوحنا : «في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان في الله ، والله كان الكلمة ، فهو منذ البدء في الله ... والكلمة صار بشراً وسكن فيما بيننا ، وقد شاهدنا مجده ، مجد الآب على ابنه الوحيد ... إن الله لم يره أحد قط ، إلاّ الابن الوحيد القائم في ذات الله ، وهو الذي كشف عنه » (١ و١٤ و١٨) . قال السيد المسيح لعلاّمة إسرائيل نيقوديم: «الحق الحق أقول لك : إننا ننطق بما نعلم ، **ونشهد بما رأينا** ... فإنه لم يصعد أحد الى السماء إلاّ الذي نزل من السماء ، ابن البشر (لقب المسيح) الكائن في السماء» (يوحنا ٣ : ١١ ـ ١٣) .

فالوحي الإنجيلي كشف ؛ والوحي التوراتي تكليم ؛ **والوحي القرآني تنزيل بالواسطة،** لذلك فهو ، بحسب نظرية القرآن نفسها (الشورى ٥١ ـ ٥٢) **أدنى طرق الوحي** .

لذلك يسمي القرآن نفسه تنزيلاً (السجدة ٢ ؛ الزمر ١ ؛ الجاثية ٢ ؛ الأحقاف ٢) . فهو يصرح : «إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً » (الانسان ٢٣) . إنه تنزيل رب العالمين ، ولكن بواسطة الروح الأمين جبريل : «وإنه لتنزيل رب العالمين ، **نزل به الروح الأمين** ، على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٤) . وهذا التنزيل هو من الروح الأمين مباشرة ، لا من الله نفسه : «أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » (الشورى ٥١) ؛ فالوحي القرآني **هو من الروح الأمين مباشرة** ، بإذنه تعالى وان سماه «كلام الله» ؛ فليس من اتصال مباشر في التنزيل القرآني بين الله ومحمد . فالله لم يكلّم بنفسه محمداً ، بل كلّمه ، بإذنه ملاك الوحي .

أجل ينسب القرآن تعابير الوحي والتنزيل الى التوراة والإنجيل والقرآن على السواء (آل عمران ٣ ـ ٤) ؛ ولكن على طريق المشاكلة ، لا على طريق المقابلة ؛ فإن تعابير الوحي والتنزيل هي ، كما رأينا ، من متشابهات القرآن التي لا يُعرف مدلولها إلاّ بالقرائن القرآنية . وكل التصاريح والقرائن القرآنية تشهد بأن الوحي القرآني تنزيل بالواسطة ، ومن ملاك الوحي نفسه ، باسم الله واذنه . **وهذه أدنى طرق الوحي** : فكيف يكون معجزاً بالنسبة الى التكليم التوراتي من وراء حجاب ؟ وخصوصاً كيف يكون معجزاً بالنسبة الى الكشف الإنجيلي المباشر بدون حجاب ؟

فليس الوحي القرآني ، من حيث هو تنزيل بالواسطة ، وبتصديق القرآن ، من الإِعجاز في التنزيل .

ثانياً : التنزيل القرآني بِوَسَط ووسيط

١ـ يصرّح القرآن عن نفسه أنه **تنزيل بوسط** ، لا كلام الله مباشرةً للنبي : « بل هو قرآن مجيد ، **في لوح محفوظ** » (البروج ٢١ ـ ٢٢) . فالقرآن يُنزَّل مباشرة من لوح يصفه أيضاً بكتاب مكنون : « إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يمسه إلاّ المطهّرون » (الواقعة ٧٧ ـ ٧٩) . فهو قراءَة لكتاب مكنون ، في لوح محفوظ . وهذا الكتاب المكنون ، المحفوظ في لوح ، يسميه أيضاً أمّ الكتاب : « وانه في أمّ الكتاب لدينا ، لعليٌّ حكيم » (الزخرف ٤)، « وعنده أمّ الكتاب » (الرعد ٣٩) .

سنرى في بحث لاحق سر هذه التعابير ومدلولها . يكفينا الآن أن نعلم إن اللوح المحفوظ ، والكتاب المكنون ، وأمّ الكتاب هي الوَسَط الذي نزل منه القرآن ، فهو تنزيل بوَسَط.

٢ـ **وهو تنزيل بوسيط** . هذا الوسيط في التنزيل القرآني اسمه في مكّة : « رسول كريم » (الحاقة ، التكوير) ، « حكيم عليم » (النمل ٦) ، « الروح الأمين » (الشعراء ١٩٣) ، « روح القدس » (النحل ١٠٢) . وظل محمد حتى المدينة ، ومجابهة أهل الكتاب ، ليعرف أن اسمه جبريل : « قل : من كان عدوًا لجبريل ؟ فإنه نزّله على قلبك بإذن الله » (البقرة ٩٧) .

فجبريل يقرأ القرآن على محمد من « كتاب مكنون » ، « في لوح محفوظ » . **فهو تنزيل بوسيط ووسط** . وتنزيل بوسيط ووسط، هل هو من الإعجاز في التنزيل ؟ إنه لا يرقى الى التكليم المباشر ، من وراء حجاب ، كما في الوحي التوراتي . ولا يرقى الى التكليم المباشر ، بدون حجاب ، كما في الوحي الإنجيلي .

ثالثاً : تعدّد الوسائط في الوحي القرآني

عقد السيوطي فصلاً قيّماً في « كيفية إنزاله » [1] نرى فيه تعدّد الوسائط في الوحي القرآني . لقد صرّح : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » (البقرة) ؛ وصرح أيضاً : إنا أنزلناه في ليلة القدر » (سورة القدر) . فاختلفوا في كيفية انزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثة أقوال :

---

(١) **الإتقان** ١:٤٠.

« أحدها ، وهو الأصح الأشهر : إنه نزل الى السماء الدنيا ، ليلة القدر ، **جملة واحدة؛** ثم نزل بعد ذلك **منجّماً** في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، على حسب الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكّة بعد البعثة ... وعن ابن عباس قال : فُصل القرآن من الذكر ، **فوضع في بيت العزّة** من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ . أسانيدها كلها صحيحة . « ونزل جبريل على محمد ص **بجواب كلام العباد وأحوالهم** » ... « فكان المشركون اذا أحدثوا شيئاً **أحدث الله لهم جواباً** » ... وعن ابن عباس أيضاً : إنه أُنزل في رمضان ، في ليلة القدر ، جملة واحدة ، ثم **أُنزل على مواقع النجوم** رِسْلاً في الشهور والأيام (رِسْلاً أي رفقاً . وعلى مواقع النجوم أي على مثل مساقطها) .

« القول الثاني أنه نزل الى السماء الدنيا في **عشرين ليلة قدر** ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ؛ في كل ليلة ما يقدّر الله إنزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجّماً في جميع السنة ...

« القول الثالث أنه ابتُدئ انزاله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات ...

وقد حكى الماوردي (قولاً رابعاً) أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة ؛ **وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة ؛ وأن جبريل نجمه على النبي ص في عشرين سنة !** ... (قلتُ) هذا الذي حكاه الماوردي أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك ، عن ابن عبّاس قال : نزل القرآن جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ الى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا . **فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة** . ونجّمه جبريل على النبي ص عشرين سنة » .

وهكذا ففي تنزيل القرآن **ثلاثة تنزيلات على ثلاث مراحل ، الى ثلاثة مواضع** : تنزيل أول جملة واحدة الى بيت العزة في السماء الدنيا ، على السفرة الكرام الكاتبين . وتنزيل ثان نجّم فيه السفرة القرآن في عشرين ليلة الى جبريل في مواقع النجوم . وتنزيل ثالث نجّمه فيه جبريل من مواقع النجوم على الأرض الى محمد ، في مدة عشرين سنة ونيف . وهم يرون في تعدّد الوسائط والتنزيل جملة فنجوماً ، تفخيم أمر التنزيل القرآني والنبوّة . وفاتهم أن تعدّد الوسائط في التنزيل بين الله والنبي ابتعاد بقدرها عن الإعجاز في التنزيل . فكلما

كان النبي في تلقي كلام الله أقرب اليه تعالى كلما زادت كرامة النبوّة والتنزيل . فتعدّد الوسائط في الوحي القرآني يزيده بعداً عن الإِعجاز في التنزيل .

رابعاً : تعارض نزول القرآن جملةً ومفرّقاً

وهم انما قالوا بتعدّد الوسائط في التنزيل القرآني ، وفي نزوله جملة فمفرّقًا ، للجمع بين تعارض القرآن في تصاريحه عن كيفية انزاله ، وللردّ على ادعاء اليهود والمشركين بنزول التوراة جملة .

فالتعارض قائم ما بين تصريح القرآن المتواتر من جهة : « حم . والكتاب المبين ، إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ـ إنّا كنّا منذرين ـ فيها يُفرق كلُّ أمر حكيم ، **أمراً من عندنا ، إنّا كنا مرسلين** » (الدخان ١ ـ ٥) « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » (سورة القدر) ؛ « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » (البقرة ١٨٥) ـ وتصريحه من جهة أخرى : « وقال الذين كفروا : لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة ! ـ كذلك ، لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » (الفرقان ٣٢)، « وقرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس على مُكْث ، ونزّلناه تنزيلاً » (الإسراء ١٠٦) .

فآية الفرقان تؤكد ضمناً بأن القرآن نزل مفرقاً ؛ وآية الإسراء تصرّح به ، وتشير الى ان اسم « قرآن » وفعل « نزّل » يدلاّن على النزول مفرقا . « أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : (قالت اليهود : يا أبا القاسم لولا نُزّل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى) ؟ فنزلت ، وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ (قال المشركون) . وأخرج نحوه عن قتادة والسدي » . **فالقرآن نزل مفرقا** « لنثبت به فؤادك » ، « وقرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس على مُكْث » .

وآية (الدخان) وآية (القدر) **تجزمان بأن القرآن نزل جملةً** في ليلة مباركة هي ليلة القدر ، من شهر رمضان .

فالتعارض ظاهر بين نزول القرآن جملة ، ونزوله مفرّقا . وللتخلّص من هذا التعارض قيل بنظرية نزول القرآن جملة الى السماء الدنيا ، وتنزيله مفرّقاً على محمد . ولا أساس لهذه النظرية في القرآن ؛ والأمر الواقع المشاهد أنه نزل مفرقاً مدة ثلاث وعشرين سنة. **والنزول جملة لا يعني القرآن نفسه ، بل الأمر بالرسالة** ، كما تصرّح به آية (الدخان): « إنّا أنزلناه في

ليلة مباركة ... أمراً من عندنا ؛ إنا كنا مرسِلين » . وآية (الشورى) تكشف أن هذا الأمر بالرسالة كان هداية الى الإيمان بالكتاب : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الإيمان , ولا الكتاب ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتُهدى الى صراط مستقيم » (٥٢) . فملاك الوحي هداه ، ليلةَ القدر ، الى الإيمان بالكتاب ، وهذا هو الصراط المستقيم . وتؤيد سورةُ القدر سورة الدخان بقولها : « ليلة القدر خير من ألف شهر : تنزَّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم **من كل أمر** » (٣ ـ ٤) . فقرائن السورتين تدل على ان الضمير في « أنزلناه » ليس القرآن ، بل الأمر بالإيمان بالكتاب والدعوة له . وهكذا يزول التعارض ، وتذوب النظرية القائمة عليه من تنزيل القرآن جملةً ثم مفرّقا .

وهل نزلت التوراة جملة ؟ إن الآية : «وقال الذين كفروا : (لولا نُزّل عليه (القرآن **جملة** واحدة) ؟ ـ كذلك ، لنثبت به فؤادك » (الفرقان ٣٢) تشير الى ذلك . « فإن قلت : ليس في القرآن التصريح بذلك ، وانما هو على تقدير ثبوت قول الكفّار . قلتُ : سكوته تعالى عن الردّ عليهم في ذلك ، وعدوله الى بيان حكمته دليل على صحته » . وينقل السيوطي رأي المفسرين والمحدثين والمتكلمين في نزول التوراة جملة ، ويختم بقوله : «فهذه آثار صحيحة صريحة في إنزال التوراة جملة » .

وهذا الادعاء بنزول التوراة جملة ، الذي أثاره اليهود ومن بعدهم المشركون بوجه القرآن ، ممّا حمل القرآن على ذكره وعلى الرد عليهم . وبناءً على آية الفرقان (٣٢) في الرد على المشركين ، ومن ورائهم اليهود ، بنوا **رواية نزول القرآن جملة** إلى بيت العزة في السماء الدنيا !

وما هو اجماع عندهم بشأن التوراة نفسها ، لا يقول به الراسخون في العلم من أهل الكتاب . نقل السيوطي [1] أيضاً إجماعهم : « **إن سائر الكتب أُنزلت جملة** هو مشهور في كلام العلماء وعلى ألسنتهم حتى كاد أن يكون **إجماعاً** . وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك ، وقال : إنه لا دليل ، بل الصواب أنها نزلت مفرقة كالقرآن » . لم ينزل جملة من التوراة الى موسى سوى الوصايا العشر على لوحين ؛ وسائر التوراة نزل مفرقاً ، وعلى أجيال .

ونقل أيضاً ، في الحكمة بنزول القرآن مفرّقا : « وانما لم ينزل جملة واحدة لأن منه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك إلاّ فيما أُنزل مفرّقاً . ومنه ما هو جواب لسؤال . ومنه ما هو انكار

---

(١) **الإتقان** ١:٤٣.

على قول قيل أو فِعل فُعِل . وقد تقدم ذلك في قول ابن عباس : ((**ونزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم**)) ؛ وفُسِّر به قوله (ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق) . أخرجه عنه ابن أبي حاتم)) .

فهل ينسجم هذا الواقع القرآني المشهود ، مع التنزيل من لوح محفوظ ؟ إن تنزيل القرآن ((بجواب كلام العباد وأعمالهم)) ، **مفرّقاً على مقتضى الحال** هل هو من الإِعجاز في التنزيل ؟ وانما الإِعجاز في التنزيل أن يأتي مبتدئاً من الله .

خامساً : نزول القرآن بحسب الحاجة

أفرد السيوطي ، في بحث كيفية انزال القرآن ، ((فرعاً)) بنزوله بحسب الحاجة . قال : ((فرع . الذي استُقرئ من **الأحاديث الصحيحة** وغيرها **أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة** ، خمس آيات ، وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة ؛ وصح نزول عشر آيات من أول (المؤمنين) جملةً ؛ وصح نزول ((غير أولي الضرر)) وحدها **وهي بعض آية** ؛ وكذا قوله ((وإن خفتم عيلة)) إلى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية ، كما حررناه في (أسباب النّزول) ، وذلك بعض آية . وأخرج ابن أشته في كتاب (المصاحف) عن عكرمة في قوله ((بمواقع النجوم)) قال : أنزل الله القرآن نجوماً ، ثلاث آيات ، وأربع آيات ، وخمس آيات . وقال النكزاوي في كتاب (الوقف) : **كان القرآن ينزل مفرّقاً الآية ، والآيتين والثلاث والأربع وأكثر من ذلك** . وما أخرجه ابن عساكر ، من طريق أبي نضرة قال : كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشي ، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات . وما أخرجه البيهقي في (الشعب) من طريق أبي خلدة ، عن عمر قال : تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً . ومن طريق ضعيف عن علي قال : أنزل القرآن خمساً خمساً ، إلا سورة الأنعام ، ومَن حفظه خمساً لم ينسه . فالجواب : إنّ معناه ، إنَّ صح ، **القاؤه** الى النبي ﷺ بهذا القدر حتى يحفظه ، ثم يُلقى اليه الباقي ، **لإنزاله** بهذا القدر خاصة . ويوضح ذلك ما أخرجه البيهقي أيضاً عن خالد بن دينار قال : قال لنا أبو العالية : تعلّموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ، فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً)) .

إن تمييز السيوطي بين الإلقاء الى النبي والانزال سفسطة ، لأن الأصل ما يتلقاه النبي من الوحي والتنزيل . وكان يتلقى القرآن الآية والآيتين والثلاث والأربع والخمس ؛ وأحياناً عشر آيات معاً ؛ **وأحياناً بعض آية . وذلك كله** « **بحسب الحاجة** » ، « بجواب كلام العباد وأعمالهم » ، «فكان المشركون اذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً » . هذا كله على لسان ابن عباس ترجمان القرآن . فهل نزول القرآن **آيات متفرقات بحسب الحاجة** من الإِعجاز في التنزيل ؟ ومن الإِعجاز في النظم والتأليف ؟ ومن الإِعجاز في البيان والتبيين ؟

سادسا : هل التنزيل القرآني وحيٌ ليلي ؟

يُصرّح القرآن عن كيفية إنزاله : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » (الدخان ٣) ؛ « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر ١) ؛ « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن » (البقرة ١٨٥) . فقد نزل القرآن ، على ظاهر قوله ، **في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر ، من شهر رمضان** . هذا قول أهل السنة والجماعة ، بحسب ظاهر القرآن . وقد قدمنا رأياً مخالفاً . ولكن اذا أخذنا بحسب ظاهر القرآن ، وبحسب رأي أهل السنة والجماعة ، **ألا يكون تنزيل القرآن وحياً ليلياً ؟** إن ظاهر الآية « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » (الدخان) ، وظاهر الآية ، « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (القدر) ، يقطعان بأن الوحي القرآني ليلي . ويؤيده الحديث الصحيح عن عائشة أن أول ما بُدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة ، بغار حرّاء . وكانت رؤيا منام . وينقل السيوطي[1] ما نزل ليلاً من أحاديث كثيرة : منها آية تحويل القبلة ... ومنها أواخر آل عمران ... ومنها سورة الأنعام ... ومنها سورة مريم ... ومنها أول الحج ... ومنها آية الاذن في خروج النسوة لحاجتهن ... ومنها أول الفتح ... ومنها سورة المنافقين ... ومنها سورة المرسلات ... ومنها المعوذتان . ويختم « بتبنيه : فإن قلت : فما تصنع بحديث جابر مرفوعاً « **أصدق الرؤيا ما كان نهاراً** ، لأن الله خصّني بالوحي نهاراً » أخرجه الحاكم في (تاريخه) . قلتُ : **هذا الحديث منكر ولا يحتج به** » .

وقصة الأحداث العظام في السيرة والدعوة كانت وحياً ليليّاً ، منها قصة الإسراء : « سبحان الذي أسرى بعبده **ليلاً** » (الإسراء ١) ، ومنها قصة دخول المسجد الحرام بمكّة : « لقد صدق الله رسوله **الرؤيا بالحق** : لتدخُلُنّ المسجد الحرام ، إن شاء الله » (الفتح ٢٧) .

---

(١) **الإتقان** ١:٢١ ـ ٢٢.

وتنزيل يكون « رؤيا بالحق » ، « ليلاً » هل هو من الإِعجاز في التنزيل ؟

النتيجة الحاسمة أن الوحي بوسيط ووسط ليس من الإِعجاز في التنزيل .

تلك هي بعض ميزات أخرى للتنزيل القرآني : أكثره رؤيا بالحق ليلاً ، ومفرّقاً بحسب الحاجة ، يأتي آيات متفرقات على مقتضى الحال ، تتعدّد فيها الوسائط ، فهو تنزيل بوسيط ووسط . والقول الفصل : إن القرآن وحي بالواسطة ، لا تنزيل مباشر من الله . فالله نفسه لم يكلّم محمداً ، إنما كلمه بأمره « الروح الأمين » . **وأدنى طرق الوحي ، بنص القرآن القاطع ، أن « يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء »** (الشورى ٥١) .

فهل الوحي بالواسطة هو من الإِعجاز في التنزيل ؟

بحث تاسع

القرآن ما بين التنزيل والتفصيل

في القرآن نوعان من التصاريح عن مصدره : نوع أول يصرّح بأنه تنزيل ربّ العالمين ؛ ونوع آخر يصرّح بأنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) ، وفي لغة القرآن « تفصيل » يعني التعريب . وقد جمع المصدرين في قوله : «وإنه لتنزيل رب العالمين ... وإنه لفي زُبر الأولين : أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) ؛ «بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩) . إن علماء بني إسرائيل من النصارى لا يمكنهم ان يطّلعوا على تنزيل نازل من السماء على قلب النبي ؛ إنما يقدرون أن يشهدوا لتنزيل يُفصّل من الكتاب آيات بيّنات في صدورهم ، « يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم » : فالراسخون في العلم هم الشهود العيان في التنزيل القرآني . فهم صلة الوصل بين « تنزيل رب العالمين » و «زبر الأولين » .

هذا ما يكشف لنا **سر القرآن** ما بين التنزيل والتفصيل .

يقول ابن الخطيب : «**كان القرآن أعجمياً وتُرجم الى العربية** . قال تعالى : « وانه لفي زُبر الأولين » (الشعراء ١٩٦) أي إن هذا لفي كتب المتقدمين (التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب) . ولا يخفى أن الكتب المنزلة كان بعضها عبريّاً وبعضها سريانيّاً (نضيف : وبعضها يونانيّاً كالعهد الجديد كله) ، وهي لغات أعجمية ؛ **وقد ترجمها الله تعالى لنا إلى العربية** » .

وبما أن القرآن تنزيل بالواسطة ، فقد يكون تفصيلاً بالواسطة : «لقد آتينا موسى الكتاب : **فلا تكن في مرية من لقائه** . وجعلناه هدى لبني إسرائيل (النصارى) **. وجعلنا منهم أئمة يهدون** بأمرنا » (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) . إن الإشارة صريحة : محمد يلتقي بالكتاب المنزل من قبله بواسطة أئمة بني إسرائيل من النصارى ؛ لذلك فتنزيل الرحمان الرحيم هو « **كتاب** فُصّلت آياته **قرآناً عربياً** لقوم يعلمون » (فصلت ٣) ؛ فهو «كتاب أُحكمت آياته ، **ثم** فُصّلت من لدن حكيم خبير » (هود ١) . فما القرآن العربي إلا الكتاب مفصلاً : « أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » (الأنعام ١١٤) ، فهو « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) . **فالقرآن العربي تنزيل رب العالمين لأنه تفصيل التنزيل الكتابي** .

وها نحن نفصّل ما أجملناه .

أولاً : التنزيل القرآني ومصادره

نستبين معنى التنزيل القرآني من لغته وتصاريحه .

١ـ التصريح المتواتر بأنه « تنزيل رب العالمين » (١٩٢:٢٦) ، «تنزيل الكتاب» (٢:٣٢؛ ١:٣٩؛ ٢:٤٠؛ ٢:٤٥؛ ٢:٤٦) ، « تنزيل العزيز الرحيم » (٥:٣٦) ، « تنزيل من الرحمان الرحيم » (٢:٤١) ، « تنزيل من حكيم حميد » (٤٢:٤١) ، تنزيل من رب العالمين » (٥٦:٨٠؛ ٤٣:٦٩) ، « تنزيلاً ممن خلق الأرض » (٤:٢٠) ــ **لا يبَيّن كيفية التنزيل** ولا واسطته ولا مصدره . فقد يكون بالواسطة ، ومن مصدر كوسط له . فلا يُبنَ على مثل هذه التصاريح الكثيرة حكم .

٢ـ كذلك التصريح المتواتر : « نزَّل عليك الكتاب » (٣:٣) ، « نزّل الفرقان على عبده » (١:٢٥) ، «ممّا نزّلنا على عبدنا » (٢٣:٢) ، « ونزّلنا عليك الكتاب » (٨٩:١٦) ، « نزّلنا عليك القرآن » (٢٣:٧٦) ، « وننزّل من القرآن ما هو شفاء » (٨٢:١٧) ، « هو الذي

أنزل عليك الكتاب » (٣:٧) ، « وأنزل الله عليك الكتاب » (٤:١١٣) ، « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً » (٦:١١٤) ، « أنزل على عبده الكتاب » (١٨:١) ، « أنزلنا إليك الكتاب » (٤:١٠٥ ؛ ٥:٤٨ ؛ ٢٩:٤٧ ؛ ٣٩:٢) ، « وأنزلنا إليك الذكر » (١٦:٤٤) « وما أنزلنا عليك الكتاب .. » (١٦:٦٤) ، « ما أنزلنا عليك القرآن » ... (٢٠:٢) ، « أنزلنا عليك الكتاب » (٢٩:٥١ ؛ ٣٩:٤١) ، « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن » (٢:١٨٥) ، « كتاب أُنزل إليك » (٢٠٧) ، « نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً » (٧٦:٢٣) ... **لا يبيّن كيفية التنزيل** ولا واسطته ولا مصدره .

٣ ـ والظاهرة العامة على مثل تلك التصاريح أن **القرآن العربي خبر عن نزول « القرآن » على محمد** ـ لا هذا « القرآن » المعروف نفسه .

ونلاحظ في تلك التصاريح **الترادف بين القرآن والكتاب والذكر والفرقان** . وهذا الترادف **عنوان انتساب** القرآن الى الكتاب المنزل قبله : « هذا ذكر من معي وذكر من قبلي » .

٤ ـ ليس تنزيل القرآن من السماء ، بدليل قوله : « ... أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابا نقرأه ـ قلْ : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (الإسراء ٩٣) . كان هذا التحدي من المشركين ، ومن اليهود أيضاً : « يسألك أهل الكتاب أن **تنزّل عليهم كتاباً من السماء** (مثل ألواح التوراة) ـ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » (النساء ١٥٣) . فليس القرآن كتاباً منزلاً من السماء ؛ إنما سرّ تنزيله في غير اتجاه .

٥ ـ **يقول إن مصدره في لوح محفوظ** : « بل الذين كفروا في تكذيب ! ـ والله من ورائهم محيط ؛ بل هو قرآن مجيد ، **في لوح محفوظ** » (البروج ١٩ ـ ٢٢) . يُخبر بأن ما يدعو اليه « هو قرآن مجيد محفوظ في لوح » : فالقرآن العربي خبر عن هذا القرآن المجيد المحفوظ في لوح . ولا شيء في الآيات يشير الى المكان حيث اللوح محفوظ .

ويقول : « فلا! أقسم بمواقع النجوم ـ وإنّه لقسم ، لو تعلمون ، عظيم ـ إنه لقرآن كريم ، في **كتاب مكنون** لا يمسّه إلاّ المطهّرون : تنزيل من رب العالمين » (الواقعة ٧٥ ـ ٨٠) هنا يصير اللوح المحفوظ كتاباً مكنوناً . والقرآن العربي يخبر عن « قرآن كريم ، في كتاب

مكنون ... تنزيل من رب العالمين)) : **فالتنزيل من رب العالمين** هو ((قرآن كريم في كتاب مكنون)) . فهل في الآيات من إشارة الى **مكان الكتاب المكنون؟** رآها بعضهم في ((مواقع النجوم)) فخرقوا رواية تنزيل القرآن الى ((مواقع النجوم)) في السماء الدنيا . ولكن ليس من تطهير عند الملائكة حتى نرى فيهم ((المطهّرين)) ! إن التطهير من ضرورات الدين للبشر ؛ فقوله : ((لا يمسّه إلاّ المطهّرون)) فيه إشارة إلى أهل الأرض الذين عندهم كتاب الله محفوظاً لا يمسه إلاّ المطهّرون منهم ، المطهّرون من الشرك ومن النجاسات ومن الذنوب . وأهل الكتاب كانوا يحفظون كتاب الله في مكان مقدّس ، ولا يمسه منهم إلاّ المطهّرون . فالقرآن العربي **يخبر أن مصدره** ((قرآن كريم ، في كتاب مكنون)) ، محفوظ بعيداً عن غير المطهّرين من أهل الأرض .

ويقول : ((كلاّ ! إنا تذكرة ـ فمن شاء ذكره ـ في **صحف مكرّمة** ، مرفوعة مطهّرة، بأيدى سفرة ، كرام بَرَرة)) (عبس ١١ ـ ١٦) . هنا يصير اللوح المحفوظ ، والكتاب المكنون **صحفاً مكرمة** . وهذه الصحف ((مرفوعة مطهّرة)) : وليس في السماء نَجَسٌ حتى يكون فيها ((صحف مرفوعة مطهّرة)) عن مسّ كل مَن به نَجَس . فالنجاسة التي تمنع من مسّ كتاب الله في صحفه هي من صفات أهل الأرض . وليس أهل السماء ، وهم في نور الله ، بحاجة الى صحف ، ولا إلى سَفرَة يكتبون : فكل هذا من ضرورات أهل الأرض . فالقرآن المجيد الذي يدعو اليه القرآن العربي ، هو كتاب مكنون على الأرض ، ((في صحف مطهّرة ، بأيدي سفرة كرام بررة)) ، كما يطالبه اليهود ((بالبيّنة : رسول من الله **يتلو صحفاً**َ **مطهرة** فيها كتب قيمة)) (البيّنة ٢ ـ ٣) هذه هي الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة .

ويقول : ((لكل أجل كتاب : يمحو الله ما يشاء ويثبت ، **وعنده أم الكتاب**)) (الرعد ٣٨ ـ ٣٩) . لان ((**عند**)) الله هو في السماوات والأرض : فليس مخصوصاً بالسماء ؛ بل ((عند)) الله يكون أيضاً على الأرض ، حيث ((**كتاب الله**)) (٨:٧٥؛ ٩:٣٦؛ ٣٠:٥٦؛ ٣٣:٦) محفوظ يتلونه (٣٥:٢٩) ويدعون إليه (٣:٢٣) ، ((بما استُحفظوا من كتاب الله)) (٥:٤٤) ، وإنْ ((نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم)) (٢:١٠١) . إن ((أمّ الكتاب)) أي أصله ومصدره ((عند الله)) على الأرض ، اليه يرجع ، وبه يتحدّى : ((قلْ : فاتوا **بكتاب من عند الله** هو أهدى منهما أتبعه ، إن كنتم صادقين)) (القصص ٤٩) . فالقرآن العربي ينتسب الى كتاب الله الذي عند أهل الكتاب ، حيث ((أم الكتاب)) في

كتاب مكنون ، على لوح محفوظ في صحف مطهّرة ، بأيدي سفرة بررة . فلا شيء يشير الى صلة مباشرة بالسماء .

٦ ـ لا يذكر القرآن العربي لنبيّه من صلة بملاك الوحي **سوى مرّة أو مرّتين** . والقرآن العربي كله ينتسب الى هذه **الرؤيا الوحيدة** التي تصفها سورة (النجم) ، وهي أول سورة أعلنها رسول الله ، لذلك فيها **مصدر رسالته ودعوته** :

«والنجم اذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى
وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلاّ وحي يُوحى
علّمه شديد القوى ذو مرّة فاستوى
وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى
فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى
ما كذب الفؤادُ ما رأى أَفتمارونه على ما يرى
ولقد رآه **نزلة أخرى** عند سدرة المنتهى
عندها جَنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى
ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

(النجم ١ ـ ١٨) .

هذا هو النظم القرآني في أصالته . وهو رباعيات أرامية تصير ثنائيات عربية في ميزان القريض العربي من صدر وعجز . وفي هذا النظم كان خرْق العادة العربية .

إن سورة النجم تصف رؤيا محمد لملاك الوحي بغار حرّاء . وهي الرؤيا الوحيدة التي يذكرها القرآن العربي كله . وفيها « **أوحى الى عبده ما أوحى** ... لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وما أجملته سورة النجم فصّلته سورة الشورى عند ذكر طرق الوحي الرباني وموقف محمد ونصيبه منها :

« وما كان لبشر أن يكلم الله إلاّ وحياً ـ أو من وراء حجاب ـ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، إنه عليٌ حكيم ؛ **وكذلك** أوحينا إليك روحاً من أمرنا : **ما كنت تدري ما**

الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ؛ وإنك لَتُهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله » (الشورى ٥١ ـ ٥٣) .

ففي غار حرّاء أرسل الله الى محمد في حال وحي اليه «روحاً من أمرنا » أي ملاكاً مخلوقاً (لا الروح غير المخلوق) . **وملاك الوحي هدى محمداً الى الإيمان بالكتاب والدعوة له** . هذا كل ما في الأمر .

نرى مصداق ذلك في السورة نفسها : «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه... وقل : **آمنت بما أنزل الله من كتاب** ، وأمرت لأعدل بينكم » (الشورى ١٣ و ١٥) . فالقرآن العربي يدعو الى دين موسى وعيسى ديناً واحداً ، وهذا هو العدل الذي معه . أو كما يقول مراراً : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » أي التوراة والإنجيل معاً » (البقرة ١٢٩ و ١٥١ ؛ آل عمران ١٦٤ ؛ الجمعة ٢) . «لا نفرّق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون » (البقرة ٢٨٥ و ١٣٦ ؛ آل عمران ٨٤ ؛ النساء ١٥٢) . هذه هي الطريقة والشريعة من أمر الدين التي وضعه عليها ملاك الوحي في غار حرّاء (الجاثية ١٨) .

فليس في رؤيا محمد من تنزيل جديد . إنما هي هداية الى التنزيل الوحيد في كتاب الله ، والأمر بالدعوة اليه على طريقة مخصوصة بالجمع بين موسى وعيسى معاً والكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل معاً. وهي طريقة النصارى من بني إسرائيل .

فالوحي الوحيد الذي ناله محمد في **رؤيا الوحيدة نزلتين** هو الأمر بأن يكون من المسلمين النصارى وأن يتلو معهم قرآن الكتاب : «وأُمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن » (النمل ٩١ ـ ٩٢) : فالمسلمون موجودون قبل محمد وهو ينضم اليهم بأمر الله ويتلو معهم كتاب الله على طريقتهم .

٧ ـ هذا هو «القرآن » الذي نزل على محمد في غار حرّاء : إنه أمر بالهداية الى الإيمان بالكتاب (الشورى ٥٢) ، وأمر بالانضمام الى النصارى المسلمين (النمل ٩١) ، وأمر بالرسالة والدعوة الى كتاب الله الذي معهم وعلى طريقتهم : «حم ، والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ... أمراً من عندنا : إنّا كنا مرسِلين » (الدخان ١ ـ ٥) .

فالأمر بالرسالة والدعوة لكتاب الله المنزل من قبله هو الخبر العظيم الذي يردّده القرآن العربي في انتسابه الدائم الى الكتاب وأهله المسلمين المقسطين : «وأمرتُ **أن أكون من**

المسلمين وأن اتلو القرآن » (النمل ٩١ ـ ٩٢) ، «وأمرتُ **أن أكون من المؤمنين** » (يونس ١٠٤) ، «قلْ : إني أمرتُ أن اعبد الله مخلصا له الدين ، وأُمرت لأن **أكون أول المسلمين** » (الزمر ١١ ـ ١٢) ـ أُمِر في رؤيا غار حرّاء أن ينضم الى المسلمين « النصارى » ، وأن يتزعّم دعوتهم ـ « قلْ : إني أمرتُ أن **أكون أوّل مَن أسلم** ، ولا تكونَنَّ من المشركين » (الأنعام ١٤) ، «قل : إنني هداني ربّي الى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ، ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . قلْ : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، **بذلك أمرتُ وأنا أول المسلمين** » (الأنعام ١٦١ ـ ١٦٣) . إن الصراط المستقيم ، والدين القيّم ، وملّة إبراهيم حنيفاً هي أن يكون من المسلمين ؛ لذلك هداه ربه في رؤيا غار حرّاء ؛ وبذلك أُمر ، يتزعّم الدعوة الى إسلام « النصارى » المسلمين المقسطين . هذا **الأمر المتواتر هو القرآن** والتنزيل والذكر والكتاب الذي أُنزل عليه في ليلة مباركة (الدخان) هي ليلة القدر (سورة القدر) من شهر رمضان (البقرة) . أُمِر بالهداية الى الإيمان بكتاب الله (الشورى ٥٢) وأُمر بالدعوة له مع « النصارى » المسلمين (النمل ٩١ ـ ٩٢) وأُمِر بتزعّم الحركة « النصرانية » الإسلامية في مكّة والحجاز بعد موت زعيمها ورقة بن نوفل استاذه الى هذه الرسالة . تلك هي رسالته ونبوته التي تلقاها من ملاك الوحي في غار حرّاء : «حم . والكتاب المبين **إنّا أنزلناه في ليلة مباركة ... أمراً من عندنا : إنّا كنا مرسلين** » (الدخان ١ ـ ٥) .

فليس من تنزيل جديد في القرآن العربي ؛ انما هو نقل التنزيل الكتابي «بلسان عربي مبين » . وقد جمع رسالته كلها وقرآنه كله في قوله : «**وإنه لتنزيل رب العالمين** نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ؛ **وانه لفي زبرُ الأولين** : أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) . يصرّح بأن تنزيل رب العالمين الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد هو في زبر الأولين أي «كتبهم كالتوراة والإنجيل » (الجلالان) ، ويشهد بذلك علماء بني إسرائيل ، وشهادتهم آية لهم . **فالروح الأمين نزل على قلبه بتنزيل التوراة والإنجيل معاً** ، وهذا ما يسميه هداية الى الإيمان بالكتاب (الشورى ٥٢) ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين ، لأنه « ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين قرأه عليهم ، ما كانوا به مؤمنين » (الشعراء ١٩٨ ـ ١٩٩) .

فالقرآن العربي من تنزيل الكتاب لأنه « تفصيل الكتاب » (يونس ٣٧) .

ثانياً : القرآن العربي هو «تفصيل الكتاب» للعرب

إن تعبير (التنزيل) في لغة القرآن متشابه ، لا يُعرف معناه إلاّ بالقرائن القرآنية المحكمة . وما يسميه تنزيلاً يصفه بأنه «تفصيل الكتاب» المنزل قبله ، و «تصريف آياته»، و«تيسيره» قرآناً عربياً ، و «تبيان» ما نُزّل من قبل .

١ ـ فهو يصرّح أولاً بأن القرآن العربي ، انما هو تنزيل الرحمان الرحيم ، لأنه من **كتاب الله الموجود قبله ، وفيه ؛ فالقرآن ينتسب الى الكتاب نسبة مصدرية** :

يقول : « إن هذا (القرآن) لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » (الأعلى ١٨ ـ ١٩) ؛ « أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ... وأن الى ربك المنتهى » (النجم ٣٦ ـ ٤٢) ـ ففي سورة النجم ، بعد أن ذكر قصة رؤياه في غار حرّاء ، يصرح بمصدر دعوته في صحف إبراهيم وموسى وعيسى ـ «وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه ؟ ـ أولم تأتهم **بيّنة ما في الصحف الأولى**» (طه ١٣٣) . فالقرآن الذي نزل عليه (طه ١) انما هو «بيّنة ما في الصحف الأولى» . فليس من تنزيل جديد، ولا من تنزيل من السماء؛ انما هو بيان ما في تنزيل الصحف الأولى . بذلك يردُ على المشركين المكذبين : «فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفِرة فرت من قَسْورة ! بل يريد كلُ امرئ أن **يُؤتى صحفاً منتشرة ... كلا إنه تذكِرة** ، فمن شاء ذكره» (المدثر ٤٩ ـ ٥٥) فليس القرآن العربي صحفاً مقدسة منشرة ، بل هو تذكرة منها . وبذلك يردّ على أهل الكتاب من اليهود : «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب (اليهود) والمشركين منفكّين حتى تأتيهم **البيّنة** : رسول من الله يتلو صحفا مطهّرة فيها كتب قيّمة ـ وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب (من اليهود) إلاّ **من بعد ما جاءَتهم البيّنة**» (البيّنة ١ ـ ٤) لأن القرآن « بيّنة ما في الصحف الأولى » (طه ١٣٣) .

ويقول : «إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ـ وانْ من أمة إلاّ خلا فيها نذير ـ وإن يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءَتهم رسلهم بالبيّنات والزُبرُ والكتاب المنير» (فاطر ٢٤ ـ ٢٥) . فالعرب المشركون يكذبون محمداً كما كذّب اليهود رسلهم ، وبيّنات موسى ، وزبور داود ، والكتاب المنير لعيسى المسيح . لكن النصارى من بني إسرائيل لم يكذبوا عيسى ، ولا هم يكذبون محمداً ؛ لذلك يستشهد بهم : «فاسألوا أهل الذكر ؛ إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزبر» (النحل ٤٣ ـ ٤٤) . ويستعلي على المشركين بتلك الزبر : «أم لكم

براءَة في الزبر » (القمر ٤٣) لأن «كل شيء فعلوه في الزبر » (القمر ٥٢) . وينذّد بأهل الكتاب الذين اختلفوا في المسيح : «فقطّعوا أمرهم بينهم زبراً ، كل حزب بما لديهم فرحون» (المؤمنون ٥٣) «فآمنت طائفة من بني إسرائيل (النصارى) وكفرت طائفة (اليهود) : فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» (الصف ١٤) . فالقرآن ينتسب دائماً الى زبر الأولين ، **وما هو تنزيل إلاّ لأنه منها وفيها** : «وإنه لتنزيل رب العالمين ... وإنه لفي زبر الأولين» (الشعراء ١٩٢ و ١٩٦) .

وهكذا فما محمد إلا «نذير من النذر الأولى» (النجم ٥٦) ينذر العرب ، في القرآن ، بالنذر الأولى .

٢ ـ فما القرآن العربي سوى «تفصيل الكتاب» بلسان عربي مبين

ما يصفه عامةً بالتنزيل في القرآن العربي ، يسميه على التخصيص تفصيلاً : «ما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ، ولكن **تصديق** الذي بين يديه (قبله) ، **وتفصيل الكتاب** ، لا ريب فيه ، من رب العالمين» (يونس ٣٧) . هذا هو التعريف الحق ، والقول الفصل في القرآن العربي : إنه « تفصيل الكتاب » ، لا الكتاب الذي في السماء ، بل الكتاب الذي من قبله ، فهو « تصديق الذي بين يديه». **والتفصيل في لغته يعني التعريب** ، بحسب قوله : «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فُصّلت آياته» (فصلت ٤٤) .

فالتنزيل في القرآن يعني «تفصيل الكتاب» فيه : «أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي **أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ؛ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق ، فلا تكونَنَّ من الممترين ! وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاًَ ، لا مبدّل لكلماته ، وهو السميع العليم» (الأنعام ١١٤ ـ ١١٥) . **هذا هو تحديد كيفية التفصيل والتعريب** : إن القرآن العربي منزّل من ربك بالحق لأنه «الكتاب مفصلاً» ، بكل صدق وعدل ، لا مبدّل لكلماته ؛ ويشهد أهل الكتاب على صحة التنزيل في صحة التفصيل والتعريب . **فالقرآن تنزيل لأنه « تفصيل الكتاب »** . لذلك «ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، **وتفصيل كل شيء** ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» (يوسف ١١١) .

فهذه هي قصة التنزيل الرباني : «حم . تنزيل من الرحمان الرحيم : **كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**» (فصلت ١ ـ ٣) . هذا هو التعريف الفصل في القرآن العربي : إن

تنزيل الرحمان الرحيم هو في الكتاب ، وقد «فُصّلت» أي عُرّبت آياته قرآناً عربياً . وقوله : « لقوم يعلمون» فيه سرٌ لطيف ؛ إن أولي العلم ، القوم الذين يعلمون ، هم أهل الكتاب ، والمقسطين منهم هم النصارى من بني إسرائيل ؛ لذلك كان تعريب الكتاب أولاً لهم كما فعل قس مكّة ورقة بن نوفل ، ومحمد من بعده يبلّغه الى العرب ، «**وقد شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله**» (الأحقاف ١٠) . **فمثل القرآن عند النصارى من بني إسرائيل** . وهو «كتاب أحكمت آياته ـ ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير» (هود ١) ؛ لذلك ما كان لمحمد نفسه أن يشك من مطابقة القرآن العربي «للمثل» الذي عند النصارى من بني إسرائيل : «أفمن كان على بيّنة من ربه ـ **ويتلوه شاهد منه** ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ـ أولئك يؤمنون به ؛ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ؛ **فلا تكُ في مرية منه**» ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (هود ١٧) . إن شاهداً من قِبَل الله يتلو «مثل» القرآن على محمد ، « ومن قبله كتاب موسى إماماً »، «فلا تك في مرية منه» ، لأن أهل الكتاب المقسطين هم على بيّنة من ربهم ، وهم يؤمنون به ، فآمن على إيمانهم .

إن كتاب الله قد **فصلت آياته قرآناً عربياً** . لذلك فما القرآن العربي سوى «تفصيل الكتاب» بلسان عربي مبين . وهو يقسم بالكتاب نفسه أنه جعله قرآناً عربياً : « حم . والكتاب المبين : إنا جعلناه (الكتاب) قرآناً عربياً ألعلّكم تعقلون» (الزخرف ١:١ ـ ٣) . هذا هو تحديد التفصيل والتعريب .

٣ ـ القرآن العربي «تصريف» آيات الكتاب ، بعد الدرس

يقول : «انظر كيف نصرّف الآيات ، ثم هم يصدِفون» (الأنعام ٤٦) ، «انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون» (الأنعام ٦٥) ؛ «وكذلك نصرّف الآيات ـ وليقولوا : درست ! ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون» (الأنعام ١٠٥) . يقول «بتصريف» الكتاب قرآناً عربياً ، فيردون عليه ، ويقولون : «درست» كتب الماضين وجئت بهذا منها (الجلالان) . فردّ على تهمة الدرس بقوله : «ولنبيّنه لقوم يعلمون»؛ فسكوته عن الردّ عليم في ذلك ، **وعدوله الى بيان حكمة الدرس دليل على صحته** . فقد درس محمد الكتاب ، وهو يصرّف آياته في القرآن العربي .

ويقول : «تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (الفرقان ١) . وكان هذا التنزيل بالتصريف : «ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا ، فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً» (الفرقان

٥٠) فالتنزيل يعني التصريف في لغته : ((وكذلك ، **أنزلناه** قرآناً عربياً **وصرّفنا** فيه من الوعيد لعلهم يتّقون ، أو يُحدث لهم ذكراً)) (طه ١١٣) ، ((ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكّروا ، وما يزيدهم إلا نفوراً)) (الإسراء ٤١) ؛ ((ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الانسان أكثر شيء جدلاً)) (الكهف ٥٤) . لقد درس محمد الكتاب وصرّفه وفصله قرآناً عربياً ، أو فصّله له ((حكيمٌ خبير)). فالتصريف ، في لغته ، مرادف للتفصيل أي للتعريب .

٤ ـ القرآن العربي هو ((تيسير)) الكتاب بلسان محمد

في سورة مريم يقول : ((واذكر في الكتاب مريم)) (١٦) ، ((واذكر في الكتاب إبراهيم)) (٤١) ، ((واذكر في الكتاب اسماعيل)) (٥٤) ، ((واذكر في الكتاب ادريس)) (٥٦) : ((أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممّن هدينا واجتبينا ، إذا تُتلى عليهم آيات الرحمان خرّوا سُجّدا وبُكيّا)) (٥٨) . ويختم بقوله : ((فإنما **يسّرناه بلسانك** لتبشّر به المتّقين ، وتنذر به قوما لُدّا)) (٩٧) . فالقرآن العربي تيسير الكتاب المقدس بلسان محمد ، بحسب ((المِثْل)) الذي مع النصارى من بني إسرائيل (الأحقاف ١٠) . والكتاب هو الذكر وهو القرآن على الإطلاق ؛ وما القرآن العربي سوى تيسير **القرآن العظيم** : ((ولقد يسّرنا القرآن للذكر ، فهل من مدّكر)) (القمر ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠) . ومنذ رؤيا غار حرّاء ، في تلك الليلة المباركة ، أمر ملاك الوحي محمداً بتيسير الكتاب المُبين بلسانه العربي المُبين : ((حم . والكتاب المبين إنا **أنزلناه** في ليلة مباركة ... **أمراً من عندنا** : إنّا كنا مرسلين)) (الدخان ١ـ ٥) ، ((**فإنّما يسّرناه بلسانك** لعلّهم يتذكّرون)) (الدخان ٥٨) .

فرسالة محمد هي تيسير الكتاب المبين باللسان العربي .

٥ ـ القرآن العربي هو ((بيان)) الكتاب بلسان عربي

يتحدّى المشركون الذين لا يعلمون ، واليهود الذين من قبلهم ، محمداً بآية ، فيُجيب أن آيته بيان آيات الكتاب لأنه بشير ونذير ، لا نبي بمعجزة : ((وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ؟ ـ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ! قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون ! إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تُسْأل عن أصحاب الجحيم)) (البقرة ١١٨ ـ ١١٩) .

ومن صفات النبي أن يُرْسَل بلسان قومه : ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم)) (إبراهيم ٤) . **ورسالة محمد أن يبيّن للعرب ما نُزِّل من قبله بلسانهم** : ((وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي اليهم : فاسألوا **أهل الذكر** إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزُبر ! **وأنزلنا إليك الذكر ، لتُبيّن للناس ما نُزِّل إليهم** ، ولعلّهم يتفكّرون)) (النحل ٤٣ ـ ٤٤) . إن الذكر الإلهي لواحدٌ ، وهو أولاً عند أهل الذكر ، فهم أهله من دون الناس أجمعين ؛ ثم نزل هذا الذكر ـ لاحظ التعبير المطلق في قوله : ((وأنزلنا إليك **الذكر** ـ الى محمد ـ لتبيّن للناس (العرب) ما نُزِّل اليهم)) من قبل . فالقرآن العربي هو ((بيان)) الذكر الذي عند أهل الذكر للعرب بلسان عربي .

ومن رسالته أيضاً أن يُبيّن لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه ، على هدى القوم المؤمنين ، أولي العلم المقسطين ، النصارى من بني إسرائيل المسلمين : ((وما أنزلنا عليك الكتاب (فهو واحد عنده ومع مَن قبله) إلاّ **لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه** ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)) (النحل ٦٤) . فالقرآن العربي هو أيضاً ((بيان)) الكتاب لأهل الكتاب الذين اختلفوا فيه الى يهود ومسيحيين ، على هدى النصارى من بني إسرائيل ، القوم المؤمنين ((الذين يتلونه (الكتاب) حقَّ تلاوته)) (البقرة ١٢١) .

٦ ـ في القرآن على محمد أن ((يقتدي)) بهدى الكتاب وأهله المقسطين

يذكر الأنبياء جميعهم من نوح الى عيسى ، ((ومن آبائهم وذريتهم واخوانهم ؛ واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ـ **ذلك هدى الله** يهدي به من يشاء من عباده)) (الأنعام ٨٤ ـ ٨٨) . ثم يقول : ((أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم (الحكمة) والنبوّة ـ فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ـ أولئك الذين هدى الله ، **فبهداهم اقتدِه**)) (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) . إن هدى الله هو عند أهل الكتاب ((الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة))؛ لاحظ تعبير ((الحُكم)) أي الحكمة ، وقد استخدم بحرفه العبري والأرامي زيادة في الانتساب اليهم والى لغتهم . والحكمة في التعبير المتواتر ((الكتاب والحكمة)) هي الإنجيل . فهدى الله هو عند الذين يقيمون التوراة والإنجيل معاً بدون تفريق بينهما ، وهم النصارى من بني إسرائيل . فعلى محمد أن ((يقتدي)) في القرآن العربي بهداهم . فليس هدى القرآن العربي نازلاً من السماء مباشرة ، بل هو من هدى النصارى من بني إسرائيل

«الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة» معاً . والأمر لمحمد أن «يقتدي بهداهم» برهان على أن هداه من هداهم ، والتنزيل اليه من تنزيلهم ؛ فلو كان من السماء مباشرة لَمَا صحّ لهذا الأمر من معنى .

٧ ـ القرآن يشهد للاسلام بشهادة أولي العلم المقسطين

منذ رؤيا غار حرّاء جاءَه الأمر أن ينضمّ الى المسلمين من قبله ، وأن يتلو قرآن الكتاب على طريقهم : «وأُمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (النمل ٩١ ـ ٩٢) . فإسلام المسلمين من قبله هو القرآن كله . وهذا الإسلام هو الدين عند الله . بذلك يشهد الله وملائكته « وأولو العلم قائماً بالقسط» ـ وأولو العلم مرادف لأهل الذكر ، وأهل الكتاب . لكنه يقسمهم الى طائفتين : المقسطين منهم وهم النصارى من بني إسرائيل ، والظالمين وهم اليهود (العنكبوت ٤٦) . **فالقرآن يشهد بشهادة هؤلاء النصارى «أن الدين عند الله الإسلام»** : « شهد الله أن لا إله إلاّ هو ، والملائكة ، وأولو العلم قائماً بالقسط ـ لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ـ **أن** [1] الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩) .

قالوا إن آخر آية عهداً بالعرش آيةُ الدين هذه ، فهي آخر ما نزل على محمد . لكن القرآن يشهد أن آية الدين هي شهادة النصارى الإسرائيليين ، وشهادتهم للاسلام من شهادة الله وملائكته .

ولذلك اختلف أهل الكتاب من اليهود بعد «العلم» الذي جاءَهم به المسيح في الإنجيل ؛ وأخذوا يقتلون النصارى المقسطين بسبب شهادتهم بالإسلام النصراني ، كما كانوا يقتلون النبيّين بغير حق : «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب (اليهود) إلاّ من بعد ما جاءَهم **العلم** ، بغيّاً بينهم ! ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ... إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيّين بغير حق ، **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ، فبشّرهم بعذاب أليم» (آل عمران ١٩ و ٢١) .

إن النصارى من بني إسرائيل يشهدون مع الله وملائكته أن الدين عند الله الإسلام ؛ ويأمرون الناس بالقسط ؛ فهم أولو العلم قائماً بالقسط ؛ لذلك يقتلهم بنو قومهم اليهود ،

---

(١) أنّ ؛ هناك قراءَة أخرى على الاستئناف : «إنّ» ، لكنها لا تغيّر المعنى لأن الإسلام هو الشهادة « أنْ لا إله إلاّ هو » .

فيموتون شهداء الإسلام الذي له يشهدون . **والقرآن كله يشهد بشهادتهم** : فهو تنزيل من تنزيلهم .

والقرآن تأييد لهؤلاء النصارى من بني إسرائيل حتى ظهورهم على عدوّهم اليهود : ((يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ، ابن مريم ، للحواريين : مَن أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . **فآمنت طائفة من بني إسرائيل** ، وكفرت طائفة: **فأيدنا** الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)) بالحجاز والجزيرة (الصف ١٤) . فالقرآن يشهد للاسلام بشهادة النصارى من بني إسرائيل ، أولي العلم المقسطين ؛ ويؤيّد دعوتهم ، وينتصر لهم على عدوهم . فالدعوة القرآنية دعوة ((نصرانية)). **النتيجة الحاسمة** : إن التنزيل يعني في اصطلاحه ((التفصيل)) .

هذا هو التنزيل القرآني ، بتعابيره المتشابهة . ويصرّح بتواتر **إن هذا التنزيل القرآني إنما هو** ((**تفصيل الكتاب**)) وتصريفه وتيسيره وبيانه للعرب ، على طريقة النصارى من بني إسرائيل ، ((الذي يتلونه حقَّ تلاوته))، ويشهدون مع الله وملائكته بالإسلام ، فيشهد به معهم محمد بالقرآن العربي ، فقد ((أُمرتُ أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن)) (النمل ٩١ ـ ٩٢) على ((المثل)) الذي معهم : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) (الأحقاف ١٠) . فتنزيل القرآن هو ((تفصيل الكتاب)). **ويسمي القرآن العربي نفسه تنزيلاً لأنه تفصيل التنزيل عن** ((**مثله**)) الذي عند النصارى من بني إسرائيل . وتنزيل هو ((تفصيل)) التنزيل الكتابي ، هل يكون من الإعجاز بذاته في التنزيل ؟

بحث عاشر

التنزيل ما بين القرآن والإنجيل

نختم هذا الفصل ببحث التنزيل ما بين القرآن والإنجيل ، على هدى القرآن والإنجيل . نرى فيه مدى **التفاوت الواسع** ما بين التنزيل القرآني والتنزيل الإنجيلي .

أولاً ـ يجزم القرآن عن نفسه أنه **تنزيل بالواسطة** : ((نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)) (الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٤) ؛ ((قلْ : نزّله روح القدس من ربك بالحق))

(النحل ١٠٢) . وبما أنه تنزيل بالواسطة **فهو كلام الملاك باسم الله لا كلام الله مباشرة** : « يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » (الشورى ٥١) .

أمّا الإنجيل فهو وحي مباشر من الله ، **بدون وسيط** ، ولا حجاب ؛ **فهو كلام الله نفسه** . وبحسب الإنجيل إنه كشف من الله بالمشاهدة العيان . فالسيد المسيح ، في الإنجيل والقرآن هو « كلمة الله » ، من ذاته ؛ فكأن كلام الله صار فيه « كلمة الله » ذاته : فالوحي والذات فيه واحد .

ثانياً ـ إن التنزيل القرآني من **وَسَطٍ** قائم بين الله وبين نبيّه : فهو على « لوح محفوظ »، في « كتاب مكنون »، ضمن « صحف مطهّرة ، بأيدي سفرة ، كرام برَرة ».

أمّا بين الله ومسيحه **فليس من وسيط ولا وَسَط** ، ولا كتاب ولا حجاب : « إننا نشهد بما شاهدنا » يقول كلمة الله النازل من ذات الله (يوحنا ٣:١١) .

ثالثاً ـ بحسب الحديث المتواتر المشهور كان **جبريل يعارض القرآن** كل سنة في رمضان مع محمد . وهذه العرْضات السنوية للقرآن تدل حتماً على تنقيحه .

أما الإنجيل ، فليس في القرآن والإنجيل ، ولا في الأخبار والآثار ، من عرْض له على مخلوق ؛ فهو ليس بحاجة الى تنقيح .

رابعاً ـ كان القرآن ، على ما يقولون وكما هو المشاهَد فيه ، ينزل بحسب الحاجة الطارئة ، «**نزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم**» (عن ابن عباس) ، على مقتضى الحال، كما يصرّح : « ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (الفرقان ٣٣) فكأن جبريل يتبارى مع العرب في الإعجاز والبيان .

أما الإنجيل ، وإن جاء فيه بجواب كلام العباد وأعمالهم أحيانا ، **فهو ينزل مبتدِئاً** بكشف من الله ، وتشريع يفرضه فرضاً على العباد بحسب مقتضى الحال والمآل .

لمّا نزلت في القرآن آية المحاسبة على الوسوسة (البقرة ٢٨٤) قالوا لمحمد : نزلت عليك هذه الآية ، ولا نطيقها ، فنسخها للحال . ولمّا نسخ السيد المسيح الطلاق وتعدد الزوجات بحسب شريعة موسى ، استنكر ذلك صحابته قبل غيرهم ، فقال لهم : «مَن استطاع أن يحتمل فليحتمل» (متى ١٩:١ ـ ١٢) .

خامساً ـ في التنزيل القرآني **ناسخ ومنسوخ في آيه** . وقد رفع جبريل في العرضة الأخيرة ، على ما يقولون ، كثيراً من المنسوخ . وعند جمع القرآن أسقط عثمان المنسوخ الباقي الذي أثبته علي في مصحفه . وبقي في المصحف العثماني ناسخ ومنسوخ يؤلفون فيه الكتب الى اليوم .

أما الوحي الإنجيلي فليس فيه ناسخ ومنسوخ . وليس من شاهد في الإنجيل ، ولا في الأخبار والآثار ، على شيء من ذلك . فقد نزل الإنجيل بالوحي مبتدئاً محكماً .

سادساً ـ يقسم القرآن التنزيل فيه الى محكم ومتشابه : ((هو الذي أنزل عليك الكتاب: منه آيات محكمات ، هنّ أمّ الكتاب ؛ وأُخر متشابهات)) (آل عمران ٧) . والمتشابهات أكثر القرآن ؛ فكأنهنّ من المهملات ، أو من الوسائل التدعيمية .

ولا ينص الإنجيل على أن فيه ((آيات محكمات وأخر متشابهات)). فكله محكم . قد يفصّل الإنجيل بعضه بعضاً ويفسّر بعضه بعضاً ؟ ولكن ليس فيه آيات متشابهات يجب الرجوع فيها الى المحكمات لبيان مدلولها ومعانيها . فآيات الإنجيل كلها محكمات .

سابعاً ـ حديث صحيح نقله واحد وعشرون صحابيّاً [1] : ((**إن القرآن أنزل على سبعة أحرف** ، كلها شاف كاف)). واختلفوا في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولاً ، لما فيه من شبهات على صحة التنزيل وصحة الحفظ وصحة الإعجاز . لكن أكثر العلماء على تفسير الطبري أنه ((باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني)) أي سبعة نصوص أو سبعة قرائين . يقول الطبري [2] : ((فإن قال قائل : **ما بال الأحرف الستة غير موجودة** ؟ إن كان الأمر على ما وصفت أو قد أقرّهن رسول الله ﷺ ، **وأمر بالقراءَة بهنّ الأمة** ، وهي **مأمورة بحفظها** ، فلذلك تضييع ما قد أُمروا بحفظه ؟ أم ما القصة في ذلك ؟ ـ قيل له : لم تُنسخ فترفع ؛ ولا ضيّعتها الأمة ؛ ولكن الأمة أُمرت بحفظ القرآن ، وخُيّرت في قراءته وحفظه بأيّ تلك الأحرف شاءت . فرأت ، لعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ، قراءَته بحرف واحد ، ورفض القراءَة بالأحرف الستة الباقية)) (١:٥٩) . والعلة الموجبة كانت اختلاف الأمة المبكر على نص القرآن ، واقتتال الغلمان في المدارس ، والجيوش في ساحات

---

(١) السيوطي : **الاتقان** ١:٤٦ ـ ٤٨.
(٢) الطبري : **تفسير القرآن** ـ نشر الأخوين شاكر ١:٥٩ ؛ ١:٦٢ ؛ ١:٦٦.

القتال (٦٢:١) . ثم « **إن الأحرف الستة الأخر أسقطها عثمان** ومنع من تلاوتها » (٦٦:١) وأتلفها بالحديد والنار . فحفظ القرآن على حرف أي نص واحد ليس بمعجزة في الحفظ ولا في الأمانة لتنزيل الله .

ودوّن صحابة المسيح الإنجيل على **أربعة أحرف** : الإنجيل بحسب متى ، وبحسب مرقس ، وبحسب لوقا ، وبحسب يوحنا . **وحفظها المسيحيون جميعاً** ، لأنهم لم يختلفوا فيها ولم يقتتلوا عليها ، مع تفرّقهم طوائف وشيعاً . ثم رأى بعض المسيحيين من التابعين كتابة أحاديث وردت عن صحابة المسيح وآل بيته ، فوضعوها وسمّوها أناجيل ، ونحلوها الى رسل المسيح ، فسمّيت « **الاناجيل المنحولة** ». وهذه أيضاً لم يتلفها المسيحيون لأنهم لم يخشوا منها على « **الاناجيل الأربعة الصحيحة** ».

وهكذا نزل القرآن على سبعة أحرف أتلف صحابة محمد منها ستة !

ونزل الإنجيل على أربعة أحرف فحفظها صحابة المسيح جميعاً !

ففي تلك المقارنات السبع في التنزيل ، ما بين القرآن والإنجيل ، أين هو الإِعجاز الإلهي الحق في التنزيل ؟

خاتمة

شبهات عشر على الإعجاز في التنزيل

تلك أبحاث عشرة في التنزيل القرآني .

أجل إن في القرآن إعجازاً . لكن الإعجاز الأول للتحدي ليس الإعجاز في اللفظ والنظم والبيان . إنما الإعجاز الحق والأوّل للتحدي هو الإعجاز في التنزيل .

وتنزيل متشابه في لغته : تنزيل مخلوق في حرفه (والحرف موضوع التحدي بإعجازه) ؛ تنزيل قد يكون بالحرف أم بالمعنى ؛ تنزيل على سبعة أحرف لم يسلم منها إلا واحد ؛ تنزيل من ميزاته النسيان ، وإمكان فتنة النبي فيه عن الوحي ، وإمكان ترك النبي لبعض الوحي منه بسبب عجزه عن معجزة كالأنبياء الأولين ، تنزيل ميزته التبديل في آية ، والمحو من التنزيل ، والنسخ في أحكامه ، والتشابه في أوصافه وأخباره ، تنزيل يمكن للشيطان أن يُلقي فيه ، وتفرض فيه الاستعاذة من الشيطان قبل قراءَته ؛ تنزيل تلك صفاته ويخضع لعرضات سنوية لتنقيحه من التحريف ؛ تنزيل فيه ناسخ ومنسوخ لم يسلم كله بتصفية النبي له ، وتصفية الصحابة عند جمعه ؛ تنزيل بوسيط ووسط يضعه نبيه في أدنى طرق الوحي ؛ تنزيل يصف نفسه أنه «تفصيل الكتاب» من قبله ؛ «وإنه لفي زبر الأولين» . تنزيل كهذا هل هو الإعجاز في التنزيل ؟ والإعجاز في التنزيل هو المعجزة الأولى للتحدّي في كل تنزيل .

الجزء الثاني

الإعجاز في التأليف

توطئة عامة

حسن التأليف ناحية من الإعجاز البياني

لحسن التأليف شروط أجمعت عليها آداب اللغات كلها ، مع تفاوتها في تحقيق ذلك . فمن حسن التأليف **وحدة الموضوع** في الفصل والكتاب ؛ **وترتيب** الأجزاء ، لتنسيق الأقسام وحدات منسجمة ، في وحدة كبرى شاملة ؛ ومراعاة **الوحدة الزمانية** وتطوّرها في التنزيل والتبليغ ، والبيان والتبيين . فيسلم حسن التأليف من **التداخل** بين مواضيعه واغراضه ؛ ومن **التكرار** في تعليمه وأخباره ؛ ومن **التفكك** بين أجزائه وفصوله ؛ ومن **الاختلاف** في أوصافه من فصل الى فصل . فلا يأتي التعليم متقطعاً ، ولا التشريع متفتّتاً ، بحسب المناسبة من ظروف الزمان والمكان في السيرة والدعوة .

فمن الإعجاز في التأليف وحدة الموضوع واستيفاؤه حقه ، قبل العبور الى غيره . ومن الإعجاز في التأليف عدم تداخل المواضيع في فصل واحد . ومن الإعجاز في التأليف حسن الترتيب . وهذا قد يكون تنسيقيّاً ، أو تاريخيّاً . لكن في الدين ، ومعرفة حقيقة الوحي

وتطور التنزيل ، يفضّل الترتيب التاريخي ، على الترتيب التنسيقي لئلا يفوت علينا تاريخ السيرة والدعوة ، وحقيقة الشريعة المنزلة ، اذا اعتراها تبديل ونسخ . فالإِعجاز في التأليف ناحية من الإِعجاز في النظم والبيان .

بحث أوّل

تأليف القرآن في تنزيله

أولاً : تنزيله آيات

ينقل السيوطي (الإتقان ١:٤٤) « الذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أنّ القرآن كان ينزل **بحسب الحاجة ، خمس آيات ، وعشر آيات** ، وأكثر وأقل . وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملةً ، وصح نزول عشر آيات من أول (المؤمنين) جملةً ، وصح نزول « **غير أولي الضرر** » وحدها ، وهي بعض آية ، وكذا قوله « وإن خفتم عيلةً » الى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية وذلك بعض آية .

« عن عكرمة : أنزل الله القرآن **نجوماً** ثلاث آيات ، وأربع آيات ، وخمس آيات .

« وقال النكزاوي : كان القرآن ينزل مفرّقا : الآية والآيتين والثلاث والأربع ، وأكثر من ذلك » .

ثانياً : تعليمه آيات

وقد عمل الصحابة في تلقين القرآن وتعليمه بحسب مبدإ نزوله :

« وما أخرجه ابن عساكر قال : كان أبو سعيد الخدري يعلّمنا القرآن **خمس** آيات بالغداة ، **وخمس** آيات بالعشي . ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات .

((وما أخرجه البيهقي **عن عمر** قال : تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً . ومن طريق ضعيف عن علي قال : أُنزِل القرآن خمساً خمساً ـ إلاّ سورة الأنعام [1] ـ ومَن حفظ خمساً خمساً لم ينسه .

((فالجواب ان معناه ـ إن صح القاؤه الى النبي ﷺ هذا القدر ـ حتى يحفظه ثم يلقى اليه الباقي ، لا إنزاله بهذا القدر خاصة)).

فالشهادة المتواترة عن الصحابة ان القرآن كان ينزل **مفرّقاً** ، **نجوماً** ، من آية الى اثنتين فما فوق ؛ **ولم يتجاوز العشر آيات مرة واحدة** . ولم يذكروا نزول عشر آيات جملة إلا مرتين في حديث الإفك من سورة (النور) ، وفي مطلع سورة (المؤمنين) . وهكذا فإن **أسلوب التنزيل نفسه** ، بحسب مناسبات السيرة وظروف الدعوة ، دليل على التفكّك في تأليفه الخاضع لظروف المناسبات المختلفة . والتأليف في التنزيل بحسب المناسبات المختلفة شبهة على الإعجاز في التأليف .

بحث ثان

ترتيب الآيات في السورة

أوّلاً : الواقع التاريخي

قال السيوطي في (الإتقان ١:٦٢) ، ((**الاجماع** ، والنصوص المترادفة ، على أن ترتيب الآيات **توقيفي** لا شبهة في ذلك . أمّا **الاجماع** فنقله غير واحد . منهم الزركشي في (البرهان) وأبو جعفر بن الزبير في مناسبة ؛ وعبارته : ((**ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه** ﷺ وأمره ، من غير خلاف في هذا بين المسلمين)).

(١) يظنون أن سورة الأنعام نزلت جملة . وواقعها يشهد أنها **متبعّضة** ، بعضها من مكّة وفي أدوارها ، وبعضها من المدينة ، فلم تنزل جملة .

ثم يقول : ((فبلغ ذلك مبلغ **التواتر** . نعم يشكل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود في (المصاحف) عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : أتاني الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة (براءَة) فقال : أشهد أني سمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتُهما. فقال عمر : وأنا أشهد لقد سمعتهما ؛ ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتُها سورة على حدة ؛ فانظروا آخر سورة من القرآن فالحقوها في آخرها . قال ابن حجر : **ظاهر هذا أنهم يؤلفون آيات السورة باجتهادهم** ، وسائر الأخبار تدل على أنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا بتوقيف)).

هذه الحادثة وهذا الاستنتاج الصحيح يدلان : أولاً على **أن القرآن لم يكن كله مكتوباً على زمن** الرسول ؛ ثانياً ويشهد لذلك أنه عند جمع القرآن ، كما أخرج ابن أبي داود ، ((أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءَكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه ـ رجاله ثقاة مع انقطاعه)).

والخلاف على هذين الشاهدين : هل هما الحفظ والكتاب ، أم الحفظ وحده ، والكتاب وحده ؟ ((قال ابن حجر : وكأن المراد بالشاهدين : الحفظ والكتاب ... وقد أخرج ابن اشته في (المصاحف) عن الليث بن سعد ، قال : أول من جمع القرآن أبو بكر ، **وكتبه زيد** . وكان الناس يأتون زيد بن ثابت ، فكان لا يكتب آية إلاّ بشاهدي عدل ؛ وأن آخر سورة (براءَة) لم توجد إلاّ مع خزيمة بن ثابت ، فقال : اكتبوها ، فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين ، فكتب . وأن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده)) . فالمعوّل اذن على الحفظ .

وهذا واقع متعارض : اذا كان القرآن مكتوباً على زمن النبي ، فما الحاجة الى شهود القراءَة؟ ثم ما الحاجة الى الجمع نفسه من حملة القرآن الحافظين ؟ ثم ما الحاجة الى تعدّد مصاحف الصحابة والخلفاء وأمهات المؤمنين ؛ ومن بعد الجمع العثماني الى اتلافها جميعاً ؟ ثم ما معنى الضرورة القصوى التي حملتهم على الجمع الثاني ، مع عثمان ، والسبب المتواتر اقتتال أهل العراق وأهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان على قراءَة القرآن ، واقتتال الغلمان والمعلمين في الحجاز ، ((فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندي **تكذبون به** ، وتلحنون فيه ، فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً ! يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً ؛ فاجتمعوا فكتبوا)).

فواقع جمع القرآن على مراحل شاهد عدل بأنه لم يكن مكتوباً على زمن الرسول : ولو كان مكتوباً لما احتاجوا الى جمع ! وجمعه من الرقاع المبعثرة في بيت الرسول عند موته، لا يحتاج الى قراء يحفظونه ، ولا إلى شهود عدل يشهدون بسماعه . ولو كان القرآن مكتوباً على زمن الرسول في رقاع مبعثرة ، لَمَا جمعوا منه **مصاحف مختلفة** بين الخلفاء والصحابة وأمهات المؤمنين ؛ ثم عمدوا الى اتلافها جميعاً بعد الجمع العثماني !

وأدوات التدوين ، كما رأينا ، تحتاج الى قافلة جمال تحمل القرآن المكي الى المدينة عند هجرة الرسول . ولا تذكر الاخبار والآثار شيئاً من هذه القافلة ، أو حمل شيء مدون في مكّة الى المدينة : فالقرآن المكي كان كله في صدور القراء . وعند وفاة النبي ، لا خبر ولا أثر يشهد بأن في بيت النبي أو بيوت الصحابة أحمال أجمال من تلك الأدوات التي دوّن عليها القرآن ! وهل كان في المدينة متسع من الوقت لمثل ذلك التدوين على تلك الأدوات ؟ لا ننكر أنه في المدينة تم بعض التدوين على مثل تلك الأدوات البدائية ، كما يرشح من الأخبار والآثار . لكن ذلك لا يعني تدوين القرآن كله ، ولا جلّه .

فالنتيجة الحاسمة مزدوجة :

إن القرآن جُمع من صدور الناس ، بعد تفرّقه سبعة أحرف ، وعلى ألسنة العرب المختلفة . وبما أن القرآن نزل **مفرّقاً** ، بين آية ، وخمس ، وعشر ، قد لا يتجاوزها ، فقد **حمله القراء أيضاً مفرّقاً** ، ((حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدّى ذلك بعضهم الى تخطئة بعض)). فلم يكن جمع الآيات في السور توقيفاً عن النبي ؛ بل باجتهاد الجامعين . هذا هو **الواقع التاريخي** ؛ والمراء فيه من المكابرة على الحقيقة والواقع .

ثانياً : الواقع القرآني

وواقع القرآن في المصحف العثماني الباقي الى اليوم ـ بعد النشرة الثانية للحجاج ـ يشهد بأن ترتيب الآيات في السور كان بتوفيق الصحابة واجتهادهم .

١) إن جمع سورة (براءَة) ، وهي من آخر القرآن نزولاً ، الى سورة (الأنفال) وهي الثانية نزولاً في المدينة ، بدون فاصل البسملة يدل على أنهم اعتبروها سورة واحدة من السبع الطوال . ((أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكم ـ أي

جامعو الحديث جميعهم ـ عن ابن عباس قال : قلتُ لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى (الأنفال) وهي من المثاني ، والى (براءَة) وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر ((باسم الله الرحمان الرحيم)) ووصفتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان اذا أُنزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : صفوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت (الأنفال) من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت (براءَة) من آخر القرآن نزولاً ، **وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننتُ أنها منها** ، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها ، **فمن أجل ذلك قرنت بينهما**، ولم أكتب بينهما سطر ((باسم الله الرحمان الرحيم)) . ووضعها في السبع الطوال)) .

فاعتبار السورتين واحدة لأن ((قصتها شبيهة بقصتها)) دليل على أن ترتيب السورة كان باجتهاد الصحابة .

٢) المناقلة الظاهرة بين سورة (آل عمران) وسورة (المائدة) ؛ بين حديث آل عمران في جدال الوفد المسيحي النجراني ، وحديث جدال اليهود في (المائدة) دليل آخر . إن سورة (المائدة) نزلت بعد تصفية اليهود من المدينة ـ فلا جدال معهم بعد ـ وبعد خضوعهم المطلق في شمال الحجاز ، وبعد فتح مكّة الأكبر والسيطرة عل الحجاز كله : فلا مجال لجدال اليهود في زمن نزول سورة المائدة . ثم إن جدال وفد نجران كان من عام الوفود سنة ٦٣١م ، فلا مكان له في زمن نزول ما أسموه (آل عمران) من عام ٦٢٤م . لذلك فإن الآيات (٣٣ ـ ٦٤) من سورة آل عمران ، وهي مقحمة اقحاماً [1] على جدال اليهود في السورة كلها ، ليست من السورة ، بل كان اقحامها على السورة باجتهاد الجامعين ، لجمعهم في جدال النبي ، كجمعهم في الفتح الإسلامي القائم على قدم وساق . ولذلك فإن الآيات (١٢ ـ ٨٩) من سورة المائدة في جدال اليهود والمنافقين وموالاتهم بعضهم لبعض ، وهي مقحمة اقحاماً على جدال المسيحيّين في السورة ، ليست من السورة ولا من زمانها . والحديث إن ذلك كان بأمر النبي وتوقيفه هو حديث غير مثبت . فتلك المناقلة المفضوحة برهان على أن جمع الآيات في السور كان باجتهاد الجامعين .

٣) ويشهد أن جمع الآيات في السورة كان باجتهادهم ، ما نقلوه في ((معرفة أول ما نزل)) (الإتقان ١:٢٤) . فهناك شبه اجماع على أنه مطلع سورة (العلق) : ((إقرأ)) (١ ـ ٥) .

---

(١) إن تعبير ((اقحام)) المتواتر في لغتنا لا يعني عدم الصحة ، بل يقصد اقحام تنزيل في تنزيل من زمن آخر .

يقول الجلالان : «وهي أول ما نزل من القرآن ، وذلك بغار حرّاء ـ رواه البخاري) . والقسم الثاني (العلق ٦ ـ ١٩) تنديد بردع عمه أبي جهل للنبي عن الصلاة ، فقد نزل بعد سورة (المدثر) : «فبيّن أن سورة (المدثر) **نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة «إقرأ»** «فإن أول ما نزل منها صدرها».

فجمع قصة أبي جهل الى مطلع نزول القرآن في سورة واحدة كان باجتهاد الجامعين ، كما يدل عليه أيضاً اختلاف الفاصلة .

٤) وكان القرآن يعتمد الفواصل المتقاربة في السورة الواحدة ، كما يدل على ذلك أطول سورة فيها (البقرة) . لذلك نستطيع أن نقرّر بأن اختلاف الفاصلة المتقاربة في السورة الواحدة دليل جمع المتفرّقات ، الذي لم يكن بأمر النبي وتوقيفه لأنه يخل بنظم القرآن ، والنظم أم الإعجاز البياني فيه . ومثال صارخ على ذلك سورة (مريم) فإنها كلها على روي واحد . لكن يقطع قصة مريم وابنها على روي واحد متواتر ، حديث مقحم من زمن آخر (مريم ٣٤ ـ ٣٩) **بفاصلة مختلفة ، وبموضوع مختلف** . فجمع سورة مريم أو سواها كان باجتهاد الجامعين ، كما يدل عليه اختلاف الفاصلة ، وهي ركن في إعجاز النظم . فالآيات التي تأتي بفاصلة مختلفة عن فاصلة السورة هي مقحمة على السورة ، وسلكُها في السورة من الجامعين لا من الرسول .

٥) وبما أن النظم أم الإعجاز في السورة والقرآن كله ، **فاختلاف النظم أيضاً في السورة الواحدة** هو عنوان جمع المتفرقات في وحدة مختلفة . وهذا واقع «المفصل» كله تقريباً .

فالسورة التي تأتي بأقسام على فاصلة مختلفة ، هي وحدة مصطنعة من اصطناع الجامعين ، لا من أمر النبي وتوقيفه . خذ مثالا على ذلك سورة (الغاشية) ، وسورة (الانشقاق) ، وسورة (الطارق) ، وسورة (الفجر) ، وسورة (البلد) الخ . ومثال واضح على الجمع المتفاوت في النظم ، سورة (المزمّل) ، فإنها تأتي بنظم واحد ، وفاصلة متقاربة واحدة، وتشعر بختام السورة في قوله : «**إن هذه تذكرة** ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً» (١٩) . ثم يأتونك بآية واحدة (٢٠) تكاد تكون على قدر السورة لطولها : فهذه الآية الطويلة تختلف نظماً وفاصلة وموضوعاً عن السورة كلها فهي ليست منها ، بل من زمن آخر ألحقت فيها باجتهاد الجامعين . وهذا الاختلاف في الجمع ليس من الإعجاز في تأليف السورة .

٦) ويشهد أيضاً أن جمع الآيات في السورة كان باجتهاد الجامعين ، قولهم ((في أوائل مخصوصة)) (الإتقان ١:٢٧) .

أول ما نزل في **القتال** . روى الحاكم في (المستدرك) عن ابن عباس قال : أول آية نزلت في القتال ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)) - وهي في سورة (الحج) ، فجعلتهم يختلفون هل السورة مكية أم مدنية لذكر القتال والحج فيها ؛ وهي متبعّضة ، بعضها مكي وبعضها مدني كما هو ظاهر . وجمعها اصطناعي من عمل الجامعين .

ثم اختلفوا في أول ما نزل في القتال بالمدينة . أخرج ابن جرير - الطبري - عن أبي العالية قال : أول آية نزلت في القتال بالمدينة ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)). وفي (الاكليل) للحاكم : إن أول ما نزل في القتال ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم)) . فتأمل : إن الأولى هي الآية (١٩٠) من البقرة ، وفي (أسباب النّزول) للسيوطي، كما أخرج الواحدي عن ابن عباس ، والطبري عن قتادة إنها نزلت في صلح الحديبية : فكيف تكون أول آية في القتال بالمدينة ؟ وكيف يضعونها في سورة (البقرة) ؟ والآية الثانية ((إن الله اشترى ...)) هي الآية (١١١) من سورة التوبة ، فكيف تكون أول آية في القتال ، وكيف يضعونها في آخر سورة ؟

ففي (أسباب النّزول) دلائل يؤيدها واقع القرآن على أن الآيات في السور جُمعت باجتهاد الجامعين .

وفي اختلافهم على أول آية نزلت من سورة (براءَة) برهان كاشف على أن سورة براءَة ، مثل غيرها ، كان جمعها باجتهاد الجامعين : عن مجاهد أول ما أنزل الله من سورة براءَة قوله ((لقد نصركم الله في مواطن كثيرة)) (٢٥) ؛ وعن أبي الضحى قال : أول ما نزل من براءَة ((انفروا خفافاً وثقالاً))ثم نزل أولها (في فتح مكّة) ثم نزل آخرها (في غزوة تبوك). وأخرج ابن أشته في كتاب (المصاحف) عن أبي مالك قال : كان أول براءَة ((انفروا خفافاً وثقالاً)) **سنوات** ، ثم أُنزلت براءَة أول السورة فألفت فيها **أربعون آية** . وأخرج أيضاً من طريق داود عن عامر في قوله ((انفروا خفافاً وثقالاً قال : وهي أول آية نزلت في (براءَة) في غزوة تبوك ؛ فلما رجع من تبوك نزلت (براءَة) إلاّ **ثمانياً وثلاثين** آية من أولها)) . فيستثني آية البراءَة (١) وآية الأذان يوم الحج الأكبر (٣) . وهذا شاهد ماثل للعيان على أن ترتيب

الآيات في سورة براءَة **ليس على ترتيب النزول** ، وبين أقسامها «سنوات» : فالنتيجة الحاسمة على أن ترتيب الآيات فيها ، وتصديرها بآية براءَة أو قطع الآية بآية الأذان (٣) ، ليس من ترتيب الرسول بل باجتهاد الجامعين .

وإذا كان هذا الأمر الواضح في آخر السور نزولاً ، فكم بالحري في ما سبقها ؟

٧) ويشهد أيضاً على اجتهادهم في **جمع الآيات في السورة ، وفي ترتيب الآيات في السورة** ، ما رووه « في معرفة آخر ما نزل » (الإتقان ١:٢٧) ، مثل آية الربا «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا» (البقرة ٢٧٨) . فقد أخرج البخاري عن ابن عباس قال : **آخر آية** نزلت آية الربا . وروى البيهقي عن عمر مثله . وعند أحمد وابن ماجه عن عمر : **من آخر** ما نزل آية الربا . وعند ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا عمر فقال : «إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا» ـ فكيف جعلوها في سورة البقرة ؟ لقد نزل أولاً تحريم الربا الذي جعل المرابين من «أصحاب النار هم فيها خالدون» (البقرة ٢٧٥) . ثم استثنى من أصحاب النار المرابين الذين آمنوا وعملوا الصالحات (البقرة ٢٧٧) . فالحقوا بهما آخر آية نزلت ! وهذا دليل اجتهادهم في جمعه .

وهناك اجماع أشمل على أن آخر آية نزلت هي « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله » (البقرة ٢٨١) ، «وكان بين نزولها وبين موت النبي ﷺ أحد وثمانون يوماً» أو «وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات ليلة الاثنين ، لليلتين خلتا من ربيع الأول » . ويقولون : كأنه نعيت اليه نفسه . ونقول : إذا كانت آخر آية نزلت فما داعي الإِعجاز لوضعها في أول سورة نزلت بالمدينة ؟ وما داعي الإِعجاز لوضعها بين آية الربا (٢٧٨) وبين آية الكاتب بالعدل (٢٨٢) ؟ هذا الواقع القرآني المشهود شاهد عدل على أن تأليف الآيات في السورة كان باجتهاد الجامعين .

وهناك أيضاً روايات أخرى عن آيات أخرى كانت آخر ما نزل ، وهي منثورة في السور ، ممّا يشهد شهادة قاطعة بأن تأليفها في سورها من جمع الجامعين .

وهكذا فالواقع التاريخي ، والواقع القرآني ، يشهدان جميعاً بأن ترتيب الآيات في السور لم يكن **كله** من توقيف النبي عليه ، بل كان أيضاً باجتهاد الجامعين . وبما أن ترتيب الآيات في السورة ناحية من إِعجازها البياني في التأليف ، فهذا التأليف والجمع الذي تمّ باجتهاد الجامعين ، فيه شبهة قائمة على الإِعجاز في التأليف .

بحث ثالث

ترتيب السور في المصحف العثماني

أوّلاً : الإجماع بأنه من الصحابة

جاء في (الإتقان ١:٦٣) : ((وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي ؛ أو هو باجتهاد من الصحابة ؟ ـ فيه خلاف ! **فجمهور العلماء على الثاني** .

((**ولذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور** : فمنهم من رتبها على النزول ؛ وهو مصحف علي ... وكان أول مصحف ابن مسعود : البقرة ثم النساء ثم آل عمران ، على اختلاف شديد ؛ وكذا مصحف أُبي وغيره)).

ومَن قال منهم بأن ترتيب السور توقيفي عن النبي قال : ((**فمن قدَّم سورة أو أخّرها فقد أفسد نظم القرآن**)).

والبرهان المزدوج الذي أعطاه السيوطي هو القول الحق في أن ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة : فجمهور العلماء عليه ، واختلاف مصاحف السلف قبل الجمع العثماني شاهد عليه .

وكان اختيار الصحابة لترتيب السور على **مبدإ التنسيق** في الطول : الطوال ، فالمئين (لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها) ، فالمثاني (ما ولى المئين لأنها ثَنَتْها) ، فالمفصَّل (سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة) . ((للمفصل طوال وأوساط وقصار. قال ابن معن : فطواله الى (عم) ؛ وأوساطه منها الى (الضحى) ؛ ومنها الى آخر القرآن قصاره)).

وربما اختاروا في ترتيب السور مبدأ التنسيق في الطول لأن السبع الطوال فيها التشريع والجهاد وجدال أهل الكتاب أي جوهر القرآن ومحوره ؛ وربما لتحدّي العرب في المعلّقات السبع بالسور السبع .

ثانياً : شهادة التاريخ والواقع القرآني

وهكذا فاعتبار تنسيق القرآن الحالي ، حيث ترتيب التلاوة على غير ترتيب النزول ، توقيفاً على النبي وبأمره ، ينقضه التاريخ والواقع القرآني .

فالتاريخ يشهد بأن القرآن لم يكن مجموعاً ولا مكتوباً كله على عهد النبي ، كما في حديث زيد : ((قُبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمع في شيء)) . ولو جرت محاولة من النبي في آخر أمره ، كما يشهد زيد أيضاً ، على شرط الشيخين : ((كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)). فلو كان مجموعاً ، لما احتاجوا الى جمع من بعده ؛ ولا تفرّق الى سبعة أحرف ؛ ولا اختلفت مصاحف الصحابة في ترتيبه ؛ ولا قال زيد قوله المشهور : ((فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان عليَّ أثقل ممّا أمراني به من جمع القرآن)) .

والسبب الذي يعطيه الخطابي مذهل : ((إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف ، لما كان يترقبه من ورود **ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته** . فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك)) .[1] فلم يدوّن القرآن على حياة النبي لأنه كان يترقب رفع تلاوة بعضه، ونسخ أحكام بعضه .

والواقع القرآني يشهد بأن أكثر سوره جمع متفرّقات موضوعاً وزمناً . فالسور **المتبعّضة** ، التي بعضها مكي وبعضها مدني ، لا يعقل أن يكون جمعها على هذه الحال بتوقيف عن النبي . وسور العهد المكي الثالث ، التي يختلف العلماء على ترتيبها بحسب النزول في العهد المكي الأول أم العهد المكي الثالث ، إنما هي تجمع قسمين من العهدين ، يدل عليهما اختلاف الأسلوب ما بين العهد الأول والعهد الثالث ، وأحيانا اختلاف الموضوع . والسور التي يختلفون فيها ، أهي مكية أم مدنية (الإتقان ١٢:١ ـ ١٤) شاهد آخر على أن جمع السور في القرآن كان باجتهاد الصحابة . والسور المكية التي فيها آيات مدنية (الإتقان ١٥:١ ـ ١٧) **شاهد خاص** على أن جمع الآيات في السور ، وجمع السور في القرآن كانا كلاهما بتوفيق الصحابة .

---

(١) **الإتقان** ٥٨:١.

ثالثاً : النتائج الحاسمة لهذا الواقع القرآني في المصحف العثماني

١ ـ إن ترتيب القرآن على مبدإِ التنسيق في الطول أضاع علينا الترتيب التاريخي بحسب النزول . وهم ربما عمدوا الى التنسيق بدل التاريخ لاستحالة جمعه بحسب نزوله . قال محمد بن سرين لعكرمة : «**ألّفوه كما أنزل الأول فالأول** . قال : لو اجتمعت الانس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا » [1] ومما لا ريب فيه أن الإِعجاز الحق في تأليف القرآن أن يكون بحسب تاريخ نزوله . فلمّا ضاع علينا هذا الترتيب الزمني ، ضاعت ناحية من الإِعجاز في تأليف القرآن .

٢ ـ إن ترتيب القرآن الحالي ، على التنسيق بحسب الطول ، مزج سور القرآن مزجاً، فخلط بين أزمانها ومواضيعها . والمبدأ المتواتر عندهم أنه «**مَن قدّم سورة أو أخّرها فقد أفسد نظم القرآن** ». فكما يصح أن يقوله أهل التنسيق ، يصح أيضاً أن يقوله أهل الترتيب التاريخي . وبما أن الترتيب التنسيقي موضوع نظر ؛ وبما أن الترتيب التاريخي مستحيل ؛ فعلى كلا الحالين **ضاع الإِعجاز الحق في تأليف القرآن «كما أنزل ، الأول فالأول»** .

٣ ـ وأخيراً بما أن ترتيب السور في القرآن توفيقي من الصحابة ـ والترتيب المنزل في سوره ناحية من إِعجازه ـ فهل من إِعجاز في التأليف ، في ترتيب المصحف الأميري الشريف ؟

بحث رابع

في مناسبة الآيات والسور (الإتقان ٢ : ١٠٨)

أوّلاً : «علم المناسبة»

من الإِعجاز في التأليف المناسبة ما بين الآيات في السورة , والمناسبة ما بين السور بعضها مع بعض . وقد قام في التفسير «علم المناسبة» الذي عمل به فخر الدين في تفسيره الكبير حيث يقول : «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط» . وأول من أظهر

---

(١) **الإتقان** ١:٥٩.

علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري الذي كان يسأل في تدريسه : ((لِمَ جُعلت هذه الآية الى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة ؟)) .

ويفسر السيوطي أركان علم المناسبة فيقول : ((المناسبة ، في اللغة ، المشاكلة والمقاربة . ومرجعها في الآيات ونحوها الى **معنى رابط بينها** عام أو خاص ، عقلي أو حسّي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبَّب ، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه ـ **وفائدته** جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ، ويصير حاله حال البناء المتلائم الأجزاء .

((فنقولُ ذكرُ الآية بعد الأخرى إما أن يكون **ظاهر الارتباط** لتعلّق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى ، فواضح ؛ كذلك اذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ـ وهذا القسم لا كلام فيه .

((وإمّا أن **لا يظهر الارتباط** ، بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به . فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم ـ أوْ لا . فإن كانت **معطوفة** فلا بدّ أن يكون بينها جهة جامعة ... وإن لم **تكون معطوفة** فلا بدّ من **دعامة** تؤذن باتصال الكلام : وهي **قرائن معنوية** تؤذن بالرَبْط)).

من هذه القرائن المعنوية أولاً **التنظير** فإن الحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء . الثاني **المضادّة** ، كما قيل : وبضدّها تتبيّن الأشياء . الثالث **الاستطراد** ؛ ويقرب منه **حسن التخلص** حتى لا يكادان يفترقان ... وقال بعضهم الفرق بين التخلص والاستطراد أنك في **التخلّص تركت ما كنت فيه الكلّية** وأقبلت على ما تخلصت اليه ؛ وفي **الاستطراد تقصده وانما عرض عروضا** ثم ترجع الى ما كنت فيه . ويقرب من حسن التخلص **الانتقال** من حديث الى آخر تنشيطاً للسامع مفصولاً بهذا ؛ قال ابن الأثير فيه : ((هذا (الانتقال) في هذا المقام من الفصل الذي هو أحسن من الوصل)) . ويقرب منه أيضاً **حسن المطلب** ، وهو الخروج الى الغرض بعد تقدم الوسيلة من المقدّمات ومراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين أجزاء القرآن .

ثانياً : علم المناسبة ينقضه تاريخ التنزيل وتاريخ الجمع

ذلك هو علم المناسبة وأحكامه في عرفهم . لكن فاتهم في نظم القرآن أمران يجعلان المناسبات بين الآيات صنعةً وتصنّعًا .

الأمر الأول **طريقة النظم عند العرب** ، وهي تختلف عن العجم ـ وأهل علم المناسبة من الأعاجم الذين يريدون تطبيق أسلوبهم على أسلوب القرآن ـ قال أحدهم : ((إن القرآن ، إنما ورد على **الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال الى غير ملائم**)) . فهو يجمع الموضوعات الشتى جمعا فنّيا لا موضوعيا ، كما في الشعر الجاهلي .

الأمر الثاني **طريقة نظم القرآن** . نقل السيوطي (الإتقان ١٠٨:٢) مقالة الشيخ عز الدين بن عبد السلام : ((المناسبة علم حسن . لكن يُشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في **أمر متحد مرتبط أوله بآخره** . فإن وقع على **أسباب مختلفة** لم يقع فيه ارتباط . ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلاّ بربط ركيك يُصان عن مثله حسن الحديث ، فضلاً عن أحسنه . فإن القرآن نزل في نيّف وعشرين سنة **في أحكام مختلفة ، شُرعت لأسباب مختلفة** . وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض)) .

وبما أن ترتيب التلاوة على غير ترتيب النزول ، فإن استنباط مناسبات لربط سورة بسورة ، كما هي في المصحف العثماني ، من التصنّع الذي يأباه منطق التاريخ والبيان .

وبما أن السورة ، كالقرآن كله ، نزلت نجوماً أي مفرّقة ((في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة))، فمن التصنّع والتكلّف ربط أجزائها بعضها ببعض . فالاجماع المتواتر أن الآيات نزلت آية بآية ، أو اثنتين اثنتين ، أو أكثر حتى الخمس أو العشر ، وقد لا يتجاوزها . وعن ابن عباس القول المشهور : ((**نزل بجواب كلام العباد وأعمالهم**)) ؛ وفسره بقوله : ((ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ؛ وقرآنا فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ، ونزّلناه تنزيلاً)) . قال السيوطي (الإتقان ٤٤:١) : ((الذي استُقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها **أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة** خمس آيات وعشر آيات ، وأكثر وأقل . وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملةً ، وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة)). وأن (**أسباب النّزول**) المختلفة تشهد باختلاف مناسبات الآيات في السورة .

والسورة المجموعة من آيات نزلت متفرقة بحسب الحاجة ، بجواب كلام العباد وأعمالهم ، **لا تشكّل وحدة موضوعية** ، وإن جمعت بينها وحدة فنّية بالنظم والفاصلة .

فالوحدة الموضوعية مفقودة في السورة القرآنية ، كما في معلقات الشعر الجاهلي . والوحدة الموضوعية المفقودة هي أم الإِعجاز في التأليف .

بحث خامس

من الإقحامات النافرة في الآيات والكلمات

نجد في بعض الآيات أجزاء منها ليست منها في شيء ، وهي تتنافر معها موضوعاً ومناسبةً ، ولا تدري ما الحكمة في اقحامها في غير موضعها .

١ ـ من ذلك قوله : ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾، في قصة إبراهيم واسماعيل والبيت العتيق : ﴿واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ـ واتخذوا من مقالم إبراهيم مصلّى ـ وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُكَّع والسجود﴾ (البقرة ١٢٥) ومن المعروف في (أسباب النّزول) أنها نزلت كما قال بها عمر بن الخطاب : فما دخلُها في قصة أمر الله لإبراهيم ببناء الكعبة ؟

٢ ـ ومن ذلك قوله : ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ في صفات المؤمنين : ﴿وما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أو الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ـ وأمرهم شورى بينهم ـ وممّا رزقناهم ينفقون﴾ (الشورى ٣٦ ـ ٣٨) . فما معنى اقحام نظام الشورى في الحكم الإسلامي بصفات المؤمنين التي يقوم عليها المصير ما بين الجنة والنار ؟ فهل نظام الشورى من ضرورة صفات المؤمنين ؟ والمسلمون الذي عاشوا بدون نظام الشورى في الحكم ، فهل يكفَّرون باسم الشورى ، وهل سقطت عنهم صفة من صفات المسلمين الضرورية لصحة الإيمان والإسلام ؟ إن مقالة الشورى دخيلة من وحي آخر على الآية وتتنافر معها موضوعاً ومعنى.

٣ ـ ومن ذلك قوله : «اليوم أكملت لكم دينكم» وهو من حجة الوداع عام ٦٣١ م ، في آية تشريع الحرام في الأنعام وهو من حجة القضاء عام ٦٢٩ م : «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ لغير الله به ... وما ذُبح على النُصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلك فسق ـ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ! اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ـ فمن اضطر في مَخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم» (المائدة ٣) . فالإقحام النافر ظاهر لا يحتاج الى بيان . وهذا الاقحام أفسد المعنى مرتين : أولاً لأنه يُشتبه بأن كمال الدين والإسلام في هذه التحريمات . ثانياً لأنه يُشتبه بأن من اضطر الى المروق من الإسلام ، فإن الله غفور رحيم .

٤ ـ ومن ذلك اقحامهم «**الأذان**» في البراءَة من المشركين ، «**إلاَّ الذين عاهدتم من المشركين**» (براءَة ٣ ـ ٤) ، في «براءَة من الله ورسوله **إلى الذين عاهدتم من المشركين** : فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أَنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين (١ ـ ٢) فإذا انسلخ **الأشهر الحرم** فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» (٥) . إن الأذان بمنى يوم الحج الأكبر يستثني من البراءَة المعاهدين من المشركين ؛ أمّا البراءَة الكبرى من المشركين فهي مطلقة ، وتنص على البراءَة «إلى الذين عاهدتم من المشركين» . فاقحام الأذان في البراءَة يفسد التأليف موضوعاً وتشريعاً .

٥ ـ وهناك **اقحام كلمة «النصارى»** على اليهود في آيات إقحاماً تنقضه القرائن القريبة والبعيدة . منها **آية تحريم الموالاة** : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ! بعضهم أولياء بعض» (المائدة ٥١) . وفي السورة عينها يجمع اليهود والمشركين في **أشد العداوة** للمسلمين ، ويجمع النصارى والمسلمين على أقرب مودة (المائدة ٨٢) . فالتناقض بين الآيتين مكشوف ، لأنهم استبدلوا في الآية (٥١) كلمة المشركين بكلمة «النصارى». والقرآن والسيرة وتاريخ الجزيرة تشهد بأن اليهود والنصارى لم يكونوا على الإطلاق «بعضهم أولياء بعض» ، فالاقحام والاستبدال ظاهر مفضوح .

وفي رده على محاولة اليهود من أهل الكتاب ردّ المسلمين عن إيمانهم (البقرة ١٠٩ ـ ١١٣) بادعائهم ، «وقالوا : لن يدخل الجنة إلاّ مَن كانوا هودًا ـ أو **نصارى** ـ تلك

أمانيهم ! قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)) (البقرة ١١١) ، فقد أقحموا ((أو نصارى)) ، والاقحام ظاهر : فإن الخطاب لليهود وحدهم (١٠٩ ـ ١١٣) ؛ واليهود وحدهم يتآمرون في المدينة على الإسلام ؛ ويستحيل أن يقول اليهود : لن يدخل الجنة إلاّ مَن كانوا نصارى ! ويرد القرآن عليهم : ((بلى مَن أسلم وجهه لله ، **وهو محسن** ، أفله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) (البقرة ١١٢) . فهو يقسم أهل الكتاب الى محسنين وظالمين ؛ فالظالمون هم اليهود الذين يصح جدالهم بالسيف ، أما النصارى المحسنون فلا يصح جدالهم إلاّ بالحسنى (العنكبوت ٤٦) . فالنصارى هم المقصودون باصطلاحه : ((مَن أسلم وجهه لله وهو محسن)). فهذه الآية (البقرة ١١٢) تنقض أيضاً اقحام ((أو نصارى)) في الآية السابقة (١١١) .

٧ ـ وفي جدال اليهود على الهدى ، أهو في اليهودية أم في ملـّة إبراهيم ، أقحموا ((أو نصارى)) في قولهم : ((وقالوا : كونوا هودًا ـ أو نصارى ـ تهتدوا ! قلْ : بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)) (البقرة ١٣٥) . فالجدال قائم مع اليهود وحدهم ، ولا خطاب فيه للنصارى ، فلِمَ اقحامهم ؟ ويستحيل أن يقول اليهود : كونوا نصارى تهتدوا ! إنما يشتقون الهدى من اسمهم ((وقالوا : **كونوا هودًا تهتدوا**)) فالجناس والمعنى برهانان على اقحام ((أو نصارى)) . وتأتي الآية التالية (١٣٦) بإعلان الإيمان ((بما أوتي موسى وعيسى)) ، وبالإسلام القائم عليه ((لا نفرق بين أحد منهم ونحن لهم مسلمون)) . فاليهود كانوا يفرّقون ، والنصارى يجمعون فهم من أهل الإيمان على ملّة إبراهيم . فالقرائن كلها شواهد على الاقحام المفضوح .

٨ ـ وفي الجدال ذاته مع اليهود ، يستشهدون ، ((أم تقولون : إن إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا ـ **أو نصارى** ـ قلْ : أأنتم أعلم أم الله ؟ ومَن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟)) (البقرة ١٤٠) . إن اليهود يدعون أن الآباء والأسباط كانوا هودًا فالهدى في اتباعهم على يهوديتهم . ولا اليهود يقولون بأنهم كانوا نصارى ؛ ولا النصارى يقولون بأنهم كانوا نصارى ؛ ولا القرآن يقول بأنهم كانوا نصارى . إنما هي دعوى اليهود وحدهم للشهادة على أن هداهم هو هدى اليهود ، لا هدى سواه . فيستشهد القرآن بالتوراة التي تذكرهم قبل الموسوية التي هي دين اليهود . فإقحام ((أو نصارى)) ظاهر مفضوح .

ففي سورة البقرة ليس من جدال بين القرآن والنصارى ، إنما الجدال المتواصل هو بين القرآن واليهود ، فإقحام النصارى في هذا الجدال دخيل عليه تنقضه كل قرائن السورة ، ونص الآيات التي ورد فيها .

وهكذا نجد في تأليف الآيات اقحام بعضٍ من أجزاء الآية ، أو كلمة ((النصارى)) في بعض الآيات ، ممّا يجعل نص الآية يتنافر معنى وموضوعاً ونظماً ، كما فسد الجناس في قولهم ((كونوا هودًا تهتدوا)) باقحام ((أو نصارى)).

فهل هذه الاقحامات من الإِعجاز في التأليف ؟

بحث سادس

ما بين الوحدة الموضوعية

والوحدة الفنية في السورة

ليس لدينا من آثار يمكن المقارنة معها سوى الشعر الجاهلي ، في أروع مظاهره ، المعلّقات : ((إن الأدب الجاهلي ـ وخاصة الشعر ـ هو المنظور إليه في معرض التحدّي ؛ **وهو الذي يقع الإِعجاز عليه** ، اذ كان هذا الأدب ، وهذا الشعر ، غاية ما يمكن أن يرقى اليه فن القول ، في مجال العمل الانساني ، في استصحاب الكلمة والتعامل)) [1] .

ويشهد الواقع أن القصيدة المعلّقة من الشعر الجاهلي وحدة فنية بنظمها وقافيتها ـ لا وحدة موضوعية : فهي مجموعة متفرّقات . وعلى طريقة نظمهم جاءَ نظم السورة في القرآن: فقد

---

(١) عبد الكريم الخطيب : **إعجاز القرآن** : ١:١١٨.

تجمعها وحدة فنية في النظم والفاصلة ، مثل سورة البقرة ؛ ولكن لا تجمعها الوحدة الموضوعية ، أو «الوحدة العضوية» كما يقول العقاد . فالسورة القرآنية ـ مع ما فيها من إعجاز في النظم والتأليف ـ هي **مجموعة متفرقات** ، يشوبها **التفكك في وحدة الموضوع** ، وهذه أم الإعجاز في التأليف . وقد يأتي الاختلاف في الفاصلة ، محط النظم وقاعدته ، فيظهر التفكك حينئذ نظماً وموضوعاً : فنفقد الوحدة الموضوعية والوحدة الفنية جميعاً .

أوّلاً : مثال من السور الأولى

خذ مثلاً السورة الأولى ، (العلق) ؛ فهي تذكر أولاً أمر الوحي للنبي بالقراءة والتعلّم بالقلم ، على فاصلة أو فاصلتين (١ ـ ٥) . ثم تذكر (٦ ـ ١٩) حادثة أخرى ، وقعت بعد زمن ، وفي غير موضع ، وفي غير موضوع ، وبغير فاصلة في النظم : نهي عمه أبي جهل له عن الصلاة . فمن السهل خلق القرائن المعنوية واللفظية لتعليل المناسبة في الجمع بين القسمين . ولكن هذه الوحدة لا تستقيم في سورة (العلق) ؛ لا زماناً ، ولا مكاناً ، ولا موضوعاً، ولا نظماً .

والسورة الثالثة (المزمّل) في قسمها الأول وحدة فنية ينقضها القسم الأخير (٢٠) . وفي الوحدة الفنية تختلف المواضيع : فهو يذكر دعوة محمد الى قيام الليل وترتيل القرآن (١ ـ ٩) ثم دعوته الى الصبر على ما يقولون ؛ ونعرف أن الدعوة كانت سرية بين أفراد قلائل لم تظهر بعد حتى يتصدّى لها المكذبون أولو النعمة (١٠ ـ ١٣) . فإن شفع النظم والروي للوحدة الفنية ، فلن يشفع للوحدة الموضوعية التي تختلف موضوعا وزماناً ومكاناً .

والسورة الرابعة (المدثر) ، مجموعة متفرقات يدل عليها تنوّع الموضوعات ، وتنوّع الفاصلة ، وخرق وحدة النظم في الآية الحادية والثلاثين التفسيرية الدخيلة على السورة من وحي آخر .

هذا مطلع التأليف في النظم القرآني ، والكتاب يُعرف من عنوانه .

ثانياً : مثال التأليف في سورة (البقرة)

ننتقل الى سورة (البقرة) ، وهي ((فسطاط القرآن))، و((سنام القرآن)) . و ((قال الإمام الرازي في سورة البقرة : مَن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي **بدائع ترتيبها** ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً **بسبب ترتيبه** ونظم آياته . ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب **أسلوبه أرادوا ذلك**))[1] .

ولبيان ذلك جعلوا من حسن المناسبة : الاستطراد ثم التخلص ثم الانتقال . وهذه الفنون التي استنبطوها للمناسبة البيانية إنما هي تقطع الموضوع ، وتجعل السورة **مجموعة متفرّقات ، تدل عليها أسباب النّزول** . فهي تجمع آخر ما نزل بالمدينة الى أول ما نزل فيها ؛ وتجمع أحكاماً مختلفة من أزمنة مختلفة بالمدينة ؛ ولو جمعت بينها الوحدة الفنية من نظم وفاصلة . فهو مثلا يقطع براهين التوحيد (٢٢ ـ ٢٩) ببيان على مواقفهم المختلفة من الدعوة (٢٣ ـ ٢٧) . وهو يقطع خطابات اليهود الثمانية (٤٠ ـ ١٦٨) بخطاب أول مقحم للمسلمين في تحذيرهم من مناورات اليهود (٧٥ ـ ٨١) وبخطاب ثان مقحم في تحذيرهم من دس اليهود والمنافقين على النسخ في القرآن (١٠٥ ـ ١١٠) ؛ ثم بمجموعة متفرقات (١١١ ـ ١٢١) من مناظرة النصارى في عام الوفود (١١١ ـ ١١٣) . وظلم الذين يصدون عن الحج، نزلت لمّا صدوا النبي عام الحديبية عن مكّة (١١٤ ـ ١١٥) مع ردّ على نسبة الولد الى الله (١١٧ ـ ١١٨) ، ويختم القسم الأول منها ، الدعوة للتوحيد ، بمجموعة متفرقات أخرى : في قتلى بدر (١٥٣ ـ ١٥٧) وفي السماح بالطواف بالصفا والمروة (١٥٨) .

والقسم الثاني من (البقرة) تشريع مجموع من أزمنة مختلفة (١٨٨ ـ ٢٤٢) : يقطعه بعد مطلعه بجملتين على اليهود (١٧٤ ـ ١٧٧) ؛ ويقحم فيه تشريع القتال ليوم الحديبية (١٩٠ ـ ١٩٥) ؛ ويجمعون فيه شرعة الحج الأولى من عام الحديبية (١٩٦) الى شرعة الحج النهائية من بعد فتح مكّة (١٩٧ ـ ٢٠٣) . ويقطع التشريع بقصة المنافق الأخنس بن شريف (٢٠٤ ـ ٢٠٦) وقصة صهيب المؤمن المضطهد المهاجر (٢٠٧) وقصة النفر السبعة من اليهود الذين تردّدوا في اسلامهم مع ابن سلام اليهودي (٢٠٨ ـ ٢١٣) . وتتبع مجموعة فتاوى مختلفة (٢١٥ ـ ٢٢٥) قبل تفصيل احكام الطلاق (٢٢٦ ـ ٢٤٢) .

---

(١) **الإتقان** ٢:١٠٨.

ويأتي القسم الثالث في التحريض على الجهاد (٢٤٣ ـ ٢٧٤) ، يقطعه بسورة مستقلة في توحيد الحي القيوم (٢٥٥ ـ ٢٦٠) . والحقوا بالسورة «**آخر ما نزل من القرآن**» : آية الربا (٢٧٥) مع ملاحقها ، ثم آية الدّيْن عند كاتب بالعدل (٢٨٢) ، وفصلوا بينهما بالآية التي فيها نُعيت نفس محمد اليه ومات بعدها (٢٨١) . فما وجه الإِعجاز في الجمع بين هذه الخواتيم الثلاث ؟

ويختمون السورة بآية المحاسبة على الوسوسة (٢٨٤) ثم بالآية الناسخة لها (٢٨٦) . فقد نفهم الجمع بين المنسوخ والناسخ ؛ لكن ما وجه الإِعجاز بختم التحريض على الجهاد بهذه الآيات ؟

ثالثاً : مثال التأليف في سورة (المائدة)

وسورة (المائدة) ـ وهي من أواخر القرآن نزولاً ـ مثال قائم على التفكّك في التأليف، مهما استنبطوا له من استطراد وتخلص وانتقال ، في فنون المناسبة ، للحفاظ على الوحدة الموضوعية في التأليف .

إن وحدة السورة القرآنية ، كوحدة القصيدة الجاهلية ، تقوم قبل الموضوع على وحدة النظم والروي . وهذا واقع قرآني متواتر . لذلك فاختلاف النظم **والروي** دليل على الجمع المتنافر نظماً ، علاوة على اختلاف الموضوع .

تستفتح السورة بآية العقود (١) وهي فاتحة فصل في الوفاء لعهد الحديبية (٧ ـ ١١). لكنهم أقحموا بين الفاتحة (١) والفصل (٧ ـ ١١) بمجموعة تشريعات من زمن عمرة القضاء سنة ٦٢٩ م (٢ ـ ١٠) . وفي آية تحليل الأنعام (١) ـ والمقصود الإبل خاصة ، وكان أهل الكتاب اليهود يحرمونها ـ إشارة الى ما حُرّم منها : «إلاّ ما يتلى عليكم» ؛ والاشارة الى الماضي ، بينما آية التحريم تأتي بعد (٣) . وفي آية التحريم هذه ، من زمن عمرة القضاء ، أقحموا «ما نزل يوم عرفة ، عام حجة الوداع» (الجلالان) ، وهي قوله : «اليوم يئس ... اليوم أكملت لكم دينكم» ، وهي عامة ، فجعلها الاقحام مخصوصة بآية التحريم (٣) كأن كمال الدين والإسلام فيها ! فأضر إقحامها بالنظم والشرع .

وأقحموا على السورة فصلاً في **جدال اليهود** ، من زمن آل عمران (المائدة ١٢ ـ ٨٦) . وفي هذا الاقحام العام **أقحموا شذرات من جدال وفد نجران** : نسي هؤلاء

النصارى حظا ممّا ذكروا به (١٤) ؛ تكفيرهم لقولهم بتأليه المسيح (١٧) ؛ تكفيرهم لتأليه المسيح والقول بالثلاثة (٧٢ ـ ٧٧) . وهذا الخلط بين جدال اليهود وجدال النصارى كان من **تأثير السياسة** ، في الفتوحات الإسلامية على جمع القرآن ، لجمع اليهود والمسيحيين في حملة اسلامية واحدة . فأوقعهم ذلك في تعارض مكشوف بين الآية (٨٢) التي تجعل «أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» ، وتجعل «**أقربهم مودة** للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى» ـ وبين الآية : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود **والنصارى** أولياء ، بعضهم أولياء بعض» (٥١) . والتاريخ والسيرة والقرآن شهود بأن اليهود والنصارى لم يكونوا «بعضهم أولياء بعض» . فما بين الآيتين تناقض مفضوح ، لأنهم أنزلوا «والنصارى» بدل «والمشركين» في الآية (٥١) كما تنص الآية (٨٢) .

وفي فصل التشريعات الأخيرة من بعد فتح مكّة (٨٧ ـ ١٠٨) أقحموا أيضاً شذرات من جدال وفد نجران المسيحي عام ٦٣١ م ؛ في تكفير الغلو بتأليه المسيح والقول بالثلاثة (٧٢ ـ ٧٧) . وكان أولى لهم جمع جدال وفد نجران في فصل واحد (١٣ و١٧ و٧٢ و٧٧ و١٠٩ و١٢٠) بدل اقحامه في جدال اليهود ـ وهو في غير موضعه ـ وفي قسم التشريع من بعد فتح مكّة . وكان أولى لهم لصحة التاريخ ولصحة التأليف وضع جدال اليهود في موضعه من آل عمران ، ووضع جدال وفد نجران (آل عمران ٣٣ ـ ٦٤) في موضعه من سورة المائدة ، بدل توزيعه على آل عمران والنساء والمائدة ضد الحقيقة وضد التاريخ ، مما يجعل تنافراً ظاهراً في وحدة السور .

فسور البقرة وآل عمران والمائدة هي أمهات القرآن ؛ وظاهرة التنافر في الجمع والتأليف بادية عليها موضوعاً وتاريخاً وأسلوباً . وذلك لأنهم جمعوا هذه السور على غير نزولها .

وهكذا نرى أن ما أسموه بالإعجاز في التأليف استطراداً وتخلّصاً وانتقالاً ، إنما هو تفكّك وتداخل وجمع متفرقات لا يجمع بينها الموضوع ولا الزمان ولا المكان ؛ وإن جمعت بينها وحدة فنية في النظم والفاصلة . وقد لحظ الأقدمون تلك الظاهرة في القرآن . فنقلها الخطابيّ في (بيان إعجاز القرآن) محأولاً الرد عليهم : «وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيّز وقبيل ، لكان أحسن نظماً

وأكثر فائدةً ونفعاً . فالجواب : إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة ، وفي الآي المجموعة القليلة العدد ، لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه ، ولو كان لكل باب منه قبيل ، **ولكل معنى سورة مفردة** ، لم تكثر فائدته ... ولكان الواحد من الكفّار والمعاندين المنكرين ، اذا سمع السورة منه ، **لا تقوم عليه الحجة به إلاّ في النوع الواحد** الذي تضمنته السورة الواحدة فقط . فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد)) . [1]

والرد على الخطابي بعد طول الزمن نأخذهُ منه : إن اقامة الحجة بإعجاز القرآن في نوع واحد يُغني بمعجزته عن سائر الأنواع ، من حيث البيان والتبيين . وكان غيره أصدق نظراً في وصف ذلك النظم المتفرّق بأنه طريقة العرب في تأليفها ، كما يظهر من الشعر الجاهلي في نظم القصيدة منه .

---

(١) **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** ص ٤٩.

خاتمة

الاختلاف الواقع في الجمع والنظم والموضوع

وهكذا قلّما تجتمع الوحدة الفنية بالنظم والفاصلة مع الوحدة الموضوعية وهذا قانون الإعجاز في التأليف . وكثيراً ما يكون الاختلاف في النظم والفاصلة دليلاً على الاختلاف في الموضوع . وإن قامت في السورة وحدة فنّية ، فلا تقوم فيها وحدة موضوعية ، بل تستر وحدة الظاهر مجموعة متفرقات في الباطن . وما حاولوا استنباطه من مناسبات بين الآيات في السورة ، وبين السور في القرآن ، تنقضها (أسباب النّزول) وواقع التنزيل ، « فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة ، في أحكام مختلفة ، شُرعت لأسباب مختلفة . وما كان كذلك لا يتأتّى ربط بعضه ببعض [1] في وحدة التأليف . والاختلاف قائم في جمع الآيات والسور ، والنظم والموضوع .

ففي هذا الواقع القرآني ـ تنزيلاً وجمعاً ـ هل من إِعجاز في التأليف ؟

---

(١) **الإتقان** ٢:١٠٨.

[Plank Page]

الفصل الخامس

المعجزة الظرفية

توطئة عامة

هل في ظروف الدعوة القرآنية من معجزة ؟

قد لا تكون المعجزة في الحدث النبوي نفسه ، بل في ظروفه ، من حيث البيئة أو الزمان أو لغة النبوّة ، أو حال النبي الداعية .

بيئة النبوّة التي لا شيء ينبئ عن منبتها قد تكون ظرفاً معجزاً . أمّا قيام نبوّة على دعوة قائمة سبقتها ورافقتها فكانت الدعوتان واحدة ، فهذا ليس من إِعجاز البيئة في شيء . والتحقيق بأن القرآن دعوة «نصرانية» يرفع عنها إِعجاز البيئة .

زمن ظهور النبوّة ، بلا أسباب لها ولا مقدمات ، قد يكون أيضاً ظرفاً معجزاً . أمّا متى كانت البيئة مهيّأة للدعوة ، فليس في زمن ظهور صاحبها من معجزة : إنما هو تسلسل التاريخ المحتوم .

قد تكون لغة أفضل من لغة من بعض نواحيها . أمّا أن تكون هناك لغة أدعى الى استخدام الله لها لوحيه وتنزيله ، فتاريخ الوحي والتنزيل بلغات مختلفة يكذّب هذه المقولة . إن الله يكلّم الإنسان بكل لسان ؛ وكل لسان يختاره الله يكون أهلاً لبيان وحيه وتنزيله .

وفي اختيار الله بشراً لرسالته يكون ذلك فضلاً منه على نبيه المصطفى ، لا معجزةً في اصطفائه . وتاريخ النبوّة عند بني إسرائيل يشهد بأن الله اختار الملك العليم الحكيم ، كما اختار ابن الشعب الأمّي .

فكلّ هذه الظروف مناسَبات لقيام النبوّة ، إذا أرادها الله تعالى رحمة بعباده .

فهل للقرآن من معجزة ظرْفية حقيقية ؟

الجزء الأول

الإعجاز القرآني من حيث البيئة

توطئة

الإعجاز من حيث الزمان والمكان معجزة

((الله أعلم حيث يجعل رسالته)) (الأنعام ١٢٤)

منذ أن قال الجاحظ ، الفارسي المستعرب ، بإعجاز القرآن في لفظه ونظمه ، أخذوا يستنبطون المناسبة في معجزة موسى وعيسى ومحمد . فوجدوا إشاعة السحر في زمن موسى، وإشاعة الطب ، أو الطب الروحاني ، في زمن عيسى ، وإشاعة سحر الكلمة في زمن محمد وبيئته . فكانت معجزات موسى ممّا يشبه السحر ويُعجزه ، ومعجزات عيسى مما يشبه الطب والابراء ويُعجزه ، ومعجزة محمد ممّا يشبه سحر الكلمة ويُعجزها .

وفي هذه المناسبة ((**زمان المعجزة ومكانها**)) كما يقول عبد الكريم الخطيب[1] : ((كان من تدبير الحكيم العليم وتقديره أن تقع معجزات الرسل موقعها المناسب ، كي تطلع الثمر المرجو

---

(١) **إعجاز القرآن** ١:٨٣ ـ ١١٨.

منها (ص ٨٣) . والذي كان يرصد مجرى الحياة العربية قُبيل البعثة النبوية ، كان يرى أن **أوضح ظاهرة في هذه الأمة** ، وأقوى قوة عاملة فيها هي **الكلمة** ... فما عرفت الحياة أمة من الأمم كانت الكلمة مالكة زمامها ، ومصرّفة أمرها ، ومنطلق حياتها ومسبح آلامها وآمالها ، كالأمة العربية منذ جاهليتها الى أن طلع عليها الإسلام ونزل عليها القرآن (ص ٨٧) . وهنا يأتي دور الكلمة فتؤدّي رسالتها العظيمة في هذا المجال . إذ لا يملك العربي إذ ذاك شيئا غيرها : فلا رسم ولا نحت ، ولا تصوير ، ولا تمثيل ، ممّا تسمح به الحياة المستقرة المطمئنة ، الأمر الذي لم يكن ليتاح لأهل البادية وسكان الصحراء ـ ليس غير الكلمة إذن ... ونستطيع أن نؤكد **أن العرب وحدَهم من بين سائر** الأمم هم الذين استطاعوا أن يصوغوا الحياة كلها في تلك الكلمات التي أصبحت لغة مكتملة البناء راسخة الأركان ، بما أبدعوا وولدوا من أمهاتها وأصولها . ونستطيع أن نؤكد أيضاً أن العرب قد استطاعوا أن **يحمّلوا لغتهم كل ما تحمل الفنون الجميلة كلها من ملهمات وأسرار** . فالموسيقى بألوانها وأنغامها ومقاماتها قد حواها الشعر العربي في تفاعيله وبحوره وقوافيه (ص ٩١) . **فإن كان ما في الحياة من معطيات الفنون والآداب قد ضمته العربية اليها** وجعلته بعضا منها ... **فالشعر الجاهلي** الذي أدرك الإسلام أو أدركه الإسلام **هو الصورة الكاملة للبيان العربي** ، وهو الشهادة القاطعة لما بلغته الكلمة في اللسان العربي من امتلاكها كل ما يمكن من قدرة على الإبانة عن أدق المشاعر الانسانية ، وأعمق الأحاسيس ، بما لا تقدر عليه وسائل الابانة من لغة ورسم ونحت وتصوير وتمثيل متفرقة أو مجتمعة (ص ٩٢) . ومن الواضح أن الشعر الجاهلي الذي حُفظ عن تلك الفترة اعتُبر **الصورة الكاملة للشعر الجاهلي**» (ص ٩٤) .

«**اللغة العربية ومكانتها بين اللغات** . ولعلك تذكر هنا بلاغة اليونان وحكمة فارس والهند ، في القديم ! كما تذكر أساليب البيان الأوربّي وما نبغ فيه من كتاب وشعراء في العصر الحديث . لعلك تذكر هذا فتعترض على ما قلناه في البيان العربي **وفي تفرّده بمنزلة لا يشاركه فيها غيره** . لعلك تذكر هذا ، وربما نذكره نحن أيضاً معك فإننا لا نبخس الناس حقهم حين نتمسك بحقنا وندافع عنه . ولكنا مع هذا لا نرى أن بلاغة اليونان وحكمة فارس والهند ، وبلاغة الأدب الأوربي الحديث ، **لا نرى شيئاً من هذا يعلو البيان العربي أو**

يساويه ! وإن وقفت منه بعض تلك الآداب موقفاً مدانياً مقارباً وشاهدنا على هذا قائم بين أيدينا على مرّ الايام والسنين : وهو القرآن الكريم)) (ص ١١٣) .

بعد تلك المقدمات يخلص الى القول : ((ونستطيع بعد هذا أن ننتهي الى مقرّرات . أولاً : أن القرآن الكريم معجزة في ذاته ، وأن معجزته محمولة في كلماته التي نزل بها . ثانياً: أن المعجزة القرآنية جاءَت في زمانها ومكانها ... ولعل في قوله تعالى : ((**الله اعلم حيث يجعل رسالته**)) ما يشير الى هذا المعنى . فان كلمة ((**حيث**)) يعبّر بها عن المكان . والمكان يحويه زمان. ويعيش فيه أشخاص . وبهذا يكون استعمال القرآن لهذه الكلمة ((حيث)) معجزة تنطلق منها اشارات مضيئة ، تشير الى الرسول ، والى المرسل إليهم ، والى زمن الرسالة ومكانها . فقد أصابت الرسالة مكانها في شخص الرسول ، وفي العرب المرسل اليهم، في زمان ومكان معلومين . ثالثاً : إن **الأدب الجاهلي** ، وخاصة الشعر - **هو المنظور اليه في معرض التحدي . وهو الذي وقع الإعجاز عليه** ، إذ كان هذا الأدب ، وهذا الشعر ، غاية ما يمكن أن يرقى اليه فنّ القول في مجال العمل الإنساني ، في استصحاب الكلمة والتعامل بها)) (ص ١١٧ - ١١٨) .

إنّ تعميمات الشيخ عبد الكريم الخطيب عن الآداب العالمية تجاه الأدب العربي ، وعن البيان العالمي تجاه الشعر الجاهلي ليس لها من أساس علميّ . ولسنا ندري هل يقرّه علماء الآداب واللغات العالمية على سيادة اللغة العربية عليها ، خصوصا في الأدب الجاهلي وبيانه . فهل يقاس بما أعطته جاهلية اليونان من آداب وفنون من الياذة هوميروس ، أو إنياذة فرجيل ، أو فردوس دانته ، أو أسطورة الدهور لفكتور هوجو ؟ ولا أظن أن الأدباء العرب يقرونه على تفضيل الشعر الجاهلي على الشعر العربي كله بدون استثناء . فالمقدمتان الكبرى والصغرى من قياسه ساقطتان .

والآن نبحث **وجه الحكمة** ١) في اختيار الجزيرة العربية ٢) واختيار لسان العرب ٣) وفي توقيت الرسالة المحمدية ، لنرى هل من معجزة في بيئتها : إذ ((الله أعلم **حيث يجعل رسالته**)) .

بحث أول

هل من معجزة في اختيار الجزيرة العربية للقرآن ؟

يصف القرآن عهد العرب قبله «بالجاهلية» (٣:١٥٤ ؛ ٥:٥٠ ؛ ٣٣:٣٣ ؛ ٤٨:٢٦) . وهو تعبير نصراني يطلقونه على البلاد والشعوب التي لم يصلها نور الكتاب والإنجيل كما قال بولس الرسول في ندوة أثينا : «لقد اغضى الله عن أزمنة الجاهلية ، وها هو الآن ينذر جميع الناس ، في كل مكان أن يتوبوا» (سفر الاعمال ١٧:٣٠) .

فجاهلية العرب لم تكن جهلاً بالثقافة والأدب ، بل جهلاً بالدين والتوحيد الخالص . وفي التوحيد كانت دعوة أهل الكتاب ، من يهودية ومسيحية ، قد عمت أطراف الجزيرة ، حتى تغلغلت الى الحجاز ، فحولته من الوثنية الى الشرك أي عبادة الله الواحد الأحد مع شريك من خلقه . وقد أمسى شركهم ظاهرياً بشهادة القرآن : «ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا الى الله زلفى» (الزمر ٣) . ونتيجة الدعوة الكتابية أن «عبادة أهل مكّة هي عبادة محمد ، وتوحيدهم توحيد اسلامي ، أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي» [١] . فليس في اختيار الجزيرة العربية للدعوة القرآنية من معجزة . يكفي شهادة على ذلك حديث ورقة بن نوفل ، قس مكّة ، واستاذ محمد مدة خمسة عشر عاما قبل مبعثه ؛ وكان يدعو في مكّة الى نصرانيته بترجمة الإنجيل من حرفه العبراني الى العربية ، بحضور محمد ، زوج خديجة ، ابنة عمه ، في بيتها . وما كانت الدعوة القرآنية إلا «تفصيل الكتاب» للعرب (يونس ٣٧) . غفلوا عن دراسته : «أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب على **طائفتين** من قبلنا ، وإن كنّا عن دراستهم لغافلين» (الأنعام ١٥٦) ؛ فدرسه محمد ليفصله لهم : «وكذلك نصرّف الآيات ! وليقولوا : درست ! ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون» (الأنعام ١٠٥) . فسكوته عن الرد على تهمة الدرس ، وعدوله الى بيان حكمته، دليل على صحة الدرس والتدريس . ولذلك تتواتر الشهادات القرآنية إن الدعوة القرآنية إنما كانت «ليعلمهم الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل (٢:١٥١ و١٢٩ ؛ ٣:١٦٤ ؛ ٦٢:٢) .

---

(١) الدكتور جواد علي : **تاريخ العرب قبل الإسلام** ٥:٤٢٤ و ٤٢٨.

فدين الكتاب ، دين إبراهيم وموسى وعيسى ، هو الدين الذي يشرعه القرآن للعرب : ((**شرع لكم من الدين** ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)) (الشورى ١٣) . ودين موسى وعيسى ديناً واحداً هو دين النصرانية الإسرائيلية التي تقيم التوراة والإنجيل معاً ، كما يدعو القرآن (المائدة ٦٨) ؛ وكما يردّد : ((لا نفرّق بين أحد من رسله ، ونحن له مسلمون)) (٢:١٣٦ و٢٨٥ ؛ ٣:٨٤ ؛ ٤:١٥٠) .

فالإسلام هو محور الدعوة القرآنية . وهذا الإسلام كان قائماً في الحجاز ، بمكّة والمدينة ، قبل القرآن ؛ وذلك بنص القرآن القاطع : ((هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا)) القرآن (الحج ٧٨) . فقد ((شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة **وأولو العلم قائماً بالقسط** ـ لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ـ أن الدين عند الله الإسلام)) (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . وفي اصطلاح القرآن ، أولو العلم هم أهل الكتاب ؛ والقائمون منهم بالقسط هم النصارى من دون اليهود الظالمين لكفرهم بالمسيح ثم لمحمد . ويسميهم أيضاً الراسخين في العلم ، ويميّزهم عن المؤمنين من العرب بمحمد ودعوته ، وعن اليهود بقوله : ((فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم ... لكن **الراسخون في العلم منهم ، والمؤمنون** ، يؤمنون بما أنزل إليك)) (النساء ١٠٦ ـ ١٦٢) ـ وهؤلاء النصارى الراسخون في العلم هم الذين يؤمنون بمتشابه القرآن مثل محكمه : ((والراسخون في العلم يقولون : آمنا به كلٌ من عند ربنا)) (آل عمران ٧) . فالدعوة للاسلام هي دعوة النصارى الراسخين في العلم المنزل القائمين بالقسط في الإيمان بالمسيح والإنجيل ، وبمحمد والقرآن لأن دعوته من دعوتهم . فكان الإسلام القرآني قائماً في مكّة والحجاز قبل الدعوة القرآنية . وما الدعوة القرآنية سوى انتصار له لظهوره على اليهودية هناك : ((يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري الى الله ، قال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة : **فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين**)) (الصف ١٤) . فانتصرت النصرانية الإسرائيلية على اليهودية بفضل الدعوة القرآنية . فما الإسلام في القرآن سوى النصرانية الإسرائيلية التي تشهد مع الله وملائكته ((أن الدين عند الله الإسلام)) . والقرآن يشهد بشهادتهم .

فليس من معجزة في اختيار الجزيرة العربية للدعوة القرآنية . بل هي امتداد للدعوة النصرانية الإسرائيلية القائمة في مكّة والحجاز ، وذلك بشهادة القرآن القاطعة .

بحث ثان

هل من معجزة في اختيار لسان العرب للقرآن ؟

تنزيل الله معجز بحد ذاته بأيّ لسان أُنزل . وقد نزل وحي الله باللسان العبري فالأرامي فاليوناني ، قبل أن يُفصّل في القرآن العربي . فمن حيث الأوّلية في التنزيل ليس من معجزة لاختيار لسان العرب للقرآن . وليس اختيار لسان العرب للقرآن لأنه أحق بالشفعة والامتياز للإعجاز اللغوي والبياني .

فالقرآن نفسه يشهد للكتاب بالإمامة في التنزيل ، ويشهد لنفسه بأنه تابع : ((أفمن كان على بيّنةٍ من ربه ـ ويتلوه شاهد منه ؛ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً ـ اولئك يؤمنون به ؛ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده : **فلا تكُ في مرية منه** ، إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) (هود ١٧) . إن القرآن يأمر محمداً بأن لا يشك من القرآن البالغ له لثلاثة أسباب : لأن مَن هم على بيّنة من ربهم في الوحي والتنزيل يؤمنون به ؛ ثم لأن ((من قبله كتاب موسى إماماً)) ، **فإمامة الكتاب للقرآن العربي برهان على صحته** ؛ ويتلو القرآن العربي على محمد شاهد من قِبَله تعالى ؛ وهو مثل قوله : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) (الأحقاف ١٠) فمثل القرآن العربي عند بني إسرائيل النصارى ـ نقول النصارى لأنه على خلاف دائم مع اليهود ، ولأن القرآن يقسم بني إسرائيل الى طائفتين (الأنعام ١٥٦) ، ((فآمنت طائفة (بالمسيح) وكفرت طائِفة)) (الصف ١٤) ـ ((ويتلوه شاهد منه)) .

ما على محمد أن يشك بلقائه بالكتاب في القرآن العربي ، لأن أئمته يهدون محمداً اليه بأمر الله : ((ولقد آتينا موسى الكتاب ، **فلا تكن في مرية من لقائه** ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا)) (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) . فما على محمد أن يشك

بلقاء الكتاب في القرآن لأن الله جعل من بني إسرائيل النصارى أئمة يهدون الى هدى الكتاب الذي معهم . فمحمد بالقرآن العربي يهتدي الى هدى الكتاب بواسطة أئمة بني إسرائيل النصارى . لذلك فهو يسمّي هؤلاء الأئمة «الراسخين في العلم» ، وهو يستشهد بإيمانهم «بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» (النساء ١٦٢) ، ويستشهد بإيمانهم بمتشابه القرآن كما بمحكمه: « والراسخون في العلم يقولون : آمنّا به كلٌ من عند ربنا» (آل عمران ٧) .

وهذا كله لأن القرآن العربي **ليس إلاّ تصديقاً للكتاب بلسان عربي** : «قل : أرأيتم إنْ كان من عند الله ، وكفرتم به ـ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ـ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ... ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، **وهذا كتاب مصدّق لساناً عربيّاً** ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين» (الأحقاف ١٠ ـ ١٢) . فالقرآن من عند الله لأن شاهداً من بني إسرائيل النصارى «شهد على مثله» ، ولأن «من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة» ، فإمامة الكتاب للقرآن ، بعد «المثل» النصراني هما البرهان على أن القرآن العربي من الله ، وصفته الكبرى إنه «كتاب مصدق لساناً عربياً» **فميزته الخاصة تصديق الكتاب بلسان عربي** ، ليس فيه سوى هذا . وهذا المعنى متواتر في القرآن . ففي هاتين الآيتين سر القرآن كله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله» (الأحقاف ١٠) ، «ويتلوه شاهد منه» (هود ١٧) . إن «مثل» القرآن عند النصارى من بني إسرائيل ، ويتلوه على محمد شاهد منهم بأمره تعالى . وبما أن ميزة القرآن العربي تصديق الكتاب ، عن طريق «المثل» ، بلسان عربي ، فليس من معجزة لاختيار لسان العرب للقرآن ، فهو ليس سوى مصدّق .

فتعريف القرآن العربي أنه «تصديق الذي بين يديه ، **وتفصيل الكتاب** لا ريب فيه من رب العالمين» (يونس ٣٧) . إنه «تفصيل الكتاب» أي تعريبه بلغة القرآن . **فالميزة باختيار اللسان ليست للمفصِّل ، بل للمفصَّل** ؛ وحسب النسخة المعرَّبة أن تكون مثل الإمام الأصْل ، طبق «المِثْل» الذي «يتلوه شاهد منه» ، «شاهد من بني إسرائيل على مثله» . وهذا المعنى متواتر أيضاً في القرآن : فهو «تفصيل الكتاب» (يونس ٣٧) ؛ «كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير» (هود ١) ؛ وتنزيل من الرحمان الرحيم «**كتاب فُصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**» (فصلت ٢ ـ ٣) . فالتنزيل هو أولاً في الكتاب الإمام ، وفي

«المثل» ، ثم تُرجمت آياته قرآناً عربياً ، بواسطة حكيم خبير . لذلك فهو يجزم : «**وإنه لتنزيل رب العالمين ... وإنه لفي زبر الأولين** : أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل» النصارى (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) . فالقرآن هو تنزيل رب العالمين لأنه في زبر الأولين ، أي «كتبهم كالتوراة والإنجيل» (الجلالان) . وآية محمد أن الراسخين في العلم يعلمون ذلك ، ويشهدون به ، ويؤمنون به . وهذه الشهادة تكفيه : «ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل : كفى بالله شهيداً ومن عنده علم الكتاب» (الرعد ٤٣) . فشهادة القرآن لنفسه أنه تنزيل رب العالمين لأنه في زبر الأولين ؛ وأنه «تفصيل الكتاب» ؛ وأنه تصديق الكتاب «**لساناً عربياً**» ؛ وأن إمامه الكتاب في الهدى والبيان ؛ وأن «مثل» القرآن عند بني إسرائيل النصارى يتلونه على النبي ويفصله له حكيم خبير ـ كلها ميزات يشهد بها القرآن ان الفضل للسان الإمام قبل أن يكون للسان المفصَّل قرآناً عربياً .

قد يقولون : إنَّ التحدي باللسان لم يقع في الكتاب الإمام ، بل بالقرآن العربي ، فالفضل للسان العربي على السنة العالمين . يُردّ عليه بأن التحدي بإعجاز القرآن لم يكن بلسانه بل بهداه : «قل فاتوا بكتاب من عند الله **هو اهدى منهما** أتّبعه ، إن كنتم صادقين» (القصص ٤٩) . والفضل في الهدى للكتاب المفصَّل ، لا للكتاب المفصِّل .وقد رأينا أن التحدّي بإعجاز القرآن كان بمكّة وحدها للمشركين ؛ فلمّا تحوّل الخطاب في القرآن المدني لأهل الكتاب سكت عنه بعد (البقرة ٢٣) ، ونسخه بالنسخ في أحكامه (البقرة ١٠٦) والمتشابه في أخباره وأوصافه (آل عمران ٧) وهو أكثر القرآن . فالواقع القرآني نفسه يشهد بأنه ليس من معجزة في اختيار اللسان العربي للقرآن ، فهو «تفصيل الكتاب» للعرب ، وتعليمهم «الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل .

بحث ثالث

هل من معجزة في توقيت الرسالة القرآنية ؟

فضل الرسالة القرآنية على العرب لا ينكره إلاّ أعمى لا يرى النور . فقد أنشأ منهم أمة عظيمة ، ودولة عظيمة ؛ وأتحفهم بالإسلام ديناً ؛ وأودعهم القرآن دستور الدين والدولة والأمة . لكن ليس في توقيت الرسالة القرآنية من معجزة فيهم .

فقد يظن بعضهم ويحلو لهم أن يقولوا بأن القرآن نقل العرب من «جاهليتهم» الى الإسلام ؛ ويفسّرون ذلك بأنه نقلهم من الوثنية والهمجية الى التوحيد والحضارة التي دوّخت العالم دهراً من الزمن . وفاتهم جميعاً ان كلمة «الجاهلية» اصطلاح قرآني موروث عن النصارى من أهل الكتاب . فقد كانوا يقسمون العالم ، مثل اليهود ، الى أهل الكتاب **والأميّين** الذين ليس لهم الكتاب المنزل كما في قوله : «وقلْ للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا» (آل عمران ٢٠) ؛ وكما في تسمية محمد «النبي الأمّي» (الأعراف ١٥٧ و ١٥٨) أي من الأميّين الذين ليس لهم كتاب منزل : «هو الذي بعث في الأميّين (العرب) رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، **ويعلمهم الكتاب والحكمة**» أي التوراة والإنجيل (الجمعة ٢) . وقد كان النصارى يسمون زمن الأمم قبل الإيمان بالكتاب والإنجيل «**جاهلية**» **الأمم** ، لا الجهل في المعرفة ، بل الجهل بالعلم المنزل ، ولذلك يسمون أنفسهم أهل الكتاب وأولي العلم ، كما وصفهم القرآن أيضاً . وفي تسمية القرآن ـ والنصارى ـ زمن العرب قبل الإيمان بالعلم المنزل «الجاهلية» لا يقصد الجهل بالمعرفة ، بل الجهل في الدين والإيمان والإسلام .

وكانت جاهلية العرب بالحجاز في نهضة عارمة قومية وثقافية وتجارية ، مهّدت السبل لقيام الدعوة القرآنية في ذروتها ، كما يشهد بذلك الواقع القرآني . فقد تميّزت مكّة ، بعد تضعضع اليمن بخراب سد مأرب واحتلال الحبشة مرتين لليمن ، وبالتجارة الدولية بين اليمن والشام وبين الشرق والغرب . وقد أشاد القرآن بفضل الله «**لإيلاف قريش** ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف» . وقد ازدهرت هذه التجارة الى دولة الفرس والى دولة الروم . بفضل الحياد الايجابي العربي بين الدولتين . ولمّا شعروا أن في الدعوة القرآنية ميلاً إلى أهل الكتاب فدولة الروم ، ردّوا على دعوة القرآن : «**إن نتّبع الهدى معك نُتَخطّف من أرضنا**» (القصص ٥٧) . فاستقلالهم السياسي يقتضي استقلالهم الديني عن أهل الثنوية: «لا تتّخذوا الهين اثنين» (النحل ٥١) ، وعن أهل التثليث : «ولا تقولوا : ثلاثة» (النساء ١٧١) . فصراع أهل مكّة مع محمد سياسي ديني ؛ لذلك يبين لهم القرآن أن التوحيد الإسلامي ينفي الثنوية وتبعيتها ، والتثليث وتبعيته. وهذه النهضة القومية والتجارية يرافقها نهضة ثقافية تمثلت في الشعر الجاهلي ، في القرنين الخامس والسادس م . كما قامت أسواق الأدب الى جانب أسواق التجارة، في مواسم الحج . وهذا هو المظهر الأكبر للنهضة

الجاهلية في مظاهرها الثلاثة القومي والتجاري والثقافي . ومواسم الحج دليل أيضاً على النهضة الدينية . ويفيض القرآن بوصف نعمة الله عليهم بالبلد الحرام ، والبيت الحرام ، وموسم الحج الذي يفيض عليهم بالخير بالبركات : ((وقالوا : إن نتّبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا ! ـ أولم نمكّن لهم حَرَمْا آمنّا ـ يُجبي اليه ثمرات كل شيء ، رزقا من لدنّا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون)) (القصص ٥٧) ؛ ((أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنا ، ويتخطّف الناس من حولهم)) (العنكبوت ٦٧) .

بتلك النهضات الأربع ، صارت مكّة ((أم القرى)) ، حول الحرم (القصص ٥٩) .

لكن تلك النهضة الدينية كانت **تدرجًا من الوثنية الى التوحيد الكتابي** . والبرهان الأثري الأكبر هو الشعر الجاهلي الخالي من الوثنية والشرك . والقرآن خير برهان على بلوغهم الى التوحيد: ((ولئن سألتهم : مَن خلق السماوات والأرض ، وسخّر الشمس والقمر ؟ ـ ليقولُنّ الله)) (العنكبوت ٦١ ؛ قابل ٣١:٢٥؛ ٣٩:٣٨؛ ٤٣:٩) ؛ ((فإذا ركبوا في الفلك **دعوا الله مخلصين له الدين** ، فلما نجّاهم الى البرّ ، إذا هم يشركون)) (العنكبوت ٦٥) . لقد بلغوا الى التوحيد ، لكنه لم يزل مشوبا بشرك . مع ذلك فهو شرك ظاهري أكثر ممّا هو حقيقي ، فهو من رواسب الماضي : ((ألا لله الدين الخالص ! والذين اتّخذوا من دونه أولياء ـ ما **نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى**)) (الزمر ٣) . فالقرآن يدعوهم الى الإخلاص في الدين والتوحيد ، كما يدعو محمد نفسه : ((إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق : فاعبد الله مخلصا له الدين)) (الزمر ٢) .

تلك هي حال أهل مكّة حين الدعوة القرآنية في نهضتهم الدينية والثقافية والسياسية والقومية : **فهل من معجزة في توقيت الدعوة القرآنية الى التوحيد الخالص ؟**

وهنا نتساءَل : **ما هو سر هذه النهضة الجاهلية الشاملة ؟** قد يفسرونها بسيطرة مكّة على طرق المواصلات والتجارة الدولية ، بعد ضعف اليمن وانشغاله بالحرب السجال بين الفرس والحبشة على احتلاله ، ومحاولة الحبشة من اليمن احتلال الحجاز ، في عام الفيل سنة ٦٧٠ ، سنة مولد محمد . لكن هذا السبب لا يفسّر كل مظاهر النهضة الجاهلية ، خصوصاً من الناحية الدينية . والقرآن في خطاب اليهود والنصارى يشهد بوجودهم النافذ في مكّة والمدينة والحجاز كله . **وفي تضامن القرآن والدعوة ((النصرانية))** ، حلُّ سرّ النهضة الجاهلية كلها بالحجاز .

لقد انقسم أتباع المسيح ، على زمن الرسل الحواريين ، الى شيعة وسُنّة . فالذين اهتدوا الى الإنجيل من الأمميّين سُمّوا ((**مسيحيّين**)) في العالم كله ؛ والذين اهتدوا الى الإنجيل من بني إسرائيل دُعوا ((**نصارى**)). ومؤتمر الرسل الحواريين عام ٤٩ م. حرَّر ((المسيحيّين)) من شريعة موسى والختان شعارها ، وترك النصارى من بني إسرائيل أحراراً لم يبتّ في أمرهم ، فكانوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً ، والعماد المسيحي والختان الموسوي معاً ؛ وقد أمّروا عليهم أساقفة آل بيت المسيح . **وهكذا تشيّعوا لآل البيت وللتوراة** . فكان النصارى من بني إسرائيل شيعة ؛ وكان المسيحيون من سائر الامم سُنّة لاتباعهم سُنّة الرسل الحواريين في مؤتمرهم . وهذا كله موجود في سفر ((اعمال الرسل)) من العهد الجديد .

ولمّا ثار اليهود على الرومان في الثورة الأولى عام ٧٠ م ، وفي الثورة الثانية عام ١٣٣ ، أجلى الرومان اليهود و((النصارى)) من اورشليم ، فتشتتوا في البلاد . **ووقع النصارى بين نارين** : نار بني قومهم اليهود ، ونار بني دينهم المسيحيين .

ولمّا اهتدت الدولة الرومانية الى المسيحية ، فكاد لها اليهود ، وكانوا الطابور الخامس للفرس عند العرب والروم ، أمر القيصر ثاوضوسيوس بإجلاء اليهود وشيعة النصارى عن دولة الروم ، **في منتصف القرن الخامس** . فهاجر اليهود الى فارس . **ولم يبق أمام النصارى من بني إسرائيل سوى الحجاز** ، لأن أطراف الجزيرة العربية كانت في غالبيتها على المسيحية . فهاجر النصارى من بني إسرائيل الى الحجاز . وفي خبر سلمان الفارسي بالسيرة الهاشمية دلائل على انسحاب آخر النصارى الى الحجاز . وفي حديث ورقة بن نوفل قسّ مكّة النصراني ، وخبر ترجمته الإنجيل من الحرف **العبراني** الى العربية ـ وهو الإنجيل الوحيد الذي كانوا يعترفون به ، أي الإنجيل بحسب متى في حرفه العبراني ، ولغته الأرامية كما دوّن في الأصل ، قبل ترجمته الى اليونانية ـ الخبر اليقين على إقامة النصارى وتنظيمهم بمكّة جماعة دينية مستقلة ، تدعو أهلها الى ((النصرانية)) . وزعامة ورقة بن نوفل للجماعة النصرانية ، وترجمة الإنجيل للعربية ، البرهان على تغلغل ((النصرانية)) ، في قريش ، وعلى سيطرتها بمكّة . فقد كانت السيدة خديجة ، ابنة عم ورقة ، سيدة تجار قريش ، وكانت تجارتها تعدل تجارة قريش . **ففي يد آل نوفل ((النصارى)) الزعامة الدينية والتجارية بمكّة** حين البعثة المحمدية .

ففي مدة قرن ونصف توصّل النصارى من بني إسرائيل الى السيطرة الدينية والتجارية والثقافية على مكّة . وفي انخراط محمد في تجارة خديجة ، بأمر عمه ، ثم في تثقّفه بالتوحيد

الكتابي و«النصراني» بجوار ابن عمها ورقة قس مكّة ، بعد زواجه منها ، مدة خمس عشرة سنة قبل مبعثه ، دلائل على ذلك .

ومن الدلائل على ذلك أيضاً «بناء الكعبة على **الطراز الحبشي** ، في سنة ٦٠٨ ميلادية ، **ووجود الصور المسيحية** التي كانت تحلّي باطنها ، وقيام **معمار حبشي ببنائها**»[١] . وبحسب السيرة النبوية كان من روم الشام ، وقد أمروه : «ابنها لنا ببناء أهل الشام» أي على شكل كنيسة ـ وقد كانت الكعبة على عهد محمد ودعوته كنيسة مسيحية ، للنصارى من بني إسرائيل فيها الحجر الأسود رمز المسيح الى جوار صورة مريم العذراء تحتضن السيد المسيح[٢] على عادة المسيحيين الشرقيين في كنائسهم . واشتراك المسيحيين والنصارى من بني إسرائيل في مقام الكعبة دليل على سيطرة الفريقين في مكّة وعلى الصراع الخفي بينهما ، وهو من أسباب مقاومة قريش للدعوة الإسلامية «النصرانية» .

فهجرة النصارى من بني إسرائيل الى مكّة والحجاز كانت سبب النهضة الجاهلية الشاملة ، وسبب تخلّص أهل مكّة من الوثنية وتحولهم الى التوحيد . فقد أطلق هؤلاء النصارى على دعوتهم أولاً اسم «**الحنيفية**» أي الميل عن الوثنية لإيلاف قريش والعرب . وهذا سبب الترادف الذي نراه في المصادر في صفة ورقة بن نوفل تارة بالحنيف وتارة بالنصراني . وقبيل الدعوة القرآنية ، ربما على زمن ورقة بن نوفل ، **وصفوا «نصرانيتهم» بالإسلام** ، وسموا أنفسهم «**المسلمين**» ، كما يتّضح من القرآن نفسه الذي يشهد مع الله وملائكته وأولي العلم قائماً بالقسط ، أي الراسخين في العلم ، ـ وهم النصارى من بني إسرائيل ، بحسب القرائن القرآنية كلها ـ «أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٧ ـ ١٨) ولذلك خالفه اليهود من أهل الكتاب «من بعد ما جاءَهم العلم بغياً بينهم» (آل عمران ١٨) ، ولذلك أيضاً كانوا «يقتلون الذين يأمرون بالقسط» كما كانوا يقتلون النبيّين من قبلهم (آل عمران ٢٢) . فالقرآن يشهد للاسلام بشهادة النصارى من بني إسرائيل ، بعد أن جاءَه الأمر بالانضمام اليهم وقراءَة قرآن الكتاب معهم : «وأمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (النمل ٩٠ ـ ٩١) . فالمسلمون موجودون بمكّة قبل محمد وهو يُؤمر بالانضمام اليهم ، ليشهد معهم «أن الدين عند الله الإسلام» .

---

(١) العقاد : **العبقريات الإسلامية** . دار الآداب في بيروت . مطلع النور ص ٥٠ ، وهو ينقله عن المجلة التاريخية المصرية ، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩ التي تنقل كلام المؤرخ كرزويل .

(٢) قابل الأزرقي : **أخبار مكّة**

فالإسلام كان قائما بمكّة قبل محمد ، وقد أُمر محمد برؤيا غار حرّاء بالهداية النهائية اليه والدعوة لـه (الشورى ٥٢ مع ١٥) . وجاءَت الدعوة القرآنية نصرة «للنصرانية» على اليهودية في الحجاز ، بنص القرآن القاطع : «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : مَن أنصاري الى الله ؟ وقال الحواريون : نحن أنصار الله . فآمنت طائفة من بني إسرائيل (النصارى) وكفرت طائفة (اليهود) : **فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين**» (الصف ١٤) . لقد ظهرت النصرانية على اليهودية في الحجاز بفضل الدعوة القرآنية . فما إسلام القرآن سوى إسلام هؤلاء «النصارى» .

هذا هو الواقع التاريخي والقرآني . فهل من معجزة في توقيت زمن الدعوة القرآنية ؟ والرسالة المحمدية ؟ إن القرآن دعوة «نصرانية» .

بحث رابع

اصطفاء محمّد للدعوة القرآنية فضل من الله

أم معجزة شخصية ؟

أجل إنه لفضل عظيم من الله تعالى على محمد باصطفائه للدعوة القرآنية بالإسلام . ولهذا الاصطفاء الفضل الكبير بنجاح الدعوة وسيطرتها على العرب . فقد عجزت اليهودية ثم المسيحية ثم النصرانية الإسرائيلية عن السيطرة التامة على الحجاز ، عرين العرب . ولكن ، بعد اصطفاء الله محمداً ، فطرتُه ونشأته وزواجه من السيدة خديجة ، وتلمذته على علاّمة مكّة ورقة بن نوفل مدة خمس عشرة سنة ، جعلت محمداً أهلاً وقابلاً لاصطفاء الله لـه ، «والله أعلم حيث يجعل رسالته» (الأنعام ١٢٤) . فقلّما عرفت البشرية بطولة كبطولة النبي العربي .

وعين الله الساهرة عليه لغايتها دبّرت لـه **نشأة سليمة على الفصحى الخالصة** . يقول الأستاذ العقاد [1] : «ثم عُهد به الى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعته في بادية قَومها بني

---

(١) **العبقريات الإسلامية** : نشر دار الآداب في بيروت . (مطلع النور) ص ١١٣.

سعد ، **على سُنّة العلية من أشراف مكّة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الفصحى** بعيداً من اخلاط مكّة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات في مقتبل الشباب ، **ولكن أسرة أبيه وأسرة أمه تكفّلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة في قريش** ... ولبث معها الى الخامسة أو قبلها بقليل . وتكلّم وجرى لسانه **بالعربية الفصحى** وهو بين بني سعد ، **فذاك فخره بعد النبوّة اذ يعجب الصحابة من فصاحته** ، فلا يرى عليه السلام عجباً في فصاحة عربي نشأ في بني سعد ، **وتربّى في الذؤابة من قريش**)) .

وعين الله الساهرة عليه لغايتها، دبّرت له **زواجه من السيدة خديجة** التي كانت تجارتها تعدل تجارة قريش ، فجاءَه معها المال والجمال وهناء البال . وتروي السيرة النبوية لابن هشام أن السيدة خديجة قد استشارت ورقة بن نوفل بصفته ابن عمها ، وبصفته قسّ مكّة، في أمر زواجها من محمد . ((فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً ، يا خديجة ، **إن محمداً لنبيُّ هذه الأمة**)) [1] . يقول ورقة ذلك قبل مبعث محمد بخمس عشرة سنة . فهل كان ورقة نبيّاً ليعرف مصير محمد بعد خمس عشرة سنة ؟ وبعد خمس عشرة سنة يرى محمد رؤياه في غار حرّاء ، فيرجع الى خديجة ترتعد فرائصه . ((فقالت : أبشرْ يا ابن عم واثبتْ ، من الذي نفس خديجة بيده **إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة** [2])) . فهل كانت خديجة أيضاً نبية لتعرف قبل محمد أنه نبي هذه الأمة ؟ ففي موافقة ورقة وخديجة على زواجها من محمد **تصميم على تهيئة محمد لمهمة الدعوة** ، وتسلّمها من ورقة والقيام بها من بعده .

وقد بيّنا في كتاب آخر أن **أميّة محمد** قول [3] لا نستطيع الأخذ به . ولا تضير الثقافة النبوّة ، فقد كان موسى قبل مبعثه قد تثقّف بكل ثقافة المصريين في بيت فرعون ، وثقافة الكنعانيين مدة أربعين سنة في مدين ، قرب شيخها وكاهنها ، وهو يرعى له أنعامه .

وفي حديث ورقة بن نوفل في صحيح البخاري وغيره ، **نرى صلة محمد بورقة وتلمذته للقس العلامة مدة خمس عشرة سنة** ، من زواجه بخديجة الى مبعثه في سن الأربعين . وذلك في قوله في ختام الحديث : ((وما نشب أن توفّي ورقة وفتر الوحي)) . فهو يجعل وفاة ورقة سبب فتور الوحي . وما هذا سوى دليل على تأثير ورقة البالغ في محمد ودعوته .

---

(١) **السيرة** لابن هشام ١:٢٠٣.
(٢) **السيرة** لابن هشام ١:٢٥٤.
(٣) **القرآن والكتاب** ٢:١٠٥٨.

ويأتي القرآن بالقول الفصل ، **فيشهد أن محمداً درس الكتاب ليعلمه للعرب** : وكذلك نصرّف الآيات ! وليقولوا : **درست** ! ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون » (الأنعام ١٠٥) . فهو لا يرد التهمة ، وسكوته عنها وعدوله الى بيان غاية الدرس برهان على صحة واقع الدرس . غفلوا هم عن دراسة الكتاب (الأنعام ١٥٦) فدرسه محمد ليدَرّسهم إياه ، «ويعلّمهم الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل (البقرة ١٢٩ ؛ آل عمران ١٦٤ ؛ الجمعة ٢) ، «ويعلّمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون» (البقرة ١٥١) . لذلك كان يستعلي على المشركين بعلم الكتاب المنير وهداه : «ومن الناس من يجادل في الله بغير هدى ولا علم ولا كتاب منير» (الحج ٨ ؛ لقمان ٢٠) . ويتحدى المشركين بقوله : «**أم لكم كتاب فيه تدرسون**» (القلم ٣٧) ، فهو عنده الكتاب فيه يدرس . ويتحداهم أيضاً بقوله : «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» (القلم ٤٧ ؛ الطور ٤١) ؛ فهو عنده الغيب في الكتاب يكتب منه . وهذا ما لاحظه أهل مكّة وقالوه له : «وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً» (الفرقان ٥) . وكان استعلاؤه الدائم على المشركين قوله : «**وما آتيناهم من كتب يدرسونها**» (سبأ ٤٤) ممّا يوحي بأنه هو كان له كتب يدرسها .

أجل إن محمداً على أثر رؤيا في غار حرّاء اهتدى نهائيّاً الى الإيمان بالكتاب (الشورى ٥٢) ؛ وأُمر بالانضمام الى المسلمين ، النصارى من بني إسرائيل ، يدعو بدعوتهم الى قرآن الكتاب : «وأمرتُ أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن» (النمل ٩١ ـ ٩٢) ؛ وكان يشهد معهم «أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) .

وهذا الواقع التاريخي والقرآني يشهد بأنه ليس من معجزة في اصطفاء محمد للدعوة القرآنية بالإسلام ، إلاّ الاصطفاء والرؤيا ؛ وهذه حال كل أنبياء الله . فما عدا الاصطفاء بالرؤيا للإيمان بالكتاب ، (الشورى ٥٢) ، والأمر بالدعوة له ولاسلامه (النمل ٩١) ، كان محمد في شخصيته عبقرية دينية ، وعبقرية سياسية ، وعبقرية دبلوماسية ، وعبقرية عسكرية، وعبقرية إدارية ، وعبقرية تشريعية ، وعبقرية أدبية [1] . وهذه العبقريات هي التي أهلته للقيام

---

(١) انظر كتابنا : **القرآن والكتاب** ٢:١٠٦٤ ـ ١٠٦٧.

بالدعوة القرآنية خير قيام . وهذه العبقريات التي قد لا تجتمع لرجل ليست من الوحي والتنزيل في شيء . لذلك نستطيع أن نقرّر أن محمداً ليس معجزة من معجزات القرآن ، ولا وجهاً من وجوه إِعجازه . ولا دليلا من أدلة هذا الإِعجاز [٢] .

---

(٢) قابل مغالطة السيد عبد الكريم الخطيب . **إِعجاز القرآن** ٢:١٣٥.

خاتمة

معجزات ليس النبي ولا القرآن بحاجة اليها

أجل ((الله أعلم حيث يجعل رسالته)) . وقد فطر محمداً على مجموعة من العبقريات ، تجعله يقوم بمجموعة من البطولات . ولكن اصطفاء الله للمصطفى لا يجعله **معجزة شخصية** ((من معجزات القرآن)) . وليس في توقيت الرسالة المحمدية ، والدعوة القرآنية من **معجزة زمانية** . وليس في اختيار لسان العرب للقرآن العربي من **معجزة لغوية** . وليس في قيام الدعوة القرآنية بالحجاز في جاهلية العرب من **معجزة مكانية** . إن القرآن والحديث والسيرة تشهد بأن بيئة القرآن والنبي كانت ناضجة لقيام محمد بالدعوة القرآنية ، بعد فضل الله عليه باصطفائه لها . فليس من معجزة للقرآن في بيئة النبي والقرآن . انما إعجاز القرآن في ذاته ، بالنسبة الى المشركين .

الجزء الثاني

الإعجاز في شمول الدعوة القرآنية وكمالها

توطئة

الشمول والكمال في الدعوة القرآنية

من الإعجاز في دعوة دينية شمولها وكمالها . وهم يرون في الدعوة القرآنية شمولاً في النبوّة والعقيدة ، جاء مصحّحاً متمّماً لكل نبوّة وعقيدة سبقتها ، شمولاً في موضوع الدعوة، فالإسلام دين ودنيا ، دين ودولة ، دنيا وآخرة ؛ شمولاً في عالمية الدعوة ، وكانت كل دعوة قبلها قومية . إن « **عقيدة الشمول** » هي الصفة التي امتازت بها الدعوة الإسلامية [1] . فكمالها في شمولها وفي عالميتها .

وقد فات العقاد حقيقة الواقع القرآني . فقومية الدعوة القرآنية ظاهرة في تصاريحها : « وإنه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) ؛ « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ، أفلا تعقلون » (الأنبياء ١٠) ، « بل آتيناهم بذكرهم ، منهم عن ذكرهم معرضون » (المؤمنون

---

(١) عباس محمود العقاد : **الإسلام في القرن العشرين** ص ٢٣.

٧٢) . فالدعوة القرآنية قومية عربية ؛ وانتهت عالمية بالفتوحات الإسلامية . والشمول محدود بأمر الوحي لمحمد: ((أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده)) (الأنعام ٩٠) ؛ ومقيّد ((بالمثل)) الذي يتّبعه : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) (الأحقاف ١٠) . والكمال يقتصر على الدعوة ((النصرانية)) : فمحمد يشهد بشهادة ((أولي العلم قائماً بالقسط ... إن الدين عند الله الإسلام)) (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . فهو يمنع الجدل مع أهل الكتاب النصارى إلاّ بالحسنى ، وهذه الحسنى هي الأمر لأمته أن يقولوا : ((آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون)) (العنكبوت ٤٦) ، فالإله واحد ، والتنزيل واحد ، والإسلام واحد . فأين الشمول والكمال في الدعوة القرآنية ؟

بحث أوّل

الشمول في التصحيح والتتميم

يقول العقاد [١] في كتابه للمؤتمر الإسلامي : ((ومن ثمَّ كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام **مصحّحة متمِّمة** لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ، ومباحث الربوبية ... والواقع أن النبوّة الإسلامية جاءَت **مصحِّحة متمِّمة** لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوّة ، كما كانت عقيدة الإسلام الالهية **مصحّحة متمّمة** لكل ما تقدمها من عقائد بني الانسان في الإله)) .

وفات الأستاذ المعلم أن الواقع القرآني ينقض قوله في هذين التصحيح والتتميم . إن القرآن صريح بأن الكتاب ((إمامه)) : ((ومن قبله كتاب موسى **إماماً** ورحمة ؛ **وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً**)) (الأحقاف ١٢ . كذلك هود ١٧) . فميزة القرآن ، بنصه القاطع ، أنه تصديق الكتاب ؛ وفي هذا التصديق ليس عنده من جديد سوى اللسان العربي . فليس ما

---

(١) **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** ص ٥٥ ثم ٦١.

عنده تصحيح ولا تتميم . والقرآن يستعلي على المشركين بالكتاب المنير ، الإنجيل : ((ومن الناس مَن يجادل في الله **بغير هدى ولا علم ولا كتاب منير**)) . وهو يردّ ذلك في مكّة (لقمان ٢٠) وفي المدينة (الحج ٨) . فمحمد يجادل في دعوته بهدى وعلم الكتاب المنير . فليس ما عنده تصحيح ولا تتميم . فالتوراة والإنجيل هما دين موسى ودين عيسى اللذين شرعهما للعرب ديناً واحد ، ((لا نفرّق بين أحد من رسله ، ونحن له مسلمون)) (البقرة ٢٨٥ قابل البقرة ١٣٦ ؛ آل عمران ٨٤ ؛ النساء ١٥٠) . يقول ((**شرع لكم من الدين** ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه)) (الشورى ١٣) . فإقامة توراة موسى وإنجيل عيسى معاً هي الإسلام في القرآن ، وهي الدين الذي شرعه الله للعرب . فليس من جديد في القرآن ، بل ((**هذا ذكر من معي وذكر مَن قبلي**)) (الأنبياء ٢٤) . فليست الدعوة القرآنية مصحّحة متممة لدين التوراة والإنجيل ، بل تبليغ له الى العرب .

إنّ ((الكتاب والحكمة)) في اصطلاح القرآن كناية عن التوراة والإنجيل (٦٣:٤٣ ؛ ٤٨:٣ ؛ ٥٤:٤ و١١٣؛ ١١٠:٥) : ((لقد مَنَّ الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكّيهم ، **ويعلّمهم الكتاب والحكمة** ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين)) (آل عمران ١٦٤) ؛ ((كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ، **ويعلّمكم الكتاب والحكمة** ، ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون)) (البقرة ١٥١) ؛ ((هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكّيهم ، **ويعلّمهم الكتاب والحكمة** ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) (الجمعة ٢) . لاحظ دقة التعبير وتواتره : فهو أولاً ((يتلو عليهم آيات الله)) في الكتاب الإمام وفي الكتاب المنير ؛ ثم يفصّلها لهم بسور القرآن ؛ وبذلك يعلمهم الكتاب والحكمة ، التوراة والإنجيل . فليس القرآن العربي سوى تعليم الكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل . فليس فيه تصحيح ولا تتميم للتوراة والإنجيل .

والأمر لمحمد صريح بالاقتداء بأهل الكتاب والحكمة : ((أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة ... **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه**)) (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) على محمد أن يقتدي بهدى أهل الكتاب والحكمة ـ لاحظ استعمال التعبير العبراني الأرامي بحرفه ((الحُكم)) أي الحكمة ، دليلاً على التبعية في التعبير والتفكير ـ فلا يكون ما أتى به مصحّحاً متمّماً لكل ما تقدمه من عقائد بني الانسان في الإله .

وأهل «الكتاب والحكمة» معاً هم المسلمون الذين أُمر أن ينضمّ اليهم وأن يتلو قرآن الكتاب معهم ، على طريقتهم : «**وأُمرتُ أن أكون من المسلمين** ، وأن أتلو القرآن» (النمل ٩١ ـ ٩٢) . فهو يتلو على العرب قرآن الكتاب مع المسلمين ، النصارى من بني إسرائيل ، **الذين عندهم «مثل» القرآن العربي** : «وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله» (الأحقاف ١٠) . فليست الدعوة القرآنية تصحيحاً ولا تتميماً لما سبقها . إنما الدعوة القرآنية هي الدعوة «النصرانية» **باسمها ومضمونها** . فهو يسمّي هؤلاء «المسلمين» من قبله أولي العلم المقسطين ، أو الراسخين في العلم (آل عمران ٧ ، النساء ١٦٢) . ويصرّح : «شهد الله أن لا إله إلاّ هو ، والملائكة **وأولو العلم قائماً بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام**» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . وهذا الإسلام هو تنزيل الله على إبراهيم وموسى وعيسى ، «لا نفرّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون : ومَن يبتغ غير الإسلام (هذا) ديناً فلن يُقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران ٨٤ ـ ٨٥) . فإسلام النصارى «المسلمين» هو اسلام القرآن نفسه: فما جاءَت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بني الانسان في الإله ؛ فهي اسماً وعقيدة مِمّن يسميهم «أولي العلم قائماً بالقسط» ، «الراسخين في العلم» ، الذين أُمر بأن ينضمّ اليهم ، ويقتدي بهداهم .

فأين الشمول بالتصحيح والتتميم في النبوّة والعقيدة ؟ فالقرآن يصرح بأنه «**تفصيل الكتاب**» (يونس ٣٧) ، وليس فيه من جديد سوى التصديق لساناً عربياً : **وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً**» (الأحقاف ١٢) . هذه الصفات تقضي على مقولة الشمول ، والقول بالكمال ، فكل تحدّيه «قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله هو **أهدى منهما** أتبعه ، إن كنتم صادقين» (القصص ٤٩) .

بحث ثان

الشمول في موضوع الدين

تلك المواقف القرآنية الصريحة ، وغيرها كثير ، تحدّد الشمول والكمال في موضوع الدين في الإسلام والدعوة القرآنية . إنه شمول وكمال مقصوران على «تفصيل الكتاب» ، وتعليم «الكتاب والحكمة» للعرب ، وتصديق الكتاب الإمام ، والكتاب المنير بين العرب : «وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً» .

فمهما كان الشمول في الإسلام ، ومهما كان الكمال في الدعوة القرآنية ، فهما شمول وكمال من إسلام أولي العلم المقسطين ، والراسخين في العلم ، الذين أُمر محمد بأن يقتدي بهداهم (الأنعام ٩٠) .

أولاً : الشمول في توحيد شئون الدنيا والآخرة

يقول العقاد [١] : «كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة» . فالإسلام يهتم بشؤون الدنيا كما يهتم بشؤون الآخرة . وفي هذا كمال وشمول . لكن هل الاهتمام بشؤون الدنيا من أغراض الوحي والتنزيل ؟ إن الله تعالى خلق العقل ، وجعل في كتاب الخلق ميداناً للعقل يتدبّر به الإنسان أمور دنياه ، ويتدبرها بحسب تطور البشرية في الحضارة والثقافة . فالدنيا عالم الشهادة لا يحتاج الى وحي يكشفه لنا . فالعقل هو نبي كتاب الخلق يقرأه كلما اتّسع ادراكه واتسعت معرفته .

والقرآن يقرّر : «إن النفس الأمّارة بالسوء» (يوسف ٥٣) ؛ «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين» (التين ٤ ـ ٥) . فبانقلاب الإنسان من أحسن تقويم الى أسفل سافلين ، صارت فيه النفس أمّارة بالسوء . هذا التعليم القرآني هو تعليم المسيحية في الخطيئة الموروثة عن آدم ، في ميلها الفطري الى السوء .

فهل الشمول والكمال في التحريض على الزهد في الدنيا ، أم في التحريض على الأخذ بالنصيب من الدنيا : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، **ولا تنسَ نصيبك من الدنيا**» (القصص ٧٧) «إن النفس الأمّارة بالسوء» ، فهل من الكمال والشمول تحريضها على الاستمتاع بطيبات الدنيا ، بتشريع يزداد في التحريض : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم» ! (البقرة ١٧٢) «يسألونك : ماذا أُحلَّ لهم ؟ ـ قل : أُحلَّ لكم الطّيبات» (المائدة ٤) «اليوم أحلَّ لكم الطّيبات» (المائدة ٥) «يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أُحلَّ لكم ، ولا تعتدوا (أمر الله) إن الله لا يحب المعتدين» (المائدة ٨٧) . قال الجلالان : «نزل لمّا هم قوم من الصحابة أن يلازموا الصوم والقيام (في الليل للصلاة) ، ولا يقربوا النساء والطيب ، ولا يأكلوا اللحم ، ولا يناموا على الفراش . (ولا تعتدوا) ولا

---

(١) **الإسلام في القرن العشرين** ص ٢٦.

تتجاوزوا أمر الله)) . ((وكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيباً)) (المائدة ٨٨) فقد نسخ القرآن المدني بهذه الدعوة لاستباحة الطّيبات من الدنيا ، دعوة القرآن المكي الى الزهد .

ومن طيبات الدنيا المرأة : ((فانكحوا ما طاب لكم من النساء : مثنى وثلاث ورباع ـ فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى ألاّ تعولوا)) أي تجوروا (النساء ٣). إباحة الجمع بين أربع نساء معاً من طيبات الحياة . أمّا التسري بملك اليمين من الإماء فلا حدّ له ولا قيد . والحدّ في أربع نساء معاً يخرقه إباحة الطلاق ، فيعود الزواج بالنكاح والطلاق بلا حد ولا قيد . أمآ تعبير ((ما)) بحق النساء ، وهو يُستعمل لغير العاقل ، فالخوف أن يستشفّ من أن المرأة شيء لمتعة الرجل .

ومن تسهيل الدين في سبيل الدنيا : ((**ما جعل عليكم في الدين من حرج**)) (الحج ٧٨).

فهل في رفع الحرج من الدين في طيبات الدنيا ، وإباحة الطّيبات من الرزق ومن النساء بالطلاق والتسري ، وأخذ النصيب من الدنيا ، هو من الشمول والكمال في جمع شؤون الدنيا الى شؤون الآخرة ؟

ثانياً : الشمول في الجمع بين الجسد والروح في الدين

يقول العقاد [1] : ((كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، **وبين الجسد والروح** ؛ ولا يعاني هذا الانفصام الذي يشق على النفس احتماله ، ويحفزها في الواقع الى طلب العقيدة ، ولا يكون هو في ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام ... وينبغي أن نفرّق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح ، **فإن الاعتراف بحقوق الجسد** لا يستلزم انكار الروحانية ... إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح)) .

هنا يعرِّض العقاد بالموسوية وماديتها على حساب الروح ، وبالمسيحيّة وروحانيتها على حساب الجسد ، كما يقولون . والشمول يجده في الإسلام الذي يعترف بحقوق الجسد ، كما يعترف بحقوق الروح .

---

(١) **الإسلام في القرن العشرين** ص ٢٦ و ٢٨.

أجل يقول الإنجيل : «لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ! ولا لأجسادكم بما تلبسون» (متى ٦:٢٥) . لكن هذا لا يعني التنكّر لحقوق الجسد ، بل الفصل كله **تقييم لحقوق الروح وحقوق الجسد** : يستفتح بالمبدإ : «لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال» لأن عبادة المال وثنية على حساب عبادة الله : «لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين : فإنه إمّا يبغض الواحد ويُحب الآخر ، أو يلزم الواحد ويرذل الآخر» (متى ٦:٢٤) . ويستنتج من ذلك : «من أجل ذلك أقول لكم : لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون : أليست النفس أعظم من الطعام ، والجسد أعظم من اللباس» (متى ٦:٢٥) فالقضية قضية تقييم لحقوق الروح وحقوق الجسد ، وحق الروح أفضل من حق الجسد . فالذي يقوت طير السماء ، ويلبس زنابق الحقل ، «كم بالأحرى يلبسكم أنتم ، يا قليلي الإيمان ؟ فلا تقلقوا إذن قائلين : ماذا نأكل ؟ أو ماذا نشرب ؟ أو ماذا نلبس ؟ ـ فهذا كله يطلبه الأمّيون ، وأبوكم السماوي عالم بأنكم تحتاجون الى هذا كله» (متى ٦:٢٦ ـ ٣٢) . والنتيجة المطلوبة هي هذا التعليم السامي الذي يضع شؤون الروح وشؤون الجسد كلاً في مكانها : «فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبِرَّه ، وهذا كله يُزاد لكم» (متى ٦:٣٣) . ففي سبيل الله يجب الاهتمام أولاً بالروح ، من دون اهمال للجسد ؛ لأن حق الروح علينا أفضل من حق الجسد . وهذا التقييم ليس انكاراً لحق الجسد ، ولا يجعل انفصاماً في الانسان يشق عليه احتماله ، فيهيم بين الحيرة والانقسام . لكن هذا التقييم يعصم الانسان من الانزلاق في شهوات الجسد على حساب الروح .

فالروح قائم في الجسد، غارق في الحسّ وفي دنيا المحسوسات، حتى صارت «النفس أمّارة بالسوء» ؛ فقد «زُيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ـ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ، والله عنده حسن المآب» (آل عمران ١٤) .

فليس الانسان بحاجة الى تذكيره بحقوق الجسد ، فإنه متكالب عليها . إنم هو بحاجة الى حمله على القيام بحقوق الروح في سبيل الله واليوم الآخِر : «وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو ، وللدّار الآخرة خير للذين يتّقون ، أفلا تعقلون» (الأنعام ٣٢) . فليس الانسان بحاجة الى **تخفيف** في أحكام الجسد ، ليلة الصيام : «أحلَّ لكم ، ليلة الصيام ، الرَّفَث الى نسائكم : هنَّ لباس لكم ، وأنتم لباس لهن . علم الله أنكم كنتم تختانون (**تخونون**) أنفسكم ، فتاب

عليكم وعفا عنكم : فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (البقرة ١٨٧) . وهكذا يُبطل الليل ما حرّم النهار.

وليس بحاجة الى تخفيف في كيفية مباشرة النساء . قال : «فإذا تطهّرن فأتوهنَّ من حيث أمركم الله» (البقرة ٢٢٢) . فاعترض عمر ومَن معه فنزل للحال : «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم» (البقرة ٢٢٣) . وفي (أسباب النّزول) نقل السيوطي إنها «رخصة في إتيان الدبر» ونقل أيضاً أن الأنصار كانوا «يرون لأهل الكتاب فضلاً عليهم في العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلاّ على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة . وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك ؛ **وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً** ، ويتلذّذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرت عليه وقالت : إنّما كنّا نؤتى على حرف . فسرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله : نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم» !

فميزة القرآن **التخفيف من سنن أهل الكتاب** : يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سُنَن الذين من قبلكم ... **يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً** » (النساء ٢٦ و٢٨)

إن مسايرة الضعف الانساني ، في أحكام الله ، للتخفيف منها ، هل هو من الإعجاز في التشريع ؟ وهل تخفيف أحكام الله في سبيل حقوق الجسد ، من الإعجاز في الجمع بين حقوق الروح وحقوق الجسد ؟ أجل إن الاعتراف بحقوق الجسد لا يستلزم إنكار الروحانية ، في الدعوة القرآنية . أجل أيضاً «لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد ، كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح» ! لكن هل يوصف بالشمول والكمال دين يركّز دعوته على حقوق الجسد ، كما يركّزها على حقوق الروح ؟ أليس الشمول والكمال في تقييم حقوق الروح والجسد في سلّم القِيم ؟

إن في رفع الحرج في الدين «بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح» **خطر** على الروح وعلى الآخرة : «إن النفس لأمّارة بالسوء» . وهذا ما تنبّه له الأستاذ العقاد [1] في

---

(١) **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** ص ١١٠.

كتابه الى المؤتمر الإسلامي : «في تنبيه المتدين الى حقيقتين لا ينساهما الانسان في حياته الخاصة أو العامة إلاّ هبط الى درك البهيمية في هموم مبتذلة لا فرق بينهما وبين هموم الحيوان الأعجم ، إن صح التعبير عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم . «إحدى الحقيقتين التي يُراد من العبادة المثلى أن تنبّه اليها ضمير الانسان على الدوام هي **وجوده الروحي** الذي ينبغي أن تشغله على الدوام مطالب غير مطالبه الجسدية وشهواته الحيوانية . «والحقيقة الأخرى التي يُراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضميره ، هي **الوجود الخالد الباقي** ، الى جانب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية . ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقي ، إذا أُريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها الى ما وراء معيشته اليومية ، ووراء معيشة قومه ، بل معيشة أبناء نوعه»

أليس هذا هو التقييم الذي أراده الإنجيل بتفضيل الروح على الجسد ، مع اعطائه حقه؛ وتفضيل الآخرة على العاجلة ، مع أخذ النصيب الصالح منها ؟

فليس الشمول والكمال في جمع وتوحيد شؤون الجسد والروح معا .

ثالثاً : الشمول في جعل الإسلام ديناً ودولة معاً

يقولون : ومن الشمول في الإسلام أنه دين ودولة معاً ؛ فهو نظام حياة كامل . ففي المدينة : «أخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعملية التي يجب أن تقوم عليها الدولة» [1] ؛ «وانه تعرَّض **لشؤون الحياة الدنيوية العملية** بأكثر مما تعرَّض للأعمال التعبدية» كما نقلوا عن الامام حسن البنّا [2] .

لكن اذا كان القرآن المدني تشريعاً لبناء الدولة ، وجهاداً لحمايتها ، فيكون كله تنزيلاً لقيام دولة أكثر مما هو وحي لقيام دين . وهل البشر بحاجة الى وحي وتنزيل لقيام الدولة ، أم بحاجة الى كلام الله لقيام الدين ؟ فليس الكمال في تحويل الدين الى دولة دينية ، يكون الدين فيها رهين الدولة ، وعرضة لتقلباتها . وليس الشمول في توحيد الدين والدولة في عقيدة واحدة ونظام واحد ؛ لأن الدولة قومية ، والدين عالمي فوق القوميات والدول ، ممّا

---

(١) عمر فرّوخ : **العرب والإسلام** ص ٤٢.
(٢) أحمد محمد جمال : **دين ودولة** ـ المقدمة الأولى .

يجعل صراعاً مستديماً بين الدين والقومية ، وبين الدين والدولة ؛ وممّا يجمّد الدولة على أحكام للدين نزلت في بيئة بدائية .

يقول العقاد [1] : «ومن هنا (شمول العقيدة للدين والدولة) لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر ... وإنما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر **تفرقة الضرورة** التي لا يقبلها المتدين ، وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله» .

وفات الأستاذ أن الإنجيل «لم يذهب **مذهب التفرقة** بين ما لله وما لقيصر» ، بل **مذهب التمييز** لاعطاء قيصر حقه في الحكم واعطاء الله حقه في الدين ، حتى ولو كان قيصر خليفة الله في أرضه ، وأمير المؤمنين . فالتمييز بين الدين والدولة ـ لا التفرقة ـ هو الكمال لأنه يُعطي كل ذي حق حقه . فقد يأتي يوم يكون فيه **قيصر أحمر** ، لا يستطيع المتدين تطويع قيصر لأمر الله . وفي تطور البشرية قد يأتي يوم تصطدم فيه أحكام الدين مع ضرورات الدولة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فتصطدم الدولة مع الدين في تشغيل رأس المال بالبنوك كما في التجارة ؛ وفي قطع يد السارق وقد يكون السارقون في الأمة كثيرين ؛ وفي قبول تعدد الأديان والمذاهب في الدولة الواحدة ؛ وفي ضرورة تحديد النسل «خشية املاقٍ» وارهاقٍ لطاقات الأمة ؛ وضرورة تحديد الطلاق ووحدة الزوجة . ففي وحدة الدين والدولة تقييدٌ لتطور الأمم والدول ، لأن أحكام الدين لا ينسخها إلاّ الله ، أمّا أحكام الدولة فيضعه دستورها حسب حاجاتها وطاقاتها ، فيقوم دستور مكان دستور .

فليس الشمول ، ولا الكمال في جمع الدين والدولة معاً ، بل في تمييز الدين عن الدولة، وفي تنزيل أحكام الدين دستورية فوق الزمان والمكان ، لا قانونية مرهونة بزمان ومكان . فلن تقبل البشرية على الدوام أن يكون «حظ الذكر مثل حظ الانثيين»! ولا تكون الأمة طبقات : «وهو الذي ... رفع بعضكم فوق بعض درجات» (الأنعام ١٦٥) ؛ ولا أن يكون الطلاق في عصمة الرجل يجري فيه على هواه ...

إن الكمال في تمييز الدين عن الدولة ، لا في دمج الدين بالدولة . ودمج الدين بالدولة شمول مشبوه .

---

(١) **الإسلام في القرن العشرين** ص ٢٧.

بحث ثالث

الكمال في تحرير الدين من كل سلطة في الدين

يقولون : إن الدين علاقة عبد بربه . وكلما خلا الدين من واسطة بين العبد وربه كان الدين كاملاً في ذاته ، شاملاً في المتعبدين به . فهل خلوّ الدين من سلطة بين العبد وربه كمال أم نقص ؟

إن السلطة التي تفرض ذاتها بين العبد وربه في الدين شبهة على هذه السلطة وعلى هذا الدين . أمّا السلطة التي يقيمها الله حتى تفقّه الناس في الدين ، وحتى تقيم أحكام الدين ، وحتى « كلما عتق الدين جدّدوه ـ هذا التأسيس كمال لا نقص .

فالقرآن نفسه يشرع تخصّص فرقة بالفقه بالدين والدعوة له : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ـ ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم » (التوبة ١٢٢) . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيمة كل مؤمن ؛ لكن القرآن نفسه يشرع تخصّص أمة من المؤمنين بهذا الأمر : « ولتكن منكم أمّة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤). بهذا العمل يرى في المسلمين خير أمة أُخرجت للناس (آل عمران ١١٠). ويرى في رهبان عيسى « أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين » (آل عمران ١١٣ ـ ١١٤) ؛ إنهم الصالحون ، عباد الرحمان ، الذين يطلبون : « وجعلنا للمتقين إماماً » (الفرقان ٧٤) .

فتأسيس الأئمة في الأمة تدبير الهي ، به اهتدى محمد نفسه الى الإيمان بالكتاب ولقائه : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، **فلا تكن في مرية من لقائه** . وجعلناه هدى لبني اسرائيل. **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا** » (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) . وبنو إسرائيل يهود ونصارى ؛ وبما أنه على خلاف دائم مع اليهود ، فهو يقصد هنا أئمة النصارى : فالله جعل منهم أئمة يهدون بأمره تعالى . لكن القرآن الذي أمر بتخصص أمة من آله بالتفقّه في الدين

وتفقيه الآخرين ، لم يجعل لهم سلطة على أحكام الدين وشعائره ، كما فعل السيد المسيح ، ليفسّروها للناس جيلاً بعد جيل . لذلك لمّا شعرت الأمة ، بعد النبي ، بحاجة الى أحكام تفصّل القرآن ، لجأت الى السُنّة في الحديث : فوضعوا آلاف الأحاديث على لسان النبي . فانقسمت الأمة الى سُنّة تقول بالكتاب والسنة ، والى شيعة تقول بالكتاب وحده من دون السنة . ولمّا لم تكف السنة في تطوّر الأمة لتفصيل أحكام الدين ، لجأوا أيضاً إلى اجماع الأئمة كمصدر للتشريع ، من دون أن يكون له صفة الإلزام في الدين . ولمّا لم تكف السنة ولا الاجماع ، لجأوا الى الرأي والقياس ، فقامت المذاهب الأربعة أو الخمسة في الفقه . وهذا التطور في تلمّس مصادر التشريع في الإسلام برهان على ضرورة قيام سلطة في الأمة لإقامة أحكام الدين وشعائره .

فهل السلطة في الدين واسطة بين العبد وربه ؟ قد يكون فيها شيء من ذلك . ولكن أليست الملائكة الحفظة واسطة بين الله وعبيده ، وهو وحده الحفيظ العليم ؟ أليست النبوّة أيضاً واسطة بين الله والناس لهداية الناس الى الله ؟

أليست الخليقة نفسها واسطة بين الخالق والمخلوق ، ليعرف المخلوق من الخليقة خالقه؟ وهذا برهان التوحيد كله في القرآن ! فليس الكمال في الدين تجريده من سلطة يتيه بدونها الشعب في دينه ، والبشرية ستظل في معظمها شعباً الى ما شاء الله .

يقول العقاد [1] : «لقد ظهر الإسلام في إبان دولة الكهانة والمراسم ، وواجه أناساً من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ... لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سواءٌ في العبادة الوثنية أو في عبادة أهل الكتاب، الى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة . فلمّا ظهر المسلم في تلك الآونة **ظهر الشمول في عقيدته من نظرة واحدة** ، ظهر أنه وحدة كاملة في أمر دينه يُصلّي حيث شاء ، ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهّان» .

العبادات لها شعائر في كل دين ، وهي توقيفيّة ، قد يقوم بها المؤمن بنفسه ، أو يساعده فيها مَن انتدب نفسه لها ، أو اختاره الله بسلطة لها ، بالنص والوصية . وعند أهل الكتاب

---

(١) **الإسلام في القرن العشرين** ص ٢٣ ـ ٢٤.

ليس «المعبد والكاهن والايقونة» من مقوّمات العبادة في حدّ ذاتها . فالإنجيل صريح بأن العبادة فرض شخصي يقوم بها المؤمن بنفسه ، في كل زمان ومكان . وقد علم المسيح اتباعه صلاة « أبانا الذي في السماوات » كفاتحة لكل صلاة . لكن المسيح رسم مراسمَ ورموزاً دينية، هي شعائر المسيحية التي تميّزها ، وأوقف على صحة القيام بها تطهيراً وتقديساً ؛ فلا بدَّ لها بمن يقوم بها ، وهذا هو الكاهن المسيحي الذي أوتي سلطاناً من المسيح للقيام بتلك المراسم والعبادات التوقيفية ؛ ولا بدَّ لها من مكان تُقام به ، وهو المعبد . فالحياة الدينية الخاصة ليست مقيّدة بمعبد وكاهن وأيقونة ، إنما الحياة الدينية العامة الاجتماعية هي التي تقتضي الكاهن والمعبد . وكل حياة اجتماعية منظّمة ، دينية أم مدنية ، لا بدَّ لها من إمام يؤمُّها . وقيام إمام بالوصية والنص أفضل من الحرية الفوضوية .

والإسلام الذي يزعمونه دين التحرير من المراسم ، قد انتحل مراسم الحج الى كعبة مكّة ، وتركها على حالها كما في وثنية العرب ، مع تغيير روحها بالتوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر . فهل في مراسم الحج كمال أفضل من كمال غيره ؟ وما معنى الحج الى بيت يلثمون فيه حجراً ؟ وما معنى هذا الحجر في التوحيد الخالص ؟ والصلاة الإسلامية وكيفياتها أليست ملأى بالمراسم ؟ وكيف لمس المتوضئ للصلاة ليد امرأة للسلام ينقض الوضوء ؟ إلاّ أن تكون المرأة المسلمة نَجَساً ينقض لمس يدها الوضوء ؟

لكن العقّاد [1] يعود ، في كتابه الى المؤتمر الإسلامي ، فيقول في العبادات ومراسمها: « لا مناص في النهاية من **أسباب توقيفية** يكون التسليم بها أقرب الى العقل من المجادلة فيها . لهذا يقل الخلاف بين أصحاب الأديان في شعائر العبادة ، حيث يكثر في كل كبيرة وصغيرة من شؤون العقائد الفكرية أو عقائد الضمير » . وهكذا فلم يتحرر الإسلام نفسه من المراسم والشعائر في العبادات ، ولم يتحرّر من كل سلطة في الدين : «يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول **وأولي الأمر منكم**» (النساء ٥٩) وسلطة بالنص والوصية أفضل من إمامة في العلم والدين بلا نص ولا وصية تكون أقرب الى الحرية الفوضوية ، منها الى النظام الحر المنتظم .

فليس الجمع والتوحيد في شؤون الدنيا والآخرة ، وفي مشاكل الجسد والروح ، وفي مسائل الدين والدولة ، وتحرير الدين من كل سلطة مع بقاء دولة الإسلام بسلطة ، من

---

(١) **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** ص ١٠٩.

الشمول ، برهان الكمال . إنما الدين سبيل الى الله ، لا الى الدنيا أو الجسد أو الدولة . وفي السبيل الى الله من الأفضل والأكمل تمييز الدين عن الدولة وتمييز الروح عن الجسد ، وتمييز الآخرة عن الدنيا ـ **التمييز ، لا التفرقة** . وذلك لئلا يتيه الدين في متاهات الجسد والدولة والدنيا ؛ وتصير الدنيا والدولة والجسد **قيوداً وحدوداً** للدين والروح والآخرة . فلنُطلق الدين والروح من تلك العُقالات ، التي ليست في مقياس الكمال ، وقسطاس الشمول ، من معجزات.

بحث رابع

الدعوة القرآنية قومية أم عالمية ؟

يستفتح القرآن بتسمية الله تعالى «الرحمان الرحيم ، رب العالمين» (الفاتحة) ؛ ويقول عن نفسه : «إن هو إلاّ ذكر للعالمين» (١٢:١٠٤؛ ٣٨:٨٧ ؛ ٨١:٢٧ ؛ ٦٨:٥٢) ؛ ويقول في نبيّه : «قلْ ، يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً» (الأعراف ١٥٨) ، «وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين» (الأنبياء ١٠٧) ، «وما أرسلناك إلاّ كافةً للناس» (سبأ ٢٨) ، «قلْ ، يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين» (الحج ٤٩) ، «يا أهل الكتاب قد جاءَكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا : ما جاءَنا من بشير ولا نذير ! ـ فقد جاءَكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير» (المائدة ١٩) . ألا تكون هذه التصاريح دلائل على عالمية الدعوة القرآنية؟ إنما هي أساليب بيانية قامت عليها شبهة العالمية في الدعوة القرآنية . إنما الدعوة القرآنية **دعوة قومية** ، بنص القرآن القاطع في تصاريحه الصريحة ، ومبادئه المتواترة .

أولاً : تصاريح القرآن في قومية دعوته ـ سبع مجموعات

١) ثلاثة تصاريح تحصر رسالة محمد في «أم القرى» وما حولها

يصرّح في سورة الأنعام : «وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدّق الذي بين يديه ، ولتنذير **أمّ القرى ومن حولها**» (٩٢) . فالدعوة القرآنية مكية حجازية . ويصرح في سورة الشورى : «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر **أم القرى ومن حولها**» (٧) . فالدعوة القرآنية مكية

حجازية . ويصرّح في سورة القصص : ((وما كان ربك مهلك القرى ، حتى يبعث في **أمّها** رسولاً)) (٥٩) . فمحمد هو أولاً رسول مكّة ، ثم رسول قراها ؛ فدعوته مكية حجازية والتصريح المتواتر بحصر الدعوة ((بأم القرى وما حولها)) (الأنعام ٩٢) يفسّر ما تشابه في قوله ((وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ، **ومَن بلغ**)) (الأنعام ١٩) . فالآية (٩٢) من السورة نفسها تفسر ما تشابه في الآية (١٩) من السورة ذاتها .

٢) خمسة تصاريح تجعل القرآن ذكراً قوميّاً

في الزخرف : ((**وإنه لذكر لك ولقومك**)) (٤٤) . فالقرآن دعوة قومية . وفي المؤمنين: ((بل آتيناهم **بذكرهم** ، فهم عن **ذكرهم** معرضون)) (٧١) . فالقرآن ذكر يخص العرب من دون سواهم ، فهو دعوة قومية . وفي الأنبياء : ((لقد أنزلنا **إليكم** كتابا فيه **ذكركم** ، أفلا تعقلون)) (١٠) . فالقرآن ذكر الى العرب ، نزل اليهم وحدهم ، فهو دعوة قومية . وفي الأنبياء أيضاً : ((**هذا ذكر مَن معي** ، وذكر من قبلي)) (٢٤) . فالقرآن ذكر مَن مع محمد من العرب ، يخصهم ولا يخص سواهم ، فهو دعوة قومية . وفي الطلاق : ((قد أنزل الله **إليكم** ذكراً ، رسولاً يتلو **عليكم** آيات الله مبيِّنات)) (١٠ و١١) . فالقرآن قومي ، والرسول قومي . فهذا التصريح الصريح المتواتر برهان على عقيدة قائمة في قومية الدعوة القرآنية ، وتزيل بتخصيصها ما تشابه في قوله : ((إن هو إلاّ ذكر للعالمين)) .

٣) سبعة تصاريح تجعل القرآن عربيّا للعرب

في يوسف : ((تلك آيات **الكتاب المبين** : إنّا أنزلناه **قرآناً عربياً** لعلكم تعقلون)) (١ - ٢) . فالكتاب المبين نزل قرآناً عربياً لكي يعقله العرب ؛ فهو دعوة قومية . وفي الرعد: ((والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ؛ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ... وكذلك أنزلناه حُكْما عربيّاً ، ولئن اتبعت **أهواءَهم** بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من وليّ ولا واق)) (٣٦ ـ ٣٧) . إنه يعدّد المخاطبين بالقرآن ، أهل الكتاب العرب ، وأحزاب القبائل العربية ، والمشركين العرب الذين يحذره من ((أهوائهم)) . فلهؤلاء جميعاً من مؤمنين ومترددين وكافرين ((أنزلناه حكماً عربيًّا)) أي **حكمة عربية للعرب . وفي طه : ((وكذلك**

أنزلناه قرآناً عربيّاً ، وصرفنا فيه من الوعيد **لعلّهم** يتقون ، أو يحدث **لهم** ذكرًا » (١١٣) . نزل قرآناً عربياً ليحدث للعرب ذكراً ولعلهم يتقون . وفي الزمر : «ولقد ضربنا **للناس** في هذا القرآن من كل مثل لعلّهم يتذكرون ، **قرآناً عربياً** غير ذي عوج لعلّهم يتقون» (٢٧ ـ ٢٨) . إن صفته ، «قرآناً عربياً» تحدّد معنى «الناس» النازل اليهم ، لعلهم يتذكرون ، ولعلهم يتقون : عربية القرآن تدل على عربية قومه . وفي فُصّلت : «حم . تنزيل من الرحمان الرحيم : كتاب ـ فُصّلت آياته **قرآناً عربياً** لقوم يعلمون» (١ ـ ٣) . إن تنزل الله في الكتاب قد فُصلت آياته قرآناً عربياً حتى يعلمها العرب . فهو دعوة عربية قومية . وفي الشورى: «وكذلك أوحينا إليك **قرآناً عربياً** ، لتنذر **أم القرى ومن حولها**» (٧) . هذا نص قاطع على أن عربية القرآن تدل على عربية قومه المخاطَبين به ، فقد نزل عربيّا لأم القرى ، مكّة ، ومَن حولها من الأعراب . وفي الزخرف : «حم . والكتاب المبين : إنا جعلناه **قرآناً عربياً** لعلكم تعقلون» (١ ـ ٣) . يقسم بالكتاب المبين إنه جعل الكتاب المبين قرآناً عربياً لكي يعقله العرب. فهو دعوة قومية عربية .

وهكذا فإن عربية القرآن برهان على رسالته العربية وقوميته العربية ؛ كما يدل عليها أيضاً تواتر تعابير الفهم والعلم والعقل من عربيته ؛ وكما يدل عليها تصريحه المتواتر بأن القرآن عربي لأم القرى ، مكّة ، ومَن حولها من الأعراب ؛ وكما يدل عليها قوله : «ولو جعلناه **قرآناً أعجمياً** ، لقالوا : لولا (هلاً) فُصّلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟» (فصلت ٤٤) أي «**أقرآن أعجمي ونبي عربي**» (الجلالان) . فعروبة النبي تقتضي عروبة القرآن وعروبة رسالته . فالنبي عربي والقرآن عربي : فالدعوة قومية عربية . وذلك بنص القرآن القاطع الذي لا مراء فيه .

٤) لسان النبي والقرآن برهان على قوميتهما

يصرّح : «وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين **بلسان عربي مبين** ... ولو نزّلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين» (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٩) . نزل القرآن بلسان عربي مبين لكي يفهموه ويؤمنوا به ؛ فلو نزل على أعجمي بلسان أعجمي ما كانوا به مؤمنين ، لأنهم لا يفهمونه . فتعريب التنزيل بلسان عربي مبين كان ليفهم العرب ويؤمنوا به . فالدعوة القرآنية ترجمة عربية لكتاب الله لكي يفهموه ويؤمنوا به . فلسانه العربي دليل على رسالته العربية القومية .

وبعروبة القرآن يردّ على من اتهمه بتعلّمه من أعجمي : ((ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ! ـ لسان الذي يُلحدون اليه أعجمي ، **وهذا لسان عربي مبين**)) (النحل ١٠٣) . فليس القرآن من أعجمي ، لأنه بلسان عربي مبين .

نبي عربي ، وقرآن عربي ، لتعريب الكتاب الإمام للعرب : ((ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة ؛ وهذا كتاب مصدّق **لساناً عربياً** : لينذر الذين ظلموا ، وبشرى للمحسنين)) من العرب (الأحقاف ١٢) فلسان النبي ، ولسان القرآن ، برهان مزدوج على قوميتهما .

٥) رسالة الرسول بين قوم تدل على قومية رسالته

المبدأ العام : ((الله أعلم حيث يجعل رسالته)) (الأنعام ١٢٤) . لذلك ((**لكل أمة رسول**)) (يونس ٤٧) ؛ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً)) (النحل ٣٦) ؛ ((وما كنّا معذّبين (المشركين العرب) حتى نبعث رسولا)) (الإسراء ١٥) ؛ ((وجاهدوا في الله حقَّ جهاده : هو اجتباكم (اختاركم) ... **ليكون الرسول شهيداً عليكم** ، وتكونوا شهداء على الناس)) في ديار العرب (الحج ٧٨) . فرسالة الرسول بين العرب تدل على أن رسالته قومية عربية .

تلك شهادة القرآن المتواترة بالتخصيص لرسالة محمد والقرآن بالعرب : ((لقد جاءَكم **رسول من أنفسكم** عزيز عليه ما **عنتّم** ، حريص **عليكم**)) (١٢٨:٩) ؛ كما طلب إبراهيم واسماعيل : ((ربنا وابعث **فيهم** ، رسولاً **منهم** ، يتلو عليهم **آياتك**)) (١٢٩:٢) ؛ وقد فعل الله: ((كما أرسلنا **فيكم** ، رسولا **منكم** ، يتلو **عليكم** آياتنا **ويزكيكم**)) (١٥١:٢) ـ لاحظ تواتر التخصيص . بمحمد والقرآن مَنَّ الله على العرب : ((لقد منَّ الله على المؤمنين (من العرب) إذ بعث **فيهم** رسولاً من **أنفسهم** ، يتلو **عليهم** آياته **ويزكّيهم**)) (١٦٤:٣) . فمحمد رسول الى أم القرى : ((وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ، يتلو **عليهم** آياتنا)) (القصص ٥٩) ؛ ((قد أنزل الله **إليكم** ذكراً ، رسولاً يتلو **عليكم** آيات الله مبيّنات)) (الطلاق ١٠ ـ ١١) . ومحمد رسول الى العرب شاهد عليهم : ((إنّا أرسلنا **إليكم** رسولاً شاهداً **عليكم** ؛ كما أرسلنا الى فرعون رسولاً)) (المزمّل ١٥) ؛ ((وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس (العرب) ويكون الرسول عليكم شهيداً)) (البقرة ١٤٣) . فتواتر التخصيص المتواصل في رسالة محمد برهان فاصل على أن دعوته قومية ورسالته عربية .

٦) إن رسالة محمد هي تعليم العرب الكتاب والحكمة

لقد طلب إبراهيم واسماعيل الى الله : ربنا وابعث **فيهم** (ذريتنا) رسولاً **منهم** يتلو **عليهم** آياتك **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ، ويزكيهم » (البقرة ١٢٩) لذلك « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة » (النساء ٥٤) ؛ « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » (النساء ١١٣) . وهذا كله كان ، حتى يعلّم محمد العرب الكتاب والحكمة : « كما أرسلنا **فيكم** رسولاً **منكم** يتلو **عليكم** آياتنا **ويزكيكم** ، **ويعلمكم الكتاب والحكمة**، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (البقرة ١٥١) . فالقرآن هو تعليم العرب الكتاب والحكمة . بهذا مَنَّ الله على العرب : « لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث **فيهم** رسولاً من **أنفسهم** ، يتلو **عليهم** آياته ، **ويزكيهم** ، **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران ١٦٤) .

إن محمداً من العرب أنفسهم لكي يعلم العرب الكتاب والحكمة : فليس أصرح ولا أوضح دلالة على قومية الرسالة (الجمعة ٢) .

٧) فمحمد هو « النبي الأمّي » للعرب الأميّين

صفة محمد أنه « **النبي الأمّي** » (الأعراف ١٥٧) ، وهذا « النبي الأمّي يؤمن بالله وكلمته » (الأعراف ١٥٨) ، فهو على صراط عيسى كلمة الله . وإنه « النبي الأمّي » لأنه من الأميّين العرب ، وللأميّين العرب : « هو الذي بعث في **الأميّين** رسولاً **منهم** ، يتلو **عليهم** آياته ، **ويزكيهم** ، **ويعلّمهم** الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (الجمعة ٢) . هذا التصريح يقطع كل مراء ومكابرة : إن محمداً نبي أمّي أي عربي ، للأميّين العرب: « هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم » .

ثانياً : سبعة مبادئ قرآنية تجعل القرآن دعوة قومية

١) المبدأ القرآني الأول : « لكل أمة رسول » ، ومحمد رسول الى العرب . المبدأ القرآني المتواتر ، المؤيد بالواقع النبوي المتواتر ، أن « **لكل أمة رسول** ، فإذا جاءَ **رسولهم** ، قُضي بينهم بالقسط ، وهم لا يُظلمون » (يونس ٤٧) . هذا المبدأ واقع تاريخي أيضاً : **ولقد بعثنا**

في كلّ أمة رسولا (النحل ٣٦) . إنه مبدأ قائم متواتر الى آخر العهد : «**ولكل قوم هاد**» (الرعد ٧) ؛ وواقع قائم متواتر : «وإنْ من أمّةٍ إلاّ خلا فيها نذير» (فاطر ٢٤) . ويطبق المبدأ والواقع على محمد مع العرب : «إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد» (الرعد ٧) فهو هادي قومه ، فهدايته قومية . ورسالته شهادة لقومه وعلى قومه : «ويوم نبعث في كل أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم ، **وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**» (النحل ٨٩) . فدعوته قومية : «تنزيل العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أُنذِر آباؤهم فهم غافلون» (يس ٥ ـ ٦) .

هذه النظرية القرآنية الأولى المتواترة أن «لكل قوم هاد» ومحمد شهيد على قومه ، تجزم بأن الدعوة القرآنية قومية .

٢) المبدأ القرآني الثاني : قومية الرسول تحدّد قومية رسالته . يعمل بوحي هذا المبدإ بمكّة : «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، **وجئنا بك شهيداً على هؤلاء**» (النحل ٨٩) . فمحمد رسول من العرب ، فهو رسول الى العرب . وهذه النظرية تدوم في المدينة : «لقد منَّ الله على المؤمنين ، إذ بعث **فيهم** رسولاً **من أنفسهم** ، يتلو **عليهم** آياته ، **ويزكيهم** ، **ويعلمهم** الكتاب والحكمة» (آل عمران ١٦٤) . فمحمد رسول من العرب أنفسهم ليعلّم العرب كتاب الله . وهذه القومية في الرسول والرسالة تدوم الى يوم الدين : «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، **وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ؟ يومئذ يودّ الذين كفروا **وعصوا الرسول** لو تسوّى بهم الأرض» (النساء ٤١ ـ ٤٢) .

هذه النظرية القرآنية الثانية تجزم أيضاً بتلازم قومية الرسول وقومية الرسالة . فمحمد رسول عربي : فرسالته قومية عربية في اليوم الحاضر ، وفي اليوم الآخر .

٣) المبدأ القرآني الثالث : لغة الرسول تحدّد قومية رسالته . إن المبدأ عام وصريح : «وما أرسلنا من رسول إلاّ **بلسان قومه** ليبيّن لهم» (إبراهيم ٤) . فلسان الرسول دليل على قومية رسالته . وجاء القرآن «بلسان عربي مبين» (الشعراء ١٩٥) لأنه نزل «**بلسان قومه** ليبيّن لهم» . والقرآن يركّز جدله معهم على عروبته وعروبة رسوله لكي يؤمنوا به : «وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، **بلسان عربي مبين** . ولو نزّلناه على **بعض الأعجمين ؛ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين**» (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٩) . فقد نزل قرآناً عربياً لكي يفهموه ويعقلوه ، ولا يحتجوا عليه بلسانه : «ولو جعلناه قرآناً

أعجمياً (كالتوراة والإنجيل) لقالوا : لولا فُصّلت آياته ؟ أأعجمي ، وعربي ؟ » (فصّلت ٤٤) أي « أقرآن أعجمي ، ونبي عربي » (الجلالان) . فعروبة النبي تقتضي عروبة القرآن ، وعروبة النبي والقرآن تقتضي عروبة رسالته وقوميتها . فهم إنما غفلوا عن دراسة التوراة والإنجيل لأنهما بغير لسانهم ، فهذا كتاب لهم بلسانهم : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، فاتّبعوه واتّقوا لعلكم ترحمون ؛ أنْ تقولوا : إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإنْ كنا عن دراستهم لغافلين » (الأنعام ١٥٥) لأنهما ليسا بلسان العرب . فهذا كتاب بلسان العرب ، يتلو عليهم آياته « رسول من أنفسهم » وهذه مِنّة الله على العرب : « لقد منَّ الله على المؤمنين (العرب) إذ بعث فيهم **رسولاً من أنفسهم** ، يتلو **عليهم** آياته ، **ويزكّيهم** ، **ويعلمهم** الكتاب والحكمة ، وإنْ كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (آل عمران ١٦٤) .

فلسان الرسول يحدّد قومية رسالته ؛ وعروبة لسان محمد تحصر رسالته في بني قومه العرب . هذا هو مبدأ القرآن وبرهنته في هذه النظرية الثالثة .

٤) المبدأ القرآني الرابع : لغة القرآن تحدّد رسالته القومية العربية . في اثني عشر وضعاً يصرّح بأن القرآن نزل « عربيًّا » لكي يفهمه العرب . منها : « حم . والكتاب المبين ، إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (الزخرف ١ ـ ٣) . فقد **نزل قرآناً عربياً لأم القرى ومن حولها** . « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى (مكّة) ومّن حولها » (الشورى ٧) . وما نزل القرآن عربياً إلاّ لأنه ذكر لمحمد وقومه : « **وانه لذكر لك ولقومك** ، وسوف تُسألون » (الزخرف ٤٤) . فمحمد هو « **النبي الأمّي** » أي العربي ، لأن رسالته مختصة بالعرب ، محصورة فيهم : « هو الذي بعث في **الأميّين (العرب)** رسولا منهم » (الجمعة ٢) .

فهذه النظرية القرآنية الرابعة تجزم بأن لغة القرآن تحصر رسالته في العرب ، وتقتصرها عليهم .

٥) المبدأ القرآني الخامس : القرآن دعوة الى « ملّة إبراهيم » باسماعيل ، جدّ العرب المستعربة . يفتتح القرآن المدني دعوته بصلاة إبراهيم ، « إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، واسماعيل : ربنا تقبّل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ... ربنا وابعث **فيهم** رسولاً **منهم** يتلو **عليهم** آياتك ، **ويعلمهم** الكتاب والحكمة، **ويزكيهم** ، إنك أنت العزيز الحكيم ـ ومَن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ مَن

سَفِه نفسه ›› (البقرة ١٢٧ ـ ١٣٠) ، والدعوة القرآنية الى ملّة إبراهيم ، جد العرب باسماعيل، متواترة في القرآن . فهو يجعل اسلام القرآن ، على ملّة إبراهيم باسماعيل ، اسماعيليّاً عربيّاً ، للاسماعيليين العرب . فاسلام القرآن هو لذرية اسماعيل ، على ملّة إبراهيم .

٦) **المبدأ القرآني السادس** : القرآن دعوة الى الحنيفية ، دين إبراهيم ، جد العرب باسماعيل يصرح : ‹‹ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله ، حنيفاً ، ولم يكُ من المشركين ... ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ›› (النحل ١٢٠ ـ ١٢٣) . ويؤكد : ‹‹أقم وجهك للدين حنيفاً ›› (يونس ١٠٥ ؛ الروم ٣٠) . ويدعو الى حنيفية إبراهيم : ‹‹وقالوا ؛ كونوا هوداً ـ أو نصارى ـ تهتدوا ؛ بل ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ›› (البقرة ١٣٥) ، ‹‹ قلْ : صدق الله ، فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ›› (آل عمران ٩٥) ؛ ‹‹ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، وهو محسن ، واتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ›› (النساء ١٢٥) . فالحنيفية الإبراهيمية هي في اتباع ملّة إبراهيم ، على طريقة المحسنين من آله . هذا هو الدين القيّم : ‹‹قلْ إنني هداني ربي الى صراط مستقيم ، دينا قيّماً ، ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ›› (الأنعام ١٦١) . وحنيفية إبراهيم هي الإسلام ؛ ‹‹ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً (بمعنى مسيحي) ، ولكن كان **حنيفاً مسلماً** ـ وما كان من المشركين ›› (آل عمران ٦٧) . وهذا الإسلام الحنيف يدعو اليه القرآن مع أولي العلم المقسطين ، أي النصارى من بني إسرائيل ، الذين يشهدون مع الله وملائكته : ‹‹ إن الدين عند الله الإسلام ›› (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . فجماعة محمد من العرب هم مسلمون لأنهم على **ملة أبيهم** إبراهيم ، وهو الذي سماهم المسلمين في الكتاب والقرآن : ‹‹وجاهدوا في الله حقّ جهاده : هو اجتباكم (اختاركم) ... ملة أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ، ليكون الرسول **شهيداً عليكم** ، وتكونوا شهداء على الناس ›› من العرب (الحج ٧٨) . فالإسلام الذي يدعو اليه القرآن هو الحنيفية المسلمة ، ملة أبيهم إبراهيم . فالدعوة القرآنية قومية للعرب ، على ملة أبيهم إبراهيم . فالدعوة والداعي والمدعوّون ، قوم إبراهيم باسماعيل ، جد العرب .

٧) **المبدأ القرآني السابع** : شعائر الإسلام القرآني تجعله ديناً قومياً عربياً اسماعيلياً . كعبته هي كعبة إبراهيم واسماعيل : ‹‹واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ، واسماعيل ›› (البقرة ١٢٧) . قبلته هي قبلة إبراهيم واسماعيل ، ‹‹ولكل أمة جعلنا منسكاً ، ليذكروا اسم

الله ﴾ (الحج ٣٤) ؛ ﴿ومن حيث خرجتَ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ، لئلاّ يكون للناس عليكم حجة﴾ (البقرة ١٥٠) . فالقبلة تميّزهم عن سواهم من الناس ، فلا يحتجون عليهم بها . وهذه القبلة هي شعار ﴿الأمة الوسط﴾ ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً : ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ ليعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه﴾ (البقرة ١٤٣) . فتحويل القبلة الى كعبة مكّة تميّز العرب المسلمين من سواهم .

وحجه هو حج إبراهيم واسماعيل : ﴿واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ... وعهدنا الى إبراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُكّع السجود﴾ (البقرة ١٢٥) .

والبلد الحرام هو بلد إبراهيم واسماعيل ، وذريته المسلمة : ﴿واذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات ، مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ (البقرة ١٢٦) .

فشعائر الإسلام في القرآن تجعله ديناً قوميّاً عربيّاً إبراهيميّاً اسماعيليّاً . والقول الفصل: ﴿إنه ذكر لك ولقومك﴾ في كل مبادئه وتصاريحه ؛ وإن محمداً هو ﴿النبي الأمّي﴾ ، اي العربي ، لأن الله ﴿هو الذي بعث في الأميّين (العرب) رسولاً منهم﴾ . فمحمد رسول الى ﴿الأميّين﴾ العرب : فرسالته قومية عربية . وهكذا فإن مبادئ القرآن كلها ، وتصاريح القرآن كلها ، تشهد بلا مراء ولا ريب ، أن الدعوة القرآنية قومية عربية ، لا عالمية في نصّها ؛ إنما أمست عالمية بالفتوحات الإسلامية .

ثالثاً : آيات متشابهات في عمومية الدعوة وعالميتها

من تلك المبادئ الجازمة ، وتلك التصاريح الحازمة ، وكلها **قاطعة جامعة مانعة** ، نأتي الى بعض آيات متشابهات يُظن فيها تنويها بعمومية الدعوة القرآنية وعالميتها ، يفسّرها التفسير الصحيح **أسلوب القرآن** في البيان والتبيين .

١) منها قوله المتواتر : ﴿إنْ هو إلاّ ذكر للعالمين﴾ (١٢:١٠٤ ؛ ٣٨:٨٧ ؛ ٨١:٢٧ ؛ ٦٨:٥٢) . فتعبير ﴿العالمين﴾ في هذه المواطن عام يُقصد به الخاص ، وهو أسلوب متواتر في القرآن ، كما تدل عليه القرائن القريبة والبعيدة . هكذا قوله في سورة يوسف : ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين . وما **تسألهم** عليه من أجر ، إنْ هو الاّ ذكر للعالمين . وكأين من

آية في السماوات والأرض **يمرون** عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن **أكثرهم** بالله إلاّ وهم مشركون)) (١٠٣ ـ ١٠٦) ـ فالقرائن اللفظية والمعنوية ، من قبلُ ومن بعدُ ، إن تعبير ((العالمين)) عام مراد به الخصوص في الحجاز والجزيرة . وهكذا قوله : ((إنْ هو إلاّ ذكر للعالمين ، لمَنْ شاء **منكم** أن يستقيم . وما تشاؤون ، إلاّ أن يشاء الله رب العالمين)) (التكوير ٢٧ ـ ٢٩) ـ فتعبير ((ذكر للعالمين)) مقيد للحال بما يليه : ((لمن شاء **منكم**)) فالعالمون هم المخاطبون من العرب ؛ أما تعبير ((رب العالمين)) فهو مطلق لا يقيده شيء ، فهو عام .

٢) منها قوله : ((وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن **للناس** ما نُزِّل اليهم ولعلهم يتفكّرون)) (النحل ٤٤) ؛ وقوله : ((قلْ يا أيها **الناس** إني رسول الله إليكم جميعا ... فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي)) (الأعراف ١٥٨) . هذه الصفة ((جميعاً)) لا تدل على أن المقصود ((بالناس)) جميع البشر ، بل هو أسلوب بياني مضطرد في القرآن ، حيث العام فيه يراد به الخصوص ، ومن العام ما هو مخصوص . وللسيوطي في (الإتقان ٢:١٦ ـ ١٨) فصل قيم على النوعين ، قال: ((ومن أمثلة العام المراد به الخصوص قوله تعالى (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) والقائل واحد ، نعيم بن مسعود الأشجعي ، أو أعرابي من خزاعة ... وممّا يقوّي أن المراد به واحد قوله : (انما **ذلكم الشيطان**) فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) الى واحد بعينه ، **ولو كان المراد به جمعاً** لقال : (انما **أولئكم**) الشيطان ، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ . ومنه قوله : (أم يحسدون **الناس**) أي رسول الله ﷺ . ومنها قوله : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) [١] . أما **العام المخصوص** فأمثلته في القرآن كثيرة جداً ، وهي أكثر من المنسوخ ، **إذ ما من عام إلاّ وقد خُصّ** . ثم المخصّص له إمّا متّصل ، وإمّا منفصل ، والمنفصل آية أخرى في محل آخر)) .

هكذا في حديث ((النبي الأمّي)) حيث يقول : ((يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً... فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي)) (الأعراف ١٥٨) فالمخصص له المنفصل هو قوله: ((هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم)) (الجمعة ٢) . فليس محمد رسولاً للبشرية جمعاء ، بل للأميّين العرب .

٣) ومنها قوله : ((وما أرسلناك إلاّ **كافة للناس** بشيراً ونذيراً)) (سبأ ٢٨) . فقد يظن أن معناه ((**للناس كافة**)) ، فيظن أن رسالة محمد عالمية . لكنّ الصفة في العربية لا ترد قبل

---

(١) هو خطاب لقريش بالأفاضة من حيث يفيض سائر العرب في الحج .

الموصوف . جاءَ أيضاً في (الإتقان ٢:٨٤) : ((نقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر ، إن من التورية في القرآن قوله (وما أرسلناك إلاّ كافة للناس) فان ((كافة)) بمعنى مانع أي تكفهم عن الكفر والمعصية ، **والتاء للمبالغة** ، وهذا معنى بعيد ، والمعنى القريب المتبادر أن المراد (جامعة) بمعنى (جميعاً) ، لكن **منع من حمله على ذلك أن التأكيد يتراخى عن المؤكّد** ؛ فكما لا تقول (رأيت جميعاً الناس) لا تقول (رأيت كافة الناس))) . ويدعم هذا التفسير قوله في الحديث : ((أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة)) أي كافّا عن الشرك ، والتاء المربوطة للمبالغة .

والقرائن القريبة والبعيدة للآية ((كافة للناس)) (سبأ ٢٨) ترفع كل شبهة . فهو **قبلها** يعلن أن رسالة محمد محصورة ((بأم القرى ومن حولها)) (الأنعام ٩٢) ، ويؤكد ذلك **بعدها** ، فيحصرها ((بأم القرى ومَن حولها)) (الشورى ٧) .

٤) ومنها قوله في سورة الأنبياء : ((وما أرسلناك إلاّ **رحمة للعالمين**)) (١٠٧) ـ فلا يدل على عالمية الدعوة ، لأنه في السورة عينها يصرّح مرتين بأنها خاصة للعرب : ((لقد أنزلنا **إليكم** كتاباً فيه **ذكركم** ، أفلا تعقلون)) (الأنبياء ١٠) ؛ ((هذا **ذكر مَن معي** وذكر مَن قبلي)) (الأنبياء ٢٤) ، ومن كان معه في مكّة سوى نفر من أهلها ؟

٥) ومنها قوله : ((تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده **ليكون للعالمين نذيراً**)) (الفرقان ١) . هو عام يُراد به الخاص ، بحسب أسلوب القرآن البياني . ولا تأتي كلمة ((العالمين)) على اطلاقها الى مضافة الى الله ، رب العالمين .

جاء في تفسير الطبري [1] : ((قال أبو جعفر : العالمون جمع عالم ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه . والعالم اسم لأصناف الأمم ، **وكل صنف منها عالم** . وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان . فالإنس عالم ، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان . وكذلك سائر أجناس الخلق ، كل جنس منه عالم زمانه . **وهذا القول هو معنى قول عامّة المفسرين**)) ، ثم يعطي على ذلك مثلاً في وصف اليهود: ((وإني فضلتكم على العالمين)) (البقرة ٤٧) ويقول : ((أخرج **جلّ ذكره قوله مخرج العموم ، وهو يريد به خصوصاً** ، لأن

---

(١) **تفسير الطبري** ـ تحقيق الأخوين شاكر ١:١٤٣.

المعنى : إني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه أي فضلهم على عالم ذلك الزمان)) .

هكذا فإن اقتران النبي أو القرآن بلفظ ((العالمين)) يقصد به المخاطبين من العرب والنتيجة الحاسمة في مثل تلك الآيات المتشابهات التي يدل ظاهرها على عمومية الدعوة القرآنية ، أنها تخضع في مدلولها لأساليب البيان العربي والقرآني . منها **أسلوب اخراج الخاص مخرج العام** ، كما مرّ بنا . ومنها **الإخبار عن الواحد بمذهب الجمع** [1] ، كما في تفسير الطبري أيضاً : ((فنادته **الملائكة** وهو قائم يصلي في المحراب (آل عمران ٣٩) ، إذ قالت **الملائكة** يا مريم (آل عمران ٤٥) ـ قيل جبريل . فإن قال قائل : كيف جاز أن يقال على هذا التأويل (الملائكة) وهي جمع لا واحد ـ قيل : ذلك جائز في كلام العرب **بأن تُخبر عن الواحد بمذهب الجمع** . كما يقال في الكلام : (خرج فلان على بغال البرد) وانما ركب بغلا واحدا ؛ (وركب السفن) ، وانما ركب سفينة واحدة ؛ وكما يقال (ممن سمعت هذا الخبر)؟ فيقال : (من الناس) وإنما سمعه من رجل واحد . وقد قيل إن منه قوله : (الذين قال لهم **الناس**؛ ان **الناس** قد جمعوا لكم ـ آل عمران ١٧٣) والقائل كان فيما ذُكر واحداً . وقوله : (**اذا مسَّ الناس ضرٌّ** ـ الروم ٣٣) والناس بمعنى واحد منهم . **وذلك جائز عندهم**)) .

نلاحظ في لهجة الطبري نزعته الآرية تجاه السامية ، والايرانية تجاه العربية ، في بيان الفارق في التعبير والتفكير ، بين البيان العربي والبيان الآري . وقد أوجز ذلك منذ القديم ابن قتيبة في كتابه (مشكل القرآن) . قال : ((وللعرب المجازات في الكلام . ففيها ... **مخاطبة الواحد مخاطبة الجميع** ؛ والجميع خطاب الواحد ؛ والواحد والجميع خطاب الاثنين . والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص)) . وهذا ما جاء به القرآن في آياته المتشابهات التي توهم عمومية الدعوة القرآنية . فالتشابه في الآيات التي قد يظهر منها عمومية الدعوة القرآنية ، انما يرجع الى أساليب البيان العربي والقرآني . إنها آيات متشابهات في عمومية الدعوة وعالميتها ، وهي **دعوة قومية عربية** ، كما تبرهن تصاريح القرآن ومبادئه المتواترة .

---

(١) أو لمذهب المثنّى كما رأى الفراء في (معاني القرآن) في قوله : ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) ـ وقد يكون من العربية جنة واحدة تثنيها العرب . وقد يستعمل المفرد في مكان الجمع : ((سيُهزم الجمع ويولون الدبر)) أي الأدبار .

رابعاً : من دلائل التاريخ الخاص والعام

١ـ قيل : إن مكاتبة الملوك والامراء قيصر وكسرى والمقوقس وولاتهم ، خير دليل على أن الدعوة الإسلامية كانت عامة عالمية لكل الناس . لكن يطعن في صحة تلك المكاتبات أنها مذكورة بالاجماع قبل فتح مكّة . لم يكن النبي قد فتح الحجاز ، فكيف به يكاتب قيصر وكسرى ليدينوا بالإسلام ، كقوله الى هرقل عظيم الروم : ((أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، **أَسلِمْ تسلمْ**)) ، كما أخرجه صحيح البخاري وصحيح مسلم عن ابن عباس . إن منطق الأحداث يدفع هذه الغلواء عن النبي الحصين . وليس في القرآن كله ، قبل فتح مكّة ، ما يشير الى مثل تلك الرغبة في فتح العالم للإسلام .

٢ـ قيل : إن في غزوة مؤتة ، وغزوة تبوك ، الى مشارف الشام ، دليلاً على أمل فتح دولة الروم للاسلام . لكن ظروف الغزوتين التاريخية تدل على أن محمداً كان يبغي نصارى العرب عند مشارف الشام والعراق ، لا الروم ولا دولتهم ؛ لا الفرس ولا دولتهم . ولا شك أن العصبية العربية ستحملهم على قبول دعوته الدينية والقومية ، في سبيل الاستقلال الديني والقومي عن الشرق وثنائيته في مجوسيته ، وعن الغرب وتثليثه في مسيحيته ، كما يقول في فتح شمال الحجاز : ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)) (الفتح ٢٨) . ولم تكن فكرة المغانم ببعيدة عن أهدافه ، كما يقول أيضاً : ((وعدكم الله **مغانم كثيرة** تأخذونها فعجّل لكم هذه)) (الفتح ٢٠) . وكان محمد يعلم أن أمراء الحيرة وبصرى كانوا حينئذ على خلاف مع أسيادهم . فأرسل الى ذات الطلْح خمسة عشر من رجاله يدعون للإسلام . فقتلوهم جميعا ، لم ينج منهم إلاّ رئيسهم ، رجع فأخبر النبي . فعرضت الفرصة النادرة لتسيير أول غزوة الى بلاد الروم . فجهَّز ثلاثة آلاف لتأديب الغادرين بدعاته. وكثر الزعماء بين المحاربين ، فسُمّي الجيش جيش الأمراء ، والسرية سرية الأمراء .

سار القوم حتى بلغوا معان ، من أرض البلقاء . فتصدّى لهم من بصرى شرحبيل بن عمرو الغسّاني ، عامل هرقل ، في جموع غفيرة من نصارى العرب ، عند مآب من البلقاء ، والتقى الجمعان في قرية ((مشارف)) . فشعر المسلمون أن لا قِبَلَ لهم بقتال هذا الجيش العرم، فانحازوا الى مؤته ، قرب معان ، يتحصنون بها من ملاقاة العدو . لكن جيش العرب

النصارى أحاط بهم ، فكان لا بدّ من القتال . فدارت رحى الحرب على المسلمين ، وقتل الأمراء الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة . فاستلم القيادة المسلم الجديد خالد بن الوليد ، وأظهر مقدرة فائقة في تدبير انسحاب جيشه من المعركة . واقتنعوا من الهزيمة والغنيمة بالإياب .

هذا هو التاريخ الحق . لكن ، لكي يُظهر نية الفتح الإسلامي في الغزوة ، قالوا: «فلمّا وصل المسلمون الى معان ، عرفوا أن في انتظارهم ماية ألف من الروم ، وماية ألف أخرى من نصارى العرب» [١] وكان الجيش بقيادة هرقل نفسه . والمؤرخ الرومي ثوفانس [٢] يذكر أن جيش الشام كان من العرب النصارى وحدهم ، المقيمين على الثغور لحمايتها من الأعراب؛ وهو لا يمكن أن يبلغ ماية ألف . وهرقل الذي غزا الفرس وكسرهم لم يكن معه ماية ألف ، حتى يجمع للأعراب ماية ألف من الروم غير ماية ألف من العرب ! فتلك المبالغات والمغالطات تحريف للتاريخ . والقضية كلها تنحصر بين عرب الحجاز وعرب بني غسان النصارى ، **لغاية قومية دينية** ، لا تخلو من روح الغزو والغنيمة . وبما أن غزوة مؤتة وقعت في ايلول سنة ٦٢٩ م . قبل فتح مكّة في كانون الثاني سنة ٦٣٠ م . فليس في منطق الأحداث ما يدل على نقل الإسلام الى الروم .

وبعد فتح مكّة ، حاول محمد فتح الطائف . فامتنعت ثقيف في حصونها . واضطرّ محمد أن يرفع الحصار وأن يرحل عنها خائباً . وإنها لخُطّة ثابتة في سيرة النبي من أنه إذا فشل في جهة استعاض بحملة الى جهة أخرى . وبعد أن استتب له الأمر في الحجاز كله ، واطمأن بتصفية اليهود ، وجّه أنظاره في آخر أيامه الى العرب المسيحيين في الشام واليمن . وبدأ بالشمال لأن دويلاتهم كانت أضعف من اليمن ، وأضعف من أن تقاومه ، وقد استطاع أن يجمع لغزوهم جيشاً عظيماً بلغ **ثلاثين ألفاً قاده بنفسه** . وسبب الحملة الثأر من فشل غزوة مؤتة ، وتأمين طريق القوافل ، فإن قبائل العرب المسيحيين على حدود الشام تجرّأت أكثر من ذي قبل على القوافل بعد ما كان من فشل غزوة مؤتة . وفي (أسباب النّزول) [٣] : «أخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : **اغزوا تغنموا بنات الأصفر !** فقال ناس من المنافقين : إنه ليفتنكم بالنساء ، فنزلت» .

---

(١) محمد الغزالي : **فقه السيرة** ٣٩٦.
(٢) Cf. Blachère: **le Problème de Mahomet**, p. 113
(٣) السيوطي ، **أسباب النّزول** على الآية (٤٩) من سورة التوبة

«ووصل النبي ﷺ تبوك بعد عشرين يوماً وعسكر فيها ولم يتعدَّها» [1] . «ولكن الروم لم يتعرّضوا للرسول . فعقد الرسول معاهدات مع البلدات المتاخمة للحجاز كأيلة (العقبة) وأذرح وجرباء ومَقْنا ، وفرض على كل بلدة جزية معينة» [2] .

إن عدم تعرض جيش الروم ، القافل من سحق جيش كسرى ، للعرب ؛ واكتفاء النبي بتلك المعاهدات مع الإمارات العربية ، دليل على أن الروم لم يفكّروا بغزو الحجاز واكتفوا بعملائهم من العرب المسيحيين على حماية الثغور من الأعراب ؛ ودليل أيضاً على أن محمداً لم يكن يفكّر بغزو الروم، بل كان يفرح بنصرهم على الفرس الوثنيين (سورة الروم ٢ ـ ٣). إنما حصر همه كله في **جمْع كلمة العرب في وحدة دينية وقومية** .

٣ ـ قيل أخيراً : إن فتح المسلمين لدولة الأكاسرة ودولة القياصرة برهان على أن الإسلام منذ تأسيسه دعوة عالمية .

إن الفتوحات العربية في صدر الإسلام لم تكن جديدة على عرب الجزيرة . فمنذ خمسة آلاف سنة ، تقوم على رأس كل ألف هجرة كبرى من الجزيرة الى الهلال الخصيب وتؤسس فيه أمماً ودولاً . وفي الألف الأخير قبل الإسلام هاجرت قبائل عديدة الى أطراف الهلال الخصيب فكانت لهم ديار ربيعة ، وديار بكر ؛ وأسست بعض القبائل دويلات مستقلة في تدمر (الزّباء) والبلقاء (دولة الأنباط) والحيرة (دولة المناذرة) وبصرى (دولة بني غسان). ولكن الهجرة العربية الكبرى الى الهلال الخصيب في العراق والشام كانت حملة الخلفاء الراشدين . فهي في منطق سابقاتها . ولم تكن لحمل الإسلام الى غير العرب . إنما كانت كمخرج لحروب الردّة ، خشية انقسام العرب بعد وحدتهم الإسلامية . وكان الاغراء بالفتوحات لصرفهم عن الاقتتال الأهلي الى الغزو والفتح . ولا يُستبعد بعد الفتوحات العظيمة، أن تطورت الفكرة الى الفتح الديني بالدعوة العسكرية والسلمية الى الإسلام . **فكانت الدعوة الدينية نتيجة الفتوحات ، لا سببها** ، ولو جدّد الإسلام فيهم روح العزّة العربية .

---

(١) **السيرة** لابن هشام ٤:١٦٢.
(٢) عمر فرّوخ : **العرب والإسلام** ص ٥٤.

خاتمة

القول الفصل في تصاريح القرآن

وفي الختام ، مهما يكن من أمر التاريخ ، فلدينا القول الفصل في القرآن الكريم . إن جميع تصاريحه ، وجميع مبادئه تقضي بأن الدعوة القرآنية كانت دعوة قومية ، لا دعوة عامة عالمية في ذاتها ـ صارت عالمية بعد محمد بالفتوحات الإسلامية ـ فهل من إعجاز في شمول الدعوة لتصحيح وتتميم ما سبقها من جميع الدعوات الكتابية والأميّة ؟ وهل من إعجاز في شمول الدعوة في موضوعها ليشمل شؤون الدنيا والآخرة ، ومشاكل الجسد والروح ، ومسائل الدين والدولة ؟ وهل من إعجاز في شمول الدعوة «للعالمين» ؟

الجزء الثالث

معجزة حفظ القرآن

توطئة

إعجاز القرآن في نظمه قائم على معجزة

((حفظه)) في حرفه

الإجماع على أن إعجاز القرآن في نظمه ، كما نادى بذلك أهل الإعجاز منذ الجاحظ . والإعجاز في النظم واللفظ يقتضي معجزة ((حفظ)) القرآن سالماً كما نزل .

ويقولون : ان القرآن تنبّأ بمعجزة ((حفظ)) القرآن سالماً كما نزل بقوله : ((إنّا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون)) (الحجر ٩) . والواقع التاريخي في تدوين القرآن بالحرف العثماني شاهد على تتميم النبوّة بحفظه ، وقيام المعجزة بحفظ القرآن بحرفه سالماً كما نزل .

لكن ليس في آية ((الحفظ)) ركيزة قرآنية للقول بنبوءة ومعجزة في حفظ القرآن ؛ وليس في وسائل حفظ القرآن قبل جمعه من ضمانة كافية للقول بمعجزة في حفظه ؛ وليس في الرخص النبوية لقراءة القرآن قبل جمعه من طُمأنينة كافية للقول بمعجزة في حفظة ؛

وليس في تاريخ تدوين القرآن ما يمكّن القول بمعجزة في حفظه . فقوله : ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون﴾ (الحجر ٩) ليس بمعجزة له .

لذلك فإن ما حُفظ من القرآن جليل يستحق التقدير ، لكن ليس في ﴿حفظ﴾ القرآن معجزة إلهية تميّزه وينفرد بها على كل تنزيل .

بحث أول

معنى آية الحفظ

إن معجزة إعجاز القرآن في حرفه تقوم على معجزة حفظه سالماً كما أنزل . ويقولون إن في قوله : ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون﴾ (الحجر ٩) نبوءة عن حفظه ، وشهادة بمعجزة حفظه . وفاتهم أن القرائن القريبة والبعيدة لا تقتصر ﴿الذكر﴾ على القرآن ، بل هو مرادف للكتاب ، كما أن ﴿أهل الذكر﴾ مرادف ﴿لأهل الكتاب﴾ .

ترد آية الحفظ في ردّه عليهم في تهمة الجنون : ﴿وقالوا : يا أيها الذي نزّل عليه الذكر ، إنك لمجنون ! لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين !

(ردّ اول) ـ ما نزّل الملائكة إلاّ بالحق ، وما كانوا إذاً منظَرين !

(جملة معترضة) ـ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون

(ردّ ثانٍ) ـ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزِئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به ، وقد خلق سُنّة الأولين .

(ردّ ثالث) ـ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : ﴿إنما سُكّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون﴾! (٦ ـ ١٥) .

يعتبر المشركون ادعاء تنزيل الذكر على محمد جنوناً ، ويطلبون شاهداً على صحة ادعائه من إتيان الملائكة معه . فيردّ عليهم أولاً بأن نزول الملائكة مع القرآن سبب بلاء عظيم لهم

(٨) . ويرد عليهم ثانياً بأن الاستهزاء بالرسل مرض قديم وأن سُنّة اللهِ هي تعذيبهم بتكذيب أنبيائهم (١٠ ـ ١٣) . ويرد عليهم ثالثاً بأنه اذا فتح الله باباً من السماء فظل الملائكة فيه يعرجون ، لقالوا : انما سُكّرت أبصارنا ! بل نحن قوم مسحورون ! (١٤ ـ ١٥) .

فالأجوبة الثلاثة متناسقة مترابطة في الردّ عليهم . **لكن ما صلة حفظ الذكر بالرد على تهمة الجنون أو تنزيل الملائكة ؟** إنها آية مقحمة على السياق ، فهي في غير موضعها .

ثم نلاحظ الإطلاق في تعبير «**الذكر**» في الآية (٩) كما في الآية (٦) . فليس التعبير خاصا بالقرآن حتى يكون تعهّد الله بحفظه خاصا بالقرآن وحده . **فالذكر ، في لغة القرآن ، مرادف للكتاب** . وعلى الحصر ، فهو مخصوص بالتوراة ، كقوله : «ولقد كتبنا في الزبور ، من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (الأنبياء ١٠٥) ؛ كما هو مخصوص بالإنجيل كقوله : «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» (آل عمران ٥٨) . «ذلك» أي قصص عيسى وآل عمران (٣٣ ـ ٥٨) . **فالذكر الحكيم** ، خلافاً لما يتوهمه العامة ، مرادف للإنجيل . وتخصيص الذكر بالكتاب ، أي التوراة والإنجيل ، يتّضح من تسمية القرآن «أهل الكتاب» «أهل الذكر» : «فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزبر» (النحل ٤٣ ـ ٤٤) ؛ كقوله دائما : «فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون» (الأنبياء ٧) . فالذكر على الإطلاق هو الذي عند أهل الكتاب ، أهل الذكر . وما الذكر الذي نزل على محمد سوى تفصيل للذكر الحكيم ، كما أن القرآن هو «تفصيل الكتاب» (يونس ٣٧) . فإنه بعد استشهاده بأهل الذكر يقول للحال : «وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزل اليهم ولعلّهم يتفكرون» (النحل ٤٤) . فالذكر نزل في الكتاب الإمام ، «والذكر الحكيم» نزل في الإنجيل ؛ **والقرآن انما هو بيان الذكر الذي نزل من قبل للناس** . فتعهد الله بحفظ الذكر المنزل إنما يتعلّق أولاً بالكتاب ثم بالقرآن .

ومطلع سورة الحجر يشهد بذلك : «آلر . تلك آيات الكتاب ، وقرآن مبين» (١) . إن النبي ، كما يظهر من الاشارة «**تلك**» قد تلا «آيات الكتاب» في قرآن عربي مبين لها ، ثم علّق عليها بما تيسّر في سورة الحجر . فاسم الاشارة «تلك» يتعلق بما سبق ، لا بما يأتي . فالذكر الذي يتعهد الله بحفظه هو «آيات الكتاب وقرآنٍ مبين» ، قبل ما يأتي في سورة الحجر، وسائر سور القرآن العربي .

وتنزيل «الذكر» الى النبي العربي ، تعبير متشابه لا يجزم بكيفيّة ، كقوله في السورة عينها : «وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ، **وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم** . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء ، فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين» (الحجر ٢١ ـ ٢٢) . فالله أنزل القرآن العربي ، كما أنزل من السماء ماء ، وكما ينزّل من كل شيء بقدر معلوم . فتنزيل القرآن هو «تفصيل الكتاب» (يونس ٣٧) ، وهو «تيسير» القرآن أي الكتاب للذكر ، كما يردّد: «ولقد يسّرنا القرآن للذكر» (القمر ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠) ؛ وكما يُقسم : «والقرآن ذي الذكر» (ص ١) ، فلا يكون القرآن العربي المقسَم به والمقسَم عليه معاً : فهو يقسم «بالقرآن ذي الذكر» على أمر ما ، «وجواب هذا القسم محذوف» (الجلالان) . فالقرآن ذو الذكر هو الكتاب الإمام ! «والذّكر الحكيم» هو الإنجيل . فالذكر على الإطلاق الذي تعهّد الله بحفظه هو أولاً الكتاب ، أي التوراة والإنجيل ، ثم القرآن العربي ، لأنه «تفصيل الكتاب» (يونس ٣٧) وتلاوة من آي «الذكر الحكيم» . هذا معنى آية «الحفظ في قرائنها القريبة والبعيدة . فليس فيها برهان على نبوءة بحفظ القرآن العربي ، ولا على معجزة في حفظه سالماً .

وحفظ القرآن العربي قد يقوم بتواتر معناه من دون حرفه . فقد أجاز النبي ، وعمل الخلفاء الراشدون **بإجازة قراءَة القرآن العربي بالمعنى من دون الحرف** . وهم إنما أجازوا قراءَة القرآن العربي بالمعنى من دون الحرف ، لأنها في نظرهم «لم تختلف في شيء من شرائع الإسلام ؛ ولا يتنافى هذا مع قوله جلّ شأنه (إنّا نحن نزّلنا الذكر ، وإنّا له لحافظون) لأن **المراد بالحفظ مفهوم الألفاظ لا منطوقها** ... لأن الألفاظ ما صِيغتْ إلاَّ ليُستَدلّ بها على معانٍ مخصوصة ، قُصد بها أوامر ونواه ، وعبادات ومعاملات . وجميعها مصان محفوظ مهما تقادم الدهر وتطاول العمر» [1] .

فحفظ القرآن العربي لا يقتضي حفظ حرفه ، بل حفظ معناه . وهذه النتيجة الحاسمة ، القائمة على رخصة قراءَة القرآن بالمعنى من دون الحرف ، قبل جمعه ، شبهة قائمة على سلامة حفظ حرف القرآن من التحريف أو على إعجاز الحرف العثماني . فليس في آية «الحفظ» (الحجر ٩) نبوءة بحفظ القرآن العربي ؛ وليس فيها شهادة بمعجزة حفظه سالماً كما نزل .

---

(١) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ٥٢.

بحث ثان

أدوات حفظ القرآن قبل جمعه ليست مأمونة

في بيئة بدائية بدوية ، كبيئة النبي والقرآن ، كان الاعتماد في الحفظ أولاً على الذاكرة، ثم على بعض الأدوات البدائية التي لا تكاد تحفظ شيئاً .

نحن في عصر الطباعة والكتب المكتوبة لا نقدّر حفظ الذاكرة من الحفظ حقَّ تقديره . فكل كتب الأقدمين ، منزلة وغير منزلة ، قد وصلت الينا أولاً عن طريق الحفظ بالذاكرة . لكن الذاكرة قد استعانت بأدوات مادية للحفظ لم تتيسّر في الحجاز الجاهلي .

١ ـ ومهما كانت **الذاكرة**، كذاكرة البدائيين ، في قوة الحفظ ؛ فإنها لم تكن مأمونة لنقل حرف القرآن كما نزل . والذاكرة ، حتى ذاكرة النبي ، لم تكن المثال الأعلى للحفظ والنقل . فالقرآن يؤكد لنا بأن النبي كان ينسى من الوحي (الأعلى ٦) . ويجاهد في حفظ الوحي ، ويضرع الى ربه أن لا ينسى (الكهف ٢٤) .

ويأتيه الجواب أنه لا بدَّ من أن ينسى ، وقد يُنسيه الله نفسه (البقرة ١٠٦) . وفي (أسباب النّزول) على آية البقرة : «ما ننسخ من آية أو نُنسِها» (البقرة ١٠٦) ورد : «**ربما نزل الوحي على النبي بالليل ، ونسيه بالنهار**»! (السيوطي) . ونقل الطبري : «**إن نبيَّكم أُقرِئَ قرآنا ثم نسيه**» (١:٤٧٣ ـ ٤٨٠) . وكان محمد يصلّي : «اللهمّ ذكّرني منه ما نسيت، وعلّمني منه ما جهلت» [١] . فإذا كان وسيط الوحي المصطفى قد ينسى الوحي ، ما بين ليلة وضحاها ، فكم بالأحرى المستمعون عَرَضاً واتفاقًا ، أو عن متابعة واستظهار !

وهناك **ظاهرة ثانية** تاريخية : كان حفظ القرآن موزّعاً على الصحابة ، وإن انفرد بحفظه بعض القراء . يقول محمد صبيح [٢] : «ولا بدَّ لنا هنا من أن نسأل سؤالاً آخر : هل كان

---

(١) الأرجاني : **فضائل القرآن**.
(٢) **عن القرآن** ص ٨٧ ـ ٨٨.

الصحابة جميعاً يحفظون القرآن كله ؟ ورد في (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين : ((**ولم يكن شائعا في عهد النبي ﷺ حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد** ؛ إنما كانوا يحفظون السورة ، أو جملة آيات ، ويتفهمون معانيها ؛ فإذا حذفوا ذلك ، انتقلوا إلى غيرها . **فكان حفظ القرآن موزّعا على الصحابة**)) . قال أبو عبد الرحمان السلمي : ((حدَّثنا الذين يقرأون القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، أنهم كانوا ، إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل)) . وقال أنس : ((كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيننا ـ رواه أحمد في مسنده)) . **وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين** ، ذلك أنه إنما كان يحفظ ، ولا ينتقل من آية الى آية حتى يفهم)) .

فهذه الآثار والأخبار دلائل على **الشبهة القائمة** على صحة حفظ الحرف القرآني بواسطة الذاكرة ؛ **وعلى تفرّق القرآن بين الصحابة والقراء ، في ذاكراتهم** .

٢ ـ **والوسائل الأثرية** لحفظ القرآن من الضياع كانت هي أيضاً **بدائية** تعجز عن حفظه . فقد نقل البخاري حديث زيد أول من كُلّف بجمع القرآن ، قال : ((فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممّا أمراني به من جمع القرآن ... فتتبّعتُ القرآن أجمعه **من العُسُب واللِخَاف ، وصدور الرجال**)) [١] أي جريد النخل ، وصفائح الحجارة . وزاد السيوطي: ((وقد تقدم في حديث زيد أنه جمع القرآن من العسب واللخاف . وفي رواية : والرقاع . وفي أخرى : وقطع الأديم . وفي أخرى : والأكتاف [٢] . وفي أخرى والأضلاع . وفي أخرى : والأقتاب)) . فتأمل القرآن المكي ، موزعاً على الحجارة ، وأكتاف الجمال والشاه ، وعلى أخشاب البعران ، بين جماعة مضطهدة مُلاحقة ، تسهر على حفظ كيانها قبل قرآنها ، كم حفظت لنا تلك الوسائل البدائية من القرآن المكي ؟ **وكم كان يتقضي من جمل لحمل القرآن المكتوب على تلك الوسائل البدائية** . يقول محمد صبيح [٣]

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١:٥٩ ، والعُسُب جمع عسيب وهو جريد النخل ؛ كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون في الطرف العريض . واللِّخَاف ـ بكسر اللام وبخاء معجمة خفيفة ، آخره فاء ـ جمع مُخفة (بفتح اللام وسكون الخاء) وهي الحجارة الدقاق . وقال الخطابي : صفائح الحجارة .

(٢) عن السيوطي : ((والرقاع جمع ، وقد يكون من جلد أو ورق أو كاغد . والأكتاف جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة ـ كانوا اذا جفّ كتبوا عليه . والاقتاب جمع قتب ، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليُركب عليه)) (**الإتقان** ١:٦٠) .

(٣) **عن القرآن** ص ٨٧ ـ ٨٨.

تعليقا على هذه الوسائل البدائية في حفظ القرآن : «كتابة القرآن المكي على هذه الأدوات الخشنة كان مصحفاً يحتاج **الى عشرين بعيراً لحمله** . ولم نعلم من أنباء الهجرة أن **قافلة من الأحجار** فرّت قبل النبي أو مع النبي ، ومعها هذا الحمل الغريب» . وكانت هذه الوسائل الخشنة هي المستعملة في المدينة أيضاً . وهل كان لهم في المدينة بين الغزوات والحروب المتواصلة حتى آخر يوم من حياة محمد ، من فراغ كاف لتدوين القرآن المكي فالمدني عليها؟ تلك هي أدوات حفظ القرآن قبل جمعه .

٣ ـ وهذه هي حال القرآن عند وفاة النبي .

يقول الأستاذ دروزة [١] : «إن هناك أقوالاً وروايات تفيد **أن النبي توفي ولم يكن القرآن قد جُمع في شيء** ، وأن جمعه وترتيبه إنّما تمّا بعد وفاته . وان ما كان يدوّن منه في حياته كان يدوّن على الأكثر على **الوسائل البدائية** مثل أضلاع النخيل ورقائق الحجارة وأكتاف العظام وقطع الأديم والنسيج . وان المدوّنات منه **على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة** . وكانت على الأكثر **متفرّقة عند المسلمين . وان المعوّل في القرآن كان على القراء وصدور الرجال**» . وقد رأينا أن آفة الذاكرة النسيان ، كما يصف القرآن حال نبيه .

فليس في وسائل حفظ القرآن قبل جمعه ، وسط حياة حافلة بالاضطهاد في مكّة ، والقتال المتواصل في المدينة ، من ضمانة كافية ، ولا من طمأنينة وافية ، لحفظ الحرف القرآني ، أو حفظ القرآن نفسه ، كما نزل . والشهادة المتواترة أنه «ذهب منه قرآن كثير» ، وأن عثمان «غيَّر المصاحف» . فأين هي ركائز المعجزة في حفظ القرآن سالماً ؟

بحث ثالث

الرخص النبوية الأربع لقراءة القرآن قبل جمعه

بعد الشهبة القائمة على وسائل حفظ القرآن ، تأتي الشبهة الضخمة على سلامة حرفه، من الرخص النبوية الأربع لقراءَة القرآن قبل جمعه . وهذه الرخص الأربع قائمة على الشبهة الأساسية في نزول القرآن على سبعة أحرف ، وفي إجازة قراءَته على تلك الأحرف السبعة بهذه الرخص النبوية الأربع .

---

(١) **القرآن المجيد** ص ٥٣.

أولاً : قراءَة القرآن بالمعنى ، من دون الحرف ، قبل جمعه

لقد نقلت الأخبار والآثار المتواترة أن النبي رخّص لجماعته قراءَة القرآن بالمعنى ، من دون حرف التنزيل ؛ وذلك على أحرفه السبعة التي نزل بها . وإن الصحابة ، من بعده ، قد أجازوا هم أيضاً القراءَة بالمعنى ، وعملوا بها . فابن عباس ، ترجمان القرآن ، كان يجيز قراءَة القرآن بالمعنى [١] . وهو مذهب الصحابة كمجاهد وأُبي بن كعب الذي كان يقرأ بدل « انظرونا » (الحديد ١٣) : « أمهلونا ، أخّرونا ، ارقبونا » ! وبدل « مشوا فيه » (البقرة ٢٠) : « مروّا فيه ، سعو فيه » [٢] . والخلفاء الراشدون أنفسهم أجازوا تلك الطريقة وعملوا بها [٣] .

ويُبرّر ابن الخطيب [٤] القراءَة بالمعنى ، وخروجها على مبدإ « حفظ الذكر » (الحجر ٩) بقوله : « **المراد بالحفظ مفهوم الألفاظ ، لا منطوقها** ، لأن الألفاظ ما صِيغتْ إلاَّ ليُستدَلَّ بها على معان مخصوصة ، قُصد بها أوامر ونواه ، وعبادات ومعاملات ؛ وجميعها مصان محفوظ ، مهما تقادم الدهر ، وتطاول العمر » . وفات الأستاذ الخطيب أن صحة التنزيل في سلامة حرفه ، وأن صحة الإِعجاز في القرآن في سلامة حرفه الذي يضيع في القراءَة بالمعنى. فإباحة القراءَة بالمعنى قد تقضي على حرف التنزيل القرآني ، وبالتالي على صحة التحدي بإِعجازه . والإِعجاز القرآني قائم على حرفه ، في فصاحة ألفاظه ، وبديع نظمه ، ومحكم أسلوبه . فإذا ضاع الحرف المنزل ، في القراءَة بالمعنى ، ضاع معه الإِعجاز .

وقد تنبّه لهذا الأمر الخطير العلماء المسلمون [٥] والمستشرقون . قال الأستاذ بلاشير [٦]، أحد أئمة مترجمي القرآن : إن نظرية قراءَة القرآن بالمعنى كانت بلا ريب أخطر قضية في التاريخ الإسلامي ، **لأنها أسلمت النص القرآني الى هوى كل شخص** يثبته على ما يهوى » . ففي الرخصة بقراءَة القرآن بالمعنى ، مدة ثلاثين الى خمسين سنة قبل جمعه وتدوينه، شبهة لا تردّ على سلامة النص المنزل من التحريف ، وبالتالي على إِعجازه .

---

(١) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١٠٩.
(٢) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١١٣.
(٣) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١١٥.
(٤) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ٥٢.
(٥) صبحي الصالح : **مباحث في علوم القرآن** ص ١٣٧.
(٦) **Introduction**, p. 6

ثانياً : إباحة القراءات المختلفة للنص الواحد

إن حديث الأحرف السبعة يجرّ وراءَه إباحة القراءات المختلفة على تلك الأحرف المختلفة . وحديث القراءات المختلفة للقرآن قبل عثمان **غير قصة القراءات المتواترة للنص العثماني** .

قال ابو شامة [١] : ((ظنَّ قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث (الأحرف السبعة) ؛ وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة . وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)) . فقد قرأ الصحابة ، بحضرة النبي ، **القرآن ، بقراءات مختلفة** ، وأقرَّها جميعاً . وهذه التوسعة في قراءَة القرآن عمل بها الخلفاء الراشدون . وما اتفقوا على قراءَة واحدة ، قبل التوحيد العثماني . ونقل ابن الخطيب [٢] أمثلة متعدّدة على اختلاف القراءَة عند أبي بكر وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان ؛ ويليهم أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وابن عبّاس وابن الزبير . ويقول : ((وهذه القراءات ثابتة في مصاحف أصحابها ومنقولة عنها ... وكذا مصاحف التابعين)) . وقد بلغ اختلاف الخلفاء الراشدين في القرآن واختلاف الصحابة والتابعين الى الأمصار البعيدة ! ((فأخذ أهل البصرة القرآن عن أبي موسى الأشعري ؛ وأهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود ؛ وأهل دمشق عن أُبي بن كعب ؛ وأهل حمص عن المقداد بن الأسود . وكان كل قطر من هذه الأقطار يدّعي أنه أهدى سبيلاً ، وأقوم طريقاً)) [٣] .

ولنا خير شاهد على فوضى قراءَة القرآن قبل عثمان ، من الفوضى التي نشأت بعد **جمع عثمان** الأمة على حرف واحد وقراءَة واحدة . فقد قامت قراءات مختلفة للحرف العثماني ، بلغت عند الإمام ابن مجاهد **سبع قراءات** ، وعند غيره **عشر قراءات** ؛ وأوصلها بعضهم الى أربع عشرة . ((**وذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات**)) [٤] . قال الزمخشري من قبله : ((**إن القراءات اختيارية** تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء)) . والى اليوم بعد انتشار الخط ثم الطباعة ، ((قد بلغ الاختلاف في القراءات حدًّا لا مزيد عليه)) .

---

(١) قابل ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١٢٣.
(٢) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١٠٦.
(٣) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ٣٨.
(٤) الدكتور صبحي الصالح : **مباحث في علوم القرآن** ص ١٤٨.

فتلك الحال من الفوضى ، بعد التوحيد العثماني للحرف القرآني أكبر شاهد على الفوضى البالغة في قراءَة القرآن قبل عثمان ، مع وجود الأحرف السبعة لنصه ، والرخص النبوية الأربع لقراءَة القرآن على كل من تلك الأحرف السبعة !

فإباحة قراءَة القرآن بالقراءات المختلفة إنما هي شبهة ضخمة على سلامة النص القرآني كما أنزل ، وخصوصاً كما أثبته عثمان ، وعلى سلامة إعجاز القرآن في حرفه الباقي.

ثالثاً : الرخصة في قراءة القرآن بجميع لغات العرب

لم تكن اللغة العربية واحدة في الجزيرة ، ولا شعوبها واحدة ؛ ومهما اختلف الباحثون، فقد أصبح واضحاً جليّاً أن اللغة العربية في الجاهلية **لم تكن لغة واحدة** يتفق نطقها وصرفها ونحوها . لم يبق هناك شك في **أن جزيرة العرب كانت مستقر شعوب ، لا شعب واحد** . وكانت هذه الشعوب تنطق **بلغات كثيرة** ، قد تتفق بينها بعض الألفاظ ، كما تتفق اليوم بعض ألفاظ اللغة **الفرنسية والانجليزية** ، ولكن كل لغة قائمة بنفسها مستقلة استقلالاً لا شك فيه)) [١] .

وكانت رخصة نبوية بقراءَة القرآن بجميع لغات العرب ، قبل الجمع العثماني . ((أمّا جمع عثمان ر. فلم يكن إلاّ لكثرة اختلافهم في وجوه القراءَة ، **حتى إنهم قرأوه بسائر لغاتهم، على اتّساع تلك اللغات** . فلما خشي عثمان تفاقم الأمر جمع المصحف مقتصراً على لغة قريش ، محتجّاً بأنه قد نزل بلغتهم)) [٢] . نرى إذن كم اتسعت الفوضى في قراءَة القرآن بجميع لغات العرب المختلفة ، وكم يجب من معجزة وعصمة ، لا شاهد عليهما ، للاهتداء الى النص المنزل الصحيح .

وفي الحرف العثماني الموحّد على لغة قريش نجد **ثلاث ظواهر** تنبئ بما كان عليه أمر النص المنزل قبل التوحيد العثماني من فوضى : ١) غريب القرآن ٢) ما وقع فيه بغير لغة الحجاز ٣) ما وقع فيه بغير لغة العرب [٣] . والاختلافات في قراءَة النص العثماني خير

(١) محمد صبيح : **عن القرآن** ص ١١٣.
(٢) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١٢٠.
(٣) السيوطي : **الإتقان** ١:١١٥ و١٣٤ و١٣٧.

شاهد على سعة الاختلافات قبله ، لمّا ((**كانت المصاحف بوجوه من القراءات مطلقات ، على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن**)) . جاءَ في (شرح المواقف ص ٤٩٠) أن في النص العثماني الموحّد ((من الاختلافات ما يزيد على اثني عشر ألفا)) . فكيف كان الأمر من الفوضى الضاربة أطنابها في قراءَة القرآن قبل توحيد النص العثماني على حرف واحد وقراءَة واحدة ؟

أيجوز بعد ذلك الزعم بأن الحرف العثماني هو الحرف المنزل الصحيح سالماً من التحريف ؟ إن سلامة النص العثماني من التحريف معجزة لا شاهد لها من قرآن ولا من حديث صحيح . فالرخصة في قراءَة القرآن بجميع لغات العرب ، نيّفاً وثلاثين سنة قبل الجمع العثماني ، القت على صحة النص المنزل شبهة عظمى لا مردَّ لها ، وبالتالي على صحة التحدي بإعجازه .

رابعاً : بعد نزول القرآن على سبعة أحرف ، إباحة القراءَات بها

على أساس إباحة قراءَة القرآن ، قبل عثمان ، قراءات مختلفة بسائر لغات العرب المختلفة ، نجد حديث نزول القرآن على سبعة أحرف ، وما يتبعه من **إباحة قراءَته بهذه الأحرف السبعة ، وكل حرف منه بجميع لغات العرب** . قال السيوطي [1] : ((ليس المراد بالأحرف السبعة **حقيقة العدد** ، بل المراد **التيسير والتسهيل والسعة**)) . فالعدد الحقيقي أكثر من سبعة .

وكانت القراءات ، قبل عثمان ، **مطلقات على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن** . يقول ابن الخطيب [2] : ((ويرجع تاريخ الاختلاف بالقراءات الى زمن الصحابة ر. وهذا الذي حدا بعثمان الى كتابة مصحفه وجمْع الناس على قراءَة واحدة ... ولم يكتب عثمان المصحف إلاّ **خشية الاختلاف** في القراءَات والتغالي فيها وتفضيل احداها على الأخرى ... **فأمّا قبل عثمان فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءَات مطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن**)) . وهكذا مع تفرّق القرآن على سبعة أحرف وأكثر ،

---

(١) **الإتقان** ١:٤٧.
(٢) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ١١٨ ـ ١١٩ ؛ وهو ينقل عن السيوطي : **الإتقان** ١:٦٢.

جاءَت القراءَات المختلفة على كل حرف منها ، فزادت في **فوضى النص المنزل** ، حتى خشي عثمان من ضياع القرآن . فجمع القرآن على حرف واحد ، وجمع الأمة على قراءَة واحدة ، بالحديد والنار .

ولكن بعد تلك الفوضى في القراءَات المختلفة ، على الفوضى في الأحرف السبعة المختلفة ، أنّى لعثمان ولجانه المتتابعة من العثور على النص الصحيح المنزل ، بدون تحريف؟ وليس ثمَّتَ من شاهد في القرآن ، ولا من أثر أوجز في الحديث ، ينص على أن كتبة الوحي ، أو القراء ، أو الصحابة ، أو الخلفاء الراشدين ، أو جامعي القرآن من لجان عثمان ، كانوا **معصومين** ليهتدوا الى النص المنزل . فلا ضامن لاختيار عثمان الحرف المنزل الصحيح ، ولا عصمة لهم في صحة اختيار الحرف الصحيح والقراءَة الصحيحة . واذا كان كل حرف أي نص من القرآن ، ظل يُقرأ نحو نصف قرن قبل عثمان ، بجميع لغات العرب ، نرى الفوضى التي لا مثيل لها ، والتي وصل اليها النص المنزل . قال ابن عبد البرِّ في اختلاف نصوص القرآن وفي شرط القراءَة بها : ((إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها ، أنها **معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها** ، لا يكون في شيء منها **معنى وضده** ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفه ويضاده ، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده)) . فالشرط الوحيد لاختلاف الأحرف القرآنية وإباحة القراءَة بها **أن لا يكون في شيء منها معنى وضده** ، كآية عذاب بدل آية رحمة . فهل من ضابط بعد هذه التوسعة لحفظ نص القرآن المنزل ؟ وهل يمكن بعدها ، وبعد وفاة كتبة الوحي وأكثر القراء الأوائل ، العثور على النص الأصلي بدون تحريف ؟ إن ذلكم ضرب من المعجزة ومن العصمة لا شاهد لهما من قرآن أو من حديث .

وهذه شواهد قاطعة نقلوها لقراءات القرآن المختلفة عن الأئمة . نقل الطبري [1] مثلا على تصرف أنس بن مالك في قراءَته . قرأ ((إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأصوب قيلاً (المزّمل ٦) . فقال له بعضهم : ((يا أبا حمزة ، إنما هي : أقوم ! فقال : أقوم وأصوب وأهيا، كلها واحد)) . ونقل السيوطي [2] عن أبي بكر أنه كان يقرأ : ((كلما أضاءَ لهم مشوا فيه)) ،

---

(١) **تفسير الطبري** ـ اخراج الاخوين شاكر ١:٥٢.
(٢) **الإتقان** ١:٤٨.

مرّوا فيه ، سعوا فيه... وكان ابن مسعود يقرأ: ((للذين آمنوا ، انظرونا ، أمهلونا ، أخرونا)) . فهذه الشواهد تدل على أنهم تصرّفوا بنص القرآن على هواهم وبحسب سليقتهم العربية ، وألسنتهم المختلفة . وهذا التصرف بقراءَة القرآن على سبعة نصوص مختلفة فما فوق ، وبجميع لغات العرب المختلفة ، أضاع النص الأصيل ، أو أدخل عليه **التحريف الطويل** . لذلك ، لمّا كلّف أبو بكر وعمر، لأول مرة ، زيد بن ثابت بجمع القرآن ، صُعِق وقال: ((فوالله لو كلّفوني **نقل جبل من الجبال** ما كان أثقل عليّ ممّا أمراني به من جمع القرآن)) [1] .

ففي هذه الإباحة والرخصة بقراءَة القرآن بجميع لغات العرب المختلفة ، على كل حرف من نصوصه السبعة ، شبهة قائمة دائمة على صحة النص المنزل ، وعلى إِعجاز القرآن نفسه في الحرف العثماني .

والنتيجة المذهلة الحاسمة القاطعة التي نصل اليها بعد تلك الرخص الأربع لقراءَة القرآن ، على سبعة أحرف ، وقراءات مختلفة ، وبجميع لغات العرب ، وبالمعنى من دون الحرف واللفظ ، هي : ١ ـ الشبهة القتّالة على **سلامة النص المنزل** من التحريف ؛ ٢ ـ الشبهة المريبة على ((**حفظ**)) القرآن ، الذي يعتبرونه معجزة ؛ ٣ ـ الحجة القائمة التي لا مردّ لها **لاستحالة التحدي بإعجاز القرآن** ، لأن هذا الإعجاز يقوم ، في نظرهم ، لا على المعنى ، بل على اللفظ والنظم والأسلوب أي على الحرف ، وهذا الحرف لا يمكن أن يسلم في تلك الفوضى ، مدة نصف قرن تقريباً ، التي خلقتها الرخص الأربع لقراءَة القرآن قبل أن يجمع عثمان الأمة على حرف واحد وقراءَة واحدة ، بلغة واحدة . فهذا الحرف العثماني الباقي ، لم يكن هناك من **معجزة تعصمه في صحة الاختيار** بين سبعة أحرف ، على قراءات مختلفة ، بجميع لغات العرب ، وأحياناً بالمعنى من دون اللفظ المنزل ، وذلك مدة ثلاثين الى خمسين سنة قبل جمعه وتدوينه .

فأين الإعجاز في التنزيل المعصوم من التحريف ؟ وأين المعجزة في حفظه كما نزل؟ فحق لهم أن يقولوا : إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة !

---

(١) دروزة : **القرآن المجيد** ص ٥٣ . قابل السيوطي : **الإتقان** ٥٩:١.

بحث رابع

في معرفة حفّاظه ورواته (الإتقان ١:٧٢)

إن واقع البيئة ، وواقع السيرة النبوية ، يدلاّن على أن حفظ القرآن قام على حفظه في الصدور ، لا على تدوينه في الأحجار والقشور . فصحة حفظه تقوم على ((معرفة حفّاظه ورواته)) . وقد جمع السيوطي من الأحاديث ما يحمل على الشبهة والريبة .

الواقع الأول : ((روى البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول: **خذوا القرآن من أربعة** (من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبَي بن كعب). أي تعلموا منهم . والأربعة المذكورون اثنان من المهاجرين ، وهما (ابن مسعود وسالم) واثنان من الأنصار (معاذ وأبي) . وسالم هو ابن معقل مولى أبي حذيفة ؛ ومعاذ هو ابن جبل. ... وقد قتل سالم ، مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة ؛ ومات معاذ في خلافة عمر ؛ ومات أبي وابن مسعود في خلافة عثمان . **وقد تأخر زيد بن ثابت وانتهت اليه الرئاسة** في القراءَة، وعاش بعدهم زمناً طويلاً)) . فالنتيجة الحاسمة لهذا الحديث الصحيح أن زيد بن ثابت لم يوصِ النبي بأخذ القرآن عنه . ولم يحضر نزول القرآن بمكّة ، لحداثة سنه ، وهو أنصاري . فإسناد رئاسة قراءَة القرآن وجمعه اليه موضوع نظر . ولمّا جمع زيد بن ثابت القرآن الجمع الأخير على زمن عثمان كان القراء الأربعة الذين أوصى بهم النبي قد توفوا . فلم يبق له من سند لا شبهة عليه .

الواقع الثاني : أجل لا نحصر حفظة القرآن بالأربعة الموصى بهم . لكن جاء ((في الصحيح في **غزوة بئر معونة** إن الذين قتلوا بها **من الصحابة كان يقال لهم القراء** . وكانوا سبعين رجلاً ... وقال القرطبي : قد قتل **يوم اليمامة** سبعون من القراء ، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد)) . فعلى عهد النبي ثم في حروب الردّة على أيام أبي بكر كان قد قُتل من القراء نحو **أربعين ومائة قارئاً** . وذلك قبل أن يباشر زيد بن ثابت بأمر أبي بكر ، على نصيحة عمر ، بجمع القرآن . فالنتيجة الحاسمة الثانية **أن أكثر حفظة القرآن قد ماتوا قبل جمعه وتدوينه** . وحفظته من الخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين كانوا يحفظون شذرات ، ولا يحملون القرآن كله ، وأنّى لهم الفراغ مع النبي وبعده .

الواقع الثالث ، في ثلاثة أحاديث متعارضة :

((روى البخاري أيضاً عن **قتادة** قال : سألتُ أنس بن مالك ، **مَن جمع القرآن** على عهد النبي ﷺ ؟ فقال : **أربعة** كلهم من الأنصار ، أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلتُ : مَن أبو زيد ؟ قال أحد عمومتي . وروى أيضاً من طريق ثابت عن أنس : **مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة** ، أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد (عم أنس بن مالك) . وفيه المخالفة لحديث قتادة من وجهين حدهما **التصريح بصيغة الحصر** في الأربعة . والآخر ذكر أبي الدرداء بدل أبي بن كعب . وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة)) .

والظاهر أنه **جمع حفظ** ، لا جمع تدوين ـ وإلاّ فلا معنى لتدوين زيد بن ثابت . والمشكل أنهم ((**كلهم من الأنصار**)) ، لم يشهدوا التنزيل في مكّة ؛ وليس بينهم عبد الله بن مسعود ولا سالم ، وكلاهما من المهاجرين . **والتعارض الأكبر** بين هذين الحديثين ، والحديث البخاري الأول أنه ليس بينهم أحد ـ سوى أبي زيد ـ ممن أوصى النبي بأخذ القرآن عنهم . ولا ذكر لأبي زيد في قصة تدوين القرآن . وفي قول أنس أنه ((لم يجمعه غيرهم)) . وهو متعارض مع حديث وصية النبي بأخذ القرآن عن غيرهم . فممّن أخذوا القرآن ؟

ويأتي الحديث الثالث فيغمرنا بالظلمة : ((أخرج ابن اشته بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال : **مات أبو بكر ولم يُجمع القرآن ؛ وقتل عمر** ولم يُجمع القرآن . قال ابن اشته : قال بعضهم يعني لم يُقرأ جميع القرآن حفظاً ؛ وقال بعضهم هو جمع المصاحف)) . وحديث ابن سيرين ينقض قصة جمع القرآن وتدوينه بواسطة زيد بن ثابت على أيام أبي بكر وعمر .

والنتيجة الحاسمة الكبرى أن حفظ القرآن ثم جمعه يقومان على أكتاف زيد بن ثابت ، وهو فتى أنصاري على حياة النبي ؛ ولم يوصِ النبي بأخذ القرآن عنه . فرئاسته في قراءَة القرآن وجمعه وتدوينه محل شبهة ، بسبب سنه على حياة النبي ، وبسبب وصية النبي في أخذ القرآن عن غيره . فهل التاريخ الثابت من الحديث الصحيح يدل على معجزة في حفظ القرآن؟

بحث خامس

من تاريخ جمع القرآن وتدوينه

إن تاريخ جمع القرآن يُلقي ظلاً ثقيلاً على سلامة حرفه ، موضوع إِعجازه .

بعد وفاة النبي ظهرت محاولات **فردية** ثم **رسمية** لجمع القرآن .

أولاً : المحاولات الفردية لجمع القرآن

إن تعدّد أنواع الجامعين ، وتنوّع المصاحف المجموعة المختلفة تثير شبهات .

١ ـ في المحاولات الفردية **اختلفوا في أول مَن حاول جمع القرآن** .

قيل أن أول مَن حاول جمع القرآن **علي بن أبي طالب** . بعد بيعة أبي بكر قعد في بيته . فقيل لأبي بكر : كره بيعتك ! فأرسل إليه فقال : أكرهتَ بيعتي ؟ قال : لا واللهِ ! قال : ما أقعدك عني ؟ قال : **رأيتُ كتاب الله يُزاد فيه** فحدّثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلاّ لصلاة حتى أجمعه . قال له أبو بكر : فإنك نِعم ما رأيت ! ـ هذا حديث محمد بن سيرين عن عكرمة . وقيل جمع علي القرآن كما أنزل الأول فالأول ، **بحسب تاريخ نزوله** . وأخرجه ابن أشته في (المصاحف) من وجه آخر عن ابن **سيرين أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ** [١] .

ويُرجع أهل السنة الفضل في جمع القرآن **لأبي بكر الصديق** . «أخرج ابن أبي داود في (المصاحف) بسند حسن عن عبد خير قال : «سمعت عليّاً يقول : أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر . رحمة الله على أبي بكر هو أول مَن جمع كتاب الله» ! لكن ابن أبي داود ينقل أيضاً الحديث المناقض لابن سيرين عن عكرمة أن عليّاً كان أول من جمع القرآن[٢] .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٥٩:١ ؛ قابل **تفسير الطبري** ٦٣:١ ؛ قابل دروزة : **القرآن المجيد** ٥٥.
(٢) المصادر نفسها.

((وأخرج ابن أبي داود من طريق الحسن أن **عمر** بن الخطاب سأل عن آية في كتاب الله فقيل : **كانت مع فلان قُتل يوم اليمامة** . فقال : إنّا لله ! **وأمر بجمع القرآن** فكان أول مَن جمعه في المصحف)) . يفسّره السيوطي : ((المراد بقوله (فكان أول مَن جمعه) أي أشار لجمعه)) [1] .

وهكذا ينسبون الأولية في جمع القرآن الى كلٍّ من الخلفاء الراشدين الأربعة .

لكن لم يكن لهم في مهام خلافتهم متّسع من الوقت للاهتمام شخصياً بجمعه . لذلك أخرج ابن اشته في كتاب (المصاحف) عن ابن بريدة قال : ((أول من جمع القرآن في مِصحف **سالم** ، **مولى أبي حذيفة** ، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه . ثم ائتمروا ما يسمونه . فقال بعضهم سمّوه : **السفر** . قال ؛ ذلك تسمية اليهود ، فكرهوه ، فقال : رأيتُ مثله في الحبشة يُسمى **المصحف** ، فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف)) . فسّره السيوطي: ((وهو محمول على أنه كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر)) [2] .

لاحظ الاختلافات وكثرة الاحتمالات في قصة جمع القرآن .

والحديث المعتمد عن صحيح البخاري أن أبا بكر الصديق ، بإشارة عمر ، أمر **زيد بن ثابت** في جمع القرآن ؛ ((فتتبعت القرآن أجمعه من العُسب واللخاف وصدور الرجال ... فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر)) [3] . فيكون زيد بن ثابت هو أول جامع للقرآن . والشبهة الكبرى في ذلك أن زيداً ، على حياة النبي ، لم يكن قد بلغ الحلم بعد .

٢ ـ وذكروا أيضاً أنّ **أمهات المؤمنين** ، أزواج النبي ، قد حاولن هنّ أيضاً جمع القرآن . فذكروا أن **عمر بن رافع** ، مولى حفصة ، بنت عمر وزوج النبي ، جمع لها مصحفاً، عُرف باسمها . وهذا يُلقي شبهة أخرى على الصحف التي جمعها زيد بأمر أبي بكر وعمر، ((فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر)) كما نقل البخاري من حديث زيد بن ثابت .

---

(١) **الإتقان** ١:٥٩.
(٢) **الإتقان** ١:٥٩.
(٣) **صحيح البخاري** . قابل السيوطي : **الإتقان** ١:٥٩.

وذكروا أيضاً أن **أبا يونس ، مولى عائشة** ، بنت أبي بكر وزوج النبي المفضّلة ، جمع لها مصحفاً عُرف أيضاً باسمها . وقد روى عروة بن الزبير حديثا عن عائشة : «إن سورة الأحزاب كانت تُقرأ في زمن النبي مئتي آية . فلما كتب عثمان المصاحف لم نُقدر منها إلاّ ما هو الآن» ، أي (٧٣ آية) . وروي عن حميدة بنت أبي أوس قالت : «قرأ عليَّ أبي ، وهو ابن ثمانين ، **في مصحف عائشة** : (يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا - وعلى الذين في الصفوف الأولى) ، **وذلك قبل أن يغيّر عثمان المصاحف**» .

فعليٌّ يشهد بأن كتاب الله يُزاد فيه ؛ وعائشة تشهد بأن عثمان غيّر المصاحف .

فهناك تيّار ينسب جمع القرآن الى كل من الخلفاء الراشدين . وهناك تيار ينسبه الى موالي أمهات المؤمنين .

٣ - وهناك تيار ثالث **ينسب مصاحف أخرى لأئمة القراء** الذين أوصى بهم النبي : مصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أُبي بن كعب ، ومصحف معاذ ، ومصحف سالم ، مولى حذيفة . وأشهرهما مصحف ابن مسعود ، ومصحف أُبي . «وإن المصحفين ظلاّ موجودين يُقرأان إلى ما بعد عثمان بمدة طويلة ، وإن ترتيب سور كل منهما مغاير لترتيب الآخر من جهة ، ومغاير لترتيب المصحف العثماني من جهة أخرى . وإن في أحدهما **زيادة**، وفي أحدهما **نقص**» [(١)] . فلم تكن الفاتحة ، ولا خاتمة القرآن (المعوذتان) في مصحف ابن مسعود ، وكان يحكهما ويقول ؛ إنهما ليستا من كتاب الله [(٢)] . فابن مسعود يشهد بأن (**الفاتحة**) ليست من القرآن .

وفي مصحف أُبي ، كانت سورة اسمها «**الحفد**» وأخرى اسمها «**الخلع**» وكان عليّ يعلّمهما الناس ، وعمر بن الخطاب يُصلّي بهما . وقد أسقطهما عثمان في الجمع الأخير [(٣)] .

٤ - **وهذا هو الواقع القائم** بين هذه التيارات : **كان الناس في الأقطار يقرأون القرآن بقراءَة القرّاء المختلفة** . روى ابن الأثير (٨٦:٣) أن الأمة قبل عثمان كانت تقرأ القرآن في أربع نسخ مختلفة : نسخة أُبي في دمشق ، ونسخة المقداد في حمص ، ونسخة ابن مسعود في

---

(١) دروزة : **القرآن المجيد** ٥٦.
(٢) دروزة : **القرآن المجيد** ٥٧.
(٣) دروزة : **القرآن المجيد** ٥٧.

الكوفة ، ونسخة الأشعري في البصرة . وممّا يدل على اختلافها البعيد اقتتال أهل الشام وأهل العراق في معارك أذربيجان ، بسبب قراءاتهم المختلفة للقرآن الواحد . وهذا ما أفزع القائد حذيفة (وكان مولاه سالم قد جمع له قرآناً) ففزع الى عثمان بن عفان يحرّضه على توحيد المصاحف .

وحديث الأحرف السبعة ، يرفع النصوص المختلفة من أربعة الى سبعة .

قال حذيفة بن اليمان : «غزوتُ مرج أرمينية فحضرها أهل العراق والشام . فإذا أهل الشام يقرأون بقراءَة أُبي بن كعب ، **فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق** ، فتكفرهم أهل العراق . وإذا أهل العراق يقرأون بقراءَة ابن مسعود ، **فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام** ، فتكفّرهم أهل الشام» [1] .

وهذا الاختلاف والاقتتال والتكفير في حرف القرآن ، في الثغور والفتوحات ، قد وصل الى **الغلمان والمعلمين في بيوت حفظ القرآن** . «وقد رُوي حديث عن أنس بن مالك جاء فيه : إنّ الناس اختلفوا في القرآن على عهد عثمان **حتى اقتتل الغلمان والمعلمون** . فبلغ ذلك عثمان ، فقال : عندي تكذبون وتلحنون فيه ! فمن نأى عني كان أشدّ تكذيباً ولحناً ! يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً» [2] .

فالتكفير والاقتتال في مدارس القرآن ، وفي غزوات الفتح ، على صحة حرف القرآن، شهادة قائمة على وقوع التحريف في نص القرآن ، قبل الجمع العثماني . وأنى لعثمان ولجانه المختلفة الوصول الى النص الأصلي المنزل ، بعد أن أمسى قبل جمعه سبعة أحرف ، أي سبعة نصوص ، بقراءات مختلفة . إن إتلاف عثمان ، برضى الصحابة لجميع المصاحف سوى مصحفه ، برهان قاطع على اختلافها في حرف القرآن ، ودليل قائم على استحالة الوصول الى النص الصحيح المنزل المعجز .

ففي الوضع القائم للقرآن على سبعة أحرف ، عند وفاة النبي ، شبهة **أولى ضخمة** على صحة حرف القرآن . وفي الوضع الذي انتهوا إليه عند الجمع العثماني **شبهة أخرى ضخمة**

---

(١) **تفسير الطبري** ١:٦٠ قابل دروزة : **القرآن المجيد** ص ٦٣.
(٢) المصدر نفسه.

على صحة حرف القرآن . وهذه الشبهات التاريخية القائمة لا يصح معها ادّعاء وسلامة الحرف القرآني ، موضوع التنزيل ، وموضوع التحدي بإعجاز القرآن . فالتحدي بإعجاز حرف القرآن ، لا أساس له . والواقع التاريخي «لحفظ» القرآن ينقض معجزة «حفظه» المزعومة .

ثانياً : المحاولات الرسمية لجمع القرآن

إن المحاولات الرسمية لجمع القرآن تمت على مراحل تثير أيضاً الشبهات .

١ ـ **الاصدار الرسمي الأول للقرآن** ، في زمن أبي بكر .

يؤخذ من حديث زيد بن ثابت ، في صحيح البخاري أنه كان أول جامع للقرآن ، بأمر أبي بكر الصديق ، بناءً على نصيحة عمر بن الخطاب ، «**فإن القتل قد استمرّ يوم اليمامة بقراء القرآن** ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء في المواطن» [١] . وشعور زيد بهذا التكليف يدل على استحالة الجمع بعد أن استمر القتل بقراء القرآن : «فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مِمّا أمراني به ، من جمع القرآن» !

والشبهة الثانية على هذا الجمع الأول هي في تكليف زيد بن ثابت ، وقد كان غلاماً لم يبلغ الحلم بعد على حياة النبي . لذلك أيضاً قال قوله السابق ! فما السر في تكليف زيد بن ثابت بجمع القرآن على عهد أبي بكر ، ثم على عهد عمر ، ثم على عهد عثمان ، ولم يكن زيد من الذين أوصى النبي بأن يأخذوا القرآن عنهم ؟ فقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن العاص قال : «سمعت النبي يقول : خذوا القرآن من أربعة ؛ من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب» . وهما اثنان من المهاجرين واثنان من الأنصار . وقد قُتل سالم مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة . ومات معاذ في خلافة عمر . ومات أبي بن كعب وابن مسعود في خلافة عثمان وكانا يشنّعان عليه في طريقة جمعه للقرآن ، وتولية زيد بتلك المهمة ؛ «فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن . هو ، فيما كان يقول ، قد أخذ من فم النبي نفسه سبعين سورة من القرآن ، ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد» [٢] .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١:٥٩.
(٢) طه حسين : **الفتنة الكبرى** : ١ عثمان ص ١٨٣.

ففي سنّ زيد ، جامع القرآن الرسمي ، شبهة ضخمة على صحة جمعه . وفي ما أسندوه اليه من عمل شبهة أخرى . جاء عنه في صحيح البخاري: « فتبعت القرآن أجمعه ... فكانت **الصحف** عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »[١] . وينقل البخاري عنه حديثاً ثانياً ينقضه : «قال ابن حجر : ووقع في رواية عمارة بن غزية أن زيد بن ثابت قال : فأمرني أبو بكر فكتبتُه في قطع الأديم والعُسُب ؛ فلما توفّي أبو بكر وكان عمر كتبت ذلك في **صحيفة واحدة** فكانت عنده ـ قال : والأول أصح ؛ إنما كان في الأديم والعُسُب أولاً قبل أن يُجمع في عهد أبي بكر ، كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة»[٢] .

فهل كان القرآن الذي جمعه زيد ، على زمن عمر ، في صحف أم في صحيفة واحدة؟ ثم ، لمّا توفي عمر ، هل كانت الصحف عند **حفصة بنت عمر** ، كما في صحيح البخاري ، أم كانت في **ربعة عمر** ، من حيث جاءَ بها عثمان ؟ كما أخرج أبو داود في سننه [٣] . وهذا الجمع الأول لم يوقف الخلاف في حروف القرآن ، حتى عمّ التكفير والاقتتال .

٢ ـ **الاصدار الثاني للقرآن كان على زمن عثمان بن عفان** ، عام ٢٥ بعد الهجرة .

رأينا أن سبب جمع عثمان الجديد للقرآن كان بسبب اقتتال الغلمان والمعلمين في المدارس ، واقتتال وتكفير المحاربين بعضهم بعضا في الحروب والفتوحات .

ولدينا روايتان على الجمع العثماني . **الرواية الأولى** إن اللجنة العثمانية لجمع القرآن كانت من **أربعة** : زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمان بن الحارث . روى البخاري : «فأرسل الى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك . فأرسلت بها حفصة . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : **اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن** ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف الى حفصة . وبعث الى كل أُفق بمصحف ممّا نسخوا . وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن **يُحرق**»[٤] .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١:٥٩.
(٢) السيوطي : **الإتقان** ١:٦٠.
(٣) دروزة : **القرآن المجيد** ٦٤.
(٤) دروزة : **القرآن المجيد** ٦٣.

الرواية الثانية أن اللجنة العثمانية كانت **من اثني عشر رجلاً** من قريش والأنصار ، وأن صحف زيد كانت في ربعة عمر، لا عند حفصة . «أخرج أبو داود حديثا جاء فيه: «لمّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف ، جمع له اثني عشر رجلا من قريش والأنصار ، فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها» [1] .

وهنا تنهال علينا **الشبهات تترى** في الجمع العثماني .

أولاً : بما أن عمل اللجان العثمانية يقتصر على نسخ مصحف زيد ، فلِم وصية عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : «إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم» ـ فالخلاف في القرآن واقع ، والاختلاف في تدوين حرفه منتظر . فهذه شهادة على شبهة مزدوجة : إن في مصحف زيد قرآنا ليس بلسان قريش ؛ وأنّ بمصادر القرآن التي يجمعونه منها ما ليس بلسان قريش الذي نزل به .

ثانياً : إذا كان الجمع العثماني مجرد نسخ للصحف التي كتبها زيد على زمن أبي بكر، أو الصحيفة التي كتبها على زمن عمر ، فكيف يمكن الاختلاف فيما بين الجامعين ؟ فلم يكن الأمر إذن مجرد نسخ ، بل هو جمع جديد للقرآن ، كما قال : «يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً» (الطبري ١:٦٠) . والجمع الجديد دليل الشبهة على الجمع الأول ، كما أن الجمع الأول دليل الشبهة على الجمع الثاني : فلو كان الجمعان واحداً ، لما وقع الخلاف .

ثالثاً : في الروايتين على الجمع العثماني تعارض في تكوين اللجنة من أربعة أم من اثني عشر رجلا ، وفي وجود صحف زيد في بيت حفصة أم في ربعة عمر .

رابعاً : إذا كان الخلاف محذوراً في اللجنة الرباعية ، فهل يكون مأموناً في اللجنة الاثنعشرية ؟

خامساً : والشبهة الكبرى في **إمامة زيد للجان العثمانية** ، ولم يكن زيد قد بلغ الحلم في زمن النبي ؛ ولم يكن من الأربعة الذين أوصى بأخذ القرآن عنهم .

يقول طه حسين [2] : «وقد يمكن أن يُعترض عليه في أنه كلّف كتابة المصحف **نفراً قليلاً من أصحاب النبي ، وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبي وحفظوا عنه ،**

---

(١) دروزة : **القرآن المجيد** ٦٤.
(٢) **الفتنة الكبرى** ـ عثمان ص ١٨٣.

وعلّموا الناس في الأمصار . وكان خليقاً أن يجمع هؤلاء القراء جميعاً ويجعل إليهم كتابة المصحف . ومن هنا نفهم غضب ابن مسعود . فقد كان ابن مسعود من أحفظ الناس للقرآن وهو فيما كان يقول قد أخذ من فم النبي نفسه سبعين سورة من القرآن ، **ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد** ! فإيثار عثمان لزيد بن ثابت وأصحابه ، وتركه لابن مسعود وغيره من الذين سبقوا إلى استماع القرآن من النبي وحفظه عنه ، قد أثار عليه بعض الاعتراض . وهذا شيء يفهم من غير مشقة ولا عناء »

سادساً : إن أمر عثمان في طريقة جمع القرآن وتدوينه كانت أمره للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم » . وإعجاز القرآن يقوم على التحدي « **بمثله** » . **وعند اختلاف الجامعين كانوا يكتبون القرآن بلسان قريش ، فهم اذن في تدوين القرآن قد أتوا « بمثله » .**

سابعاً : والشبهة الضخمة على المصحف العثماني هي تحريق ما عداه من المصاحف، حتى مصاحف الخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين . وهذه الشبهة الضخمة ذات حدين : فهي تلحقه لأنه قضى عليها ؛ وهي تلحقها لأنه يعارضها . ولو كانت المصاحف واحدة لما احتاج عثمان إلى تحريقها !

وكان الصحابة يتمسكون بمصاحفهم بسبب الحديث الشريف : «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف » ! «فعثمان حين حظر ما حظر ، **وحرَّق ما حرّق من الصحف ، إنما حظر نصوصاً أنزلها الله ، وحرَّق صحفاً كانت تشتمل على قرآن أخذه المسلمون** عن رسول الله . وما ينبغي للإمام أن يلغي من القرآن حرفاً أو يحرق من نصوصه نصًّا »[1] . وهذا ، في رأينا ، سبب الفتنة البعيد الذي أودى بحياة عثمان في الثورة عليه وقتله . فقد «أنكر ابن مسعود ، وأنكر معه كثير من الناس **ما كان تحريق المصاحف** . واشتد نقد ابن مسعود لعثمان. وكان يخطب الناس يوم الخميس من كل أسبوع . وكان يقول في ما يقول . «إن أصدق القول كتاب الله ، وأحسن الهدى وكل ضلالة في النار »![2] فكأنه أفتى باغتياله .

فكان ما كان مما لستُ أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر !

---

(١) طه حسين : **الفتنة الكبرى** ـ عثمان ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) طه حسين : **الفتنة الكبرى** ـ عثمان ص ١٦٠.

ثامنا : وهذه هي ميزات توحيد النص العثماني :

١) شهد علي بن أبي طالب : « رأيت كتاب الله يزاد فيه » فنقّحه، فلم يأخذ عثمان بذلك.
٢) وكتب علي في مصحفه الناسخ والمنسوخ كله ، فأسقط عثمان من المنسوخ كثيراً.

٣) شهد ابن عمر أنه بعد الجمع العثماني «ذهب منه قرآن كثير »!

٤) وشهدت عائشة أنه كان من القرآن «قبل أن يغيّر عثمان المصاحف» .

٥) وعدل عثمان عن الترتيب التاريخي الذي أخذ به علي وآل البيت ، الى الترتيب التنسيقي بحسب الطول فالقصر ، كما اعتمد جماعة بني أمية . والترتيب ناحية من الإِعجاز فتلك الميزات في التوحيد العثماني للنص القرآني شبهات عليه .

تاسعاً : يقول السيوطي بأن في الحرف العثماني الناجي ما هو «بغير لغة الحجاز » ، وما هو «بغير لغة العرب»، مع أن القرآن نزل بلغة قريش ، وقد أمر عثمان بكتابته بلسانهم. وهذه الرواسب دلائل على أن حرف التنزيل لم يبق سالماً في المصحف العثماني مع ما بذلوه من حرص حين جمعه وتدوينه .

عاشراً : ما معنى تعدّد جمع القرآن ؟ يقول محمد صبيح [١] : «لماذا لم يأمر أبو بكر أو عمر بنسخ صور ممّا كتب زيد بن ثابت ؟ ...ولماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لكل واحد منهم ، أو لدى بعضهم على الأقل ، نسخ من هذه الصحف ؟ ـ الجواب على هذا السؤال عسير » . وأعسر منه الجواب على هذا السؤال : لماذا فُضّل مصحف زيد بن ثابت ، وكان غلاماً لم يبلغ الحلم بعد في حياة النبي ، على مصحف عليّ بن أبي طالب ، وهو الشاهد الأسبق للقرآن والدعوة والسيرة ؟ وعلى مصحف ابن مسعود ، وهو الذي «لزم النبي لزوماً متصلاً في سفره وإقامته ، حتى كاد يُعدّ من أهل بيته . فكان أثناء إقامة النبي صاحب اذنه ؛ وكان اذا قام النبي ليخرج ألبسه نعليه ومشى بين يديه بالعصا فإذا بلغ مجلسه خلع نعليه فوضعهما في كمه ودفع إليه العصا وقام على إذنه . وكان في السفر صاحب فراش النبي وصاحب وضوئه . وكان النبي يحبه حبًّا شديدًا ويوصي بحبه» [٢] . فكأن محمداً يسلك سلوك أسقف النصارى في جماعته ، وابن مسعود «قوّاصه»!

---

(١) **الإتقان** ١:١٣٤ و١٣٦
(٢) **عن القرآن** ص ١٨٤

وأعسر أكثر الجواب على هذا السؤال أيضاً : لقد رضى أبو بكر ثم عمر بمصحف زيد : فَلِمَ يرفضونه في زمن عثمان ، كما يظهر من وصيته لجامعي الحرف العثماني : «اذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن» ، ويفرضون بالحديد والنار المصحف العثماني ؟ يحق لنا أن نقول : ألا يترك هذا التصرف شبهة لا تزول على مصحف زيد ثم على المصحف العثماني الناجي معاً ؟

أخيراً ، بعد نزول القرآن على سبعة أحرف ، وبعد الرخص النبوّية الأربع بقراءة القرآن على سبعة أحرف ، «وقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أُنزل بها القرآن» [1] ، وإجازة القراءات المختلفة ، على الحروف المختلفة بلغات العرب جميعها ، وإباحة القراءَة بالمعنى من دون الحرف ، وذلك **مدة أربعين سنة** ، منذ بدء التنزيل حتى الجمع العثماني سنة خمس وعشرين للهجرة كما روي عن ابن حجر [2] ، بعد هذا كله **واختلافهم في حرف القرآن حتى التكفير والاقتتال قبل التوحيد العثماني** ـ هل كان بإمكان اللجان العثمانية ، وقد مات أكثر حفظة القرآن وقرائه ، **وجميع الجامعين غير معصومين** ، أن تصل الى النص المنزل الذي لا تشوبه شائبة ؟ إن البرهان القاطع على أنه لا يمكن أن تصل اليه أن عثمان قد أتلف سائر المصاحف ليحمل الأمة على مصحفه . وقد استأذن السيدة حفصة في خرق الصحف التي جمعها زيد بأمر أبي بكر وعمر ، وكانت أمانة عندها من أبيها عمر بن الخطاب . **كلها شبهات يحار فيها العقل والإيمان** ، ولا جواب لها . والنتيجة الحتمية لهذا كله شبهة على صحة الحرف العثماني ، وعلى صحة التحدّي بإعجازه .

٣ ـ الموقف التاريخي من الجمع العثماني

إننا نوجز الموقف التاريخي من الجمع العثماني بما قاله أبو جعفر النحاس [3] : «إن رسول الله قال : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) . فرأى عثمان (ر.) **أن يزيل منها ستة** ، وأن يُجمع الناس على حرف واحد . فلم يخالفه **أكثر الصحابة** ... وأراد عثمان أن يختار من

---

(١) طه حسين : **الفتنة الكبرى** : عثمان ص ١٥٩.
(٢) **الإتقان** ١:٦٢.
(٣) **الإتقان** ١:٦١ قابل ابن الخطيب ص ٤٠ ـ وبعضهم يقول سنة ثلاثين بعد الهجرة.

السبعة حرفاً واحداً هو أفصحها ويزيل الستة . وهذا من أصح ما قيل فيه ، لأنه مروي عن زيد بن ثابت))

فيحق لنا أن نتساءَل : هل اتلاف ستة أحرف منزلة من الأمانة لحفظ القرآن ؟ هل كانت لجان عثمان معصومة لاختيار ((**أفصح**)) الأحرف السبعة ؟ يصح الجزم بأنها لم تكن معصومة ، والنبي وحدَه كان يعلم الأفصح ، ولم يبيّنه ، بل أطلق القراءَة بها جميعا لأن كل حرف منها ((كافٍ شافٍ)) . فإن اتلافها شبهة قائمة على صحة الإِعجاز في الحرق العثماني .

قال الحارث المحاسبي في كتاب (فهم السنن) [1] : فإن قيل : **كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ؟** قيل : لأنهم كانوا يُبدون عن تأليف معجز ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبي ﷺ عشرين سنة . فكان تزوير ما ليس منه مأموناً ، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه)) . إنّما لو صحّ أنهم ((يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبي)) لما اختلفوا في حرف القرآن حتى الاقتتال والتكفير ؛ ولما أتلف عثمان الأحرف الستة وسائر المصاحف غير مصحفه .

أجل لم يخالف عثمان ((**أكثر الصحابة**)) . لكنه خالفه أئمتهم كعلي بن أبي طالب وابن مسعود . ويذكرون أنه أبى كابن مسعود أن يُسلّم نسخته الى عثمان لينقحها أو يتلفها ، بحجة أنها كانت كاملة وكان ابن مسعود يقول ((يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلّقوها)) [2] . وكذلك أبى أُبَي بن كعب أن يسلّم مصحفه . وأنس بن مالك يُهمل المصحف العثماني ويصطنع لنفسه مصحفاً على مثال مصحف ابن مسعود ، ومصحف أُبي . وهذه المصاحف الأربعة كانت متقاربة في اختلافها مع المصحف الأميري العثماني المفروض . وفي تقاربها بعضها لبعض أو في اختلافها جملة مع المصحف العثماني شهادة عليه .

وهذا الموقف ، بعد الجمع العثماني ، يلقي الشبهة على **عصمة الحرف العثماني وصحته وإِعجازه** ، فلا يصح التحدي به .

وتلك المصاحف الأربعة سلمت من الاتلاف العثماني لتقع في غيره .

---

(١) كتاب **الناسخ والمنسوخ** ص ٣٧ و١٥٩.
(٢) قابل **الإتقان** ١:٦٠.

٤ ـ الإصدار الأخير القائم للقرآن هو من الحجّاج

كان الحجاج بن يوسف ، من بني ثقيف ، عميل الأمويين المروانيين على العراق . وأحد دهاة السياسة العالميين عبر التاريخ ، ومن أكبر جزّاري البشرية . يقول دروزة [١]: ((**هناك رواية أن المصحف المتداول ، إنما هو مصحف الحجاج وجمعه وترتيبه** ... وأن الحجاج قد جمع المصاحف المتداولة ، ومصاحف عثمان وأبادها)) . ويقول ابن الخطيب (الفرقان ٤٩ ـ ٥٠) : ((قيل : إن أول من أمر بنقطه وشكله هو عبد الملك ابن مروان . فتصدّى لذلك عامله الحجاج بن يوسف الثقفي . فأمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر ففعلا ذلك . وقيل إن أول من نقطه أبو الأسود الدؤلي . وقيل : نصر بن عاصم الليثي . وقيل غير ذلك . والقول الأول هو الأرجح)) .

واختلافهم في **صاحب تنقيط القرآن وتشكيله** ، يهدم هدم الأستاذ دروزة [٢] لرواية مصحف الحجاج : ((ولعل الرواية محرفة من حادثة عناية الحجاج بإعجام القرآن أو نقطه ، ممّا صار نساخ المصاحف بعدها يأخذون به)) . ينقضه أيضاً ما ثبت أنه ((قد غيّر الحجاج بن يوسف الثقفي في المصحف **اثني عشر موضعاً**)) [٣] . فلم يقتصر دور الحجاج على التنقيط والتشكيل .

وقد سمعتُ من بعض الراسخين في العلم أن جمع الحجاج الجديد للقرآن إنما كان لإسقاط ما بقي بعد إسقاط عثمان ممّا لا يليق بحق بني أمية ، وخصوصا لإقحام آية الإسراء في مطلع سورة ((بني إسرائيل)) ، وذلك لتحويل حج أهل الشام من مكّة إلى بيت المقدس ، اتقاءً للفتنة المستعرة بمكّة على بني أمية . فصارت سورة ((بني إسرائيل)) سورة ((أسرى)) ثم ((الإسراء)) . وفي آية الإسراء شاهد على هذا الاقحام فهي لا تمت بصلة الى السورة ، ولا إلى ما قبلها في النسق أو في ترتيب النزول .

والبرهان الأكبر على أن إصدار الحجاج للقرآن لم يقتصر على إعجام القرآن وتنقيطه **هو إتلاف المصاحف العثمانية وسائر المصاحف المتداولة** . فلو لم يكن في جمع الحجاج من

---

(١) جامع الترمذي ، **أبواب التفسير** ، في آخر سورة التوبة.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) **القرآن المجيد** ص ٨٣.

تصحيف أو تحريف ، لما كان من داع لاتلاف المصاحف العثمانية وهي في حرفها واحدة مع نسخ الحجاج !

وليس من المعقول أن تضيّع الأمة نسخ المصحف الإمام ! ولا أن تسهر عليها كأثمن ما في الوجود ! إن ضياعها من الوجود جميعاً كان بقدرة قادر ، هو الحجاج ! يقول الأستاذ دروزة [1] : ((من المحتمل أن لا تكون **إحدى نسخ مصاحف عثمان الأصلية موجودة اليوم** ؟ ـ مع ما يُقال عن وجود بعضها قولاً غير مؤيَّد بشاهد ، ووصف عياني ، موثوقين)) . ويقول الدكتور صبحي الصالح [2]: ((وإن الباحث ليتساءَل : **أين أصبحت المصاحف العثمانية اليوم** ؟ ـ ولن يظفر بجواب شاف عن هذا السؤال ، فوجود الزركشة والنقوش الفاصلة بين السور ، أو المبيّنة لأعشار القرآن ، ينفي أن تكون **المصاحف الأثرية في دار الكتب بالقاهرة عثمانية** ، لأن المصاحف العثمانية كانت مجرّدة من كل هذا)) .

والنتيجة الحاسمة لفقدان النسخ العثمانية ـ وهي المصحف الأميري الذي أجمع الأمة على تلاوته الخلفاء الراشدون ـ أن الحجاج قد أتلفها ، وما أتلفها إلاّ ليحرّف فيه !

ومن لا يتورع عن هدم الكعبة ، بيت الله ، هل يتورّع عن مسّ القرآن ، كتاب الله ؟ مَن يُعدّون من ضحاياه نحواً من ماية وثلاثين ألفاً أسلمهم للجلاّد ، ومَن مات وسجونه تعج بنحو خمسين ألفاً من الرجال ، وثلاثين ألفاً من النساء ، هل يتورّع في تصفية القرآن من الإشارات الجارحة لبني أمية ؟ ومن إقحام ما اقتضت مصلحتهم بإقحامه كآية الإسراء ؟

لا شك إن الخصومة التي قامت في الجاهلية بين بني أمية وبني هاشم ، ثم امتدت الى الإسلام ، وكان من نتائجها انقسام الأمة والحروب الأهلية المتواصلة ، التي نخرت عظام الدولة الإسلامية منذ قيامها حتى القضاء عليها . وخروجها من يد العرب ؛ وكان من نتائجها أيضاً دون شك إصدار القرآن الأول على يد زيد بن ثابت من دون أئمة الصحابة كعلي وابن مسعود ، واصدار القرآن الثاني على يد عثمان والثورة عليه وقتله ، وإصدار القرآن الثالث والأخير ، الحي الباقي ، على يد الحجاج ـ قد لعبت دورها في تصفية القرآن كما وصل الينا. فليس في العالم اليوم ، بعد الحجاج ، إلاّ ((القرآن المصفّى)) .

---

(١) **القرآن المجيد** ص ٨٤.
(٢) ابن الخطيب : **الفرقان** ص ٥٠.

وبما أن القرآن الحالي المتداول هو أخيراً من جمع الحجّاج وإخراجه ـ كما يتضح من إتلاف أو ضياع المصاحف العثمانية ـ فكفى بالحجاج شبهة دائمة على صحة الحرف القرآني وعلى صحة إِعجازه .

وإننا لنصرّح : إن هذا التحفّظ لا يمنع **صحة القرآن الجوهرية** التي ندين بها ، ونشهد لها .

لكن بما أن إِعجاز القرآن قائم على صحة حرفه المنزل ، فبعد نزوله على سبعة أحرف وإتلاف ستة منها ، وبعد قراءَته بحسب الرخص النبوية الأربع ، وبعد تصفيته بالعرضات النبوية السنوية ، والاصدارات الثلاثة التاريخية التي كان مسك الختام فيها إصدار الحجّاج ، وبعد الاتلاف الشامل لسائر النسخ الأخرى على يد عثمان ، والاتلاف الكامل على يد الحجاج ، فلا يصح القول بإِعجازه منزل في حرف القرآن ، ولا بمعجزة في ((حفظه)) . وادعاء ذلك إنما هو التجنّي على التاريخ الثابت من المصادر الإسلامية نفسها .

بحث سادس

((القرآن المصفّى))

إن القرآن الحالي ليس القرآن كله نزل على محمد ؛ بل هو ((القرآن المصفّى)) ، بعد التصفيات الثلاث التاريخية التي تنطق بها الأخبار والآثار .

التصفية الأولى للقرآن كانت التصفية النبوية عينها التي كان يقوم بها النبي العربي كل سنة ، في عرْضات القرآن السنوية مع جبريل ، كما نقلوا . وظواهرها متعدّدة ، من نسيان الى تبديل الى محو ؛ ومن رفع قرآن من التلاوة الى اسقاط منسوخ منه ، حتى ((ذهب منه قرآن كثير)) كما سبق تفصيل ذلك .

التصفية الثانية للقرآن كانت التصفية العثمانية التي أتلف فيها الخليفة الثالث ستة أحرف من ((الأحرف السبعة)) التي أقرأ بها النبي القرآن للناس ؛ والتي أبدل فيها ترتيب

القرآن التاريخ بالترتيب التنسيقي ، فظهر تيّار بني أمية في ((حفظ)) القرآن على تيار أهل البيت ؛ والتي أسقط فيها عثمان كثيراً من المنسوخ الذي كان يحتفظ به مصحف الإمام علي بن أبي طالب ، حتى اتهموه بأنه ((غيّر المصاحف)) ، وأتلف مصاحف الخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين ، ومصاحف التابعين لهم بإحسان .

التصفية الثالثة هي تصفية الحجاج بن يوسف ، عامل الأمويين وعميلهم ، الذي أسقط من القرآن كل ما كان فيه بحق بني أمية ، وغيّر بعض المواطن كما ذكروا بعضها الى اليوم؛ والذي أتلف المصاحف العثمانية نفسها ، وقد أجمع الصحابة على جعلها ((إمامًا للناس)) . وتصفية تأتي على يد الحجاج إنما هي موضوع شبهة قتّالة لا تزول .

فبعد هذه التصفيات الثلاث لم يبق بين أيدي المسلمين إلاّ ((**القرآن المصفّى**)) . وإعجاز التنزيل ومعجزته يقومان على ((حفظه)) كما نزل . وبما أن القرآن الحالي هو ((القرآن المصفّى)) فلا يصح التحدّي به . وكم كان صادقا قول المعتزلة : إن الله لم يجعل القرآن دليل النبوّة .

خاتمة

هل في ذلك الواقع التاريخي من معجزة في ((حفظ)) القرآن ؟

ذلك ما نقلته لنا الأخبار والآثار الإسلامية عن جمع القرآن وتدوينه . فبعد ظواهر التنزيل من نسيان وإسقاط وتبديل ونسخ ومحو ؛ وبعد الرخص النبوية الأربع في قراءَة القرآن، تلك التي جعلت النص المنزل سبعة أحرف أي نصوص ((باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني)) ، وقد تُقرأ بالمعنى لا بالحرف ؛ ((وقد كانت المصاحف بوجوه من القراءَات المطلقات على الحروف المسبعة)) ؛ وبعد الاصدارات الثلاثة المختلفة التي يُحرِّق بعضها بعضاً ، حتى لم يسلم إلاّ ((القرآن المصفّى)) بتصفيات ثلاث نبوية وعثمانية وحجاجية ، هل من معجزة في ((حفظ)) القرآن سالماً كما نزل ؟ وبما أن إعجاز القرآن في نظمه قائم على سلامة حرفه كما نزل ؛ وبما أن القرآن الحالي هو ((القرآن المصفّى)) ؛ فلا يصح التحدّي بإعجازه في حرفه ونظمه .

والقول الفصل ، إننا لا نشك في حفظ القرآن وصحته الجوهرية . إنما نقول : ليس من معجزة في ((حفظ)) القرآن . وتاريخ جمعه وتدوينه في تصفيات ثلاث خير شاهد عليه .

[Plank Page]

الفصل السادس

المعجزة الموضوعية

توطئة عامة

المعجزة الحقيقية تكون في المعنى قبل الحرف

ندرس في هذا الفصل أربعة أنواع من المعجزة : في العقيدة وفي الشريعة وفي «العلم» وفي التاريخ .

من المشهور أن إعجاز القرآن الأسمى هو نظمه وبيانه أي حرفه . وبما أن القرآن كتاب وحي ودين ، فمن البديهة أن تكون معجزته الحقيقية في المعنى قبل المبنى ، في الروح قبل الحرف ، في الموضوع قبل الأسلوب . لذلك فالإعجاز الأول في كتاب وحي ودين هو **الإعجاز في الهدى** . فمهما كانت منزلة القرآن من التبيين والبيان ، فغاية الله والإنسان هي العقيدة والإيمان . هذه هي المعجزة الكبرى . والقرآن يشهد لنفسه أنه تابع لا متبوع: «فبهداهم اقتدِهْ» (الأنعام ٩٠) ؛ «ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً» (هود ١٧ ؛ الأحقاف ١٢) . فالقرآن يأتم بالكتاب وأهله .

وبما أن التوحيد واحد في التوراة والإنجيل والقرآن ، فقد نادى بعضهم باختصاص القرآن بالإعجاز في التشريع . ووجد بعضهم معجزة له فريدة في «العلم» . وذهب بعضهم ،

بسبب «أمية» محمد إلى القول بالإعجاز في التاريخ ، أي في القصص القرآني . وفاتهم جميعاً تصريح القرآن عن مصادره ، في التشريع : «يريد الله ليبيّن لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم » (النساء ٤٦) ؛ وفي «العلم» : «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً» (الإسراء ٨٥) ، وهذا القليل « هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم» من قبله (العنكبوت ٤٩) ؛ وفي التاريخ ، فإن قصص القرآن «من أنباء الغيب» المنزل في الكتاب قبله (آل عمران ٤٤ ؛ هود ٤٩ ؛ يوسف ١٠٢) ، فهو «من أنباء الرسل» (هود ١٢٠) ، «من أنباء ما قد سبق» (طه ٩٩) .

فهذا الواقع القرآني المشهود يشهد هل في القرآن من معجزة موضوعية في تعليمه . والمضمون يأتي قبل المنظوم .

الجزء الأول

الإعجاز في الهدى والمقيدة

توطئة

سرّ الإعجاز في النظم أم في الهدى ؟

إن النبوّة والتنزيل رسالة دين وإيمان وهدى ؛ وسرّ كتاب من الله في موضوعه ومعناه ، قبل أن يكون في حرفه ونظمه : **فاللفظ جسم والمعنى روحه** ، والعبرة بالأرواح قبل الأجسام . فإن كان في القرآن معجزة ، فيجب أن تكون في هداه قبل نظمه. **والقرآن نفسه إنما يتحدّى بهداه** : ((قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعْه ، إن كنتم صادقين)) (القصص ٤٩) ـ فكانت ، بحسب تاريخ النزول ، الآية الأولى في التحدي بالقرآن ، وعنوان تحديه بإعجازه . لذلك يردّ فريد وجدي قول الأمة والجماعة بأن معجزة القرآن في نظمه ، ويراها هو في ((**روحانيته العالية**)) . يقول [1] : ((أما ما ولع به الناس من

---

(١) قابل : **دائرة معارف القرن العشرين** . مادة : قرأ ـ المصنف الأول من المجلد ٧ ص ٦٧٧ . ثم مقدمة ((**تفسير القرآن** لوجدي))

أن القرآن معجز لبلاغته ، وتجاوزه حدود الإمكان حتى وقف الإعجاز ببلاغته دون وجوه إعجازه الأخرى ، فلم نقف له على أثر في ذات القرآن ، مع أنه قد ورد ذكر القرآن في آيات عِدّة ، فلم نرَ في واحدة فيها ما يذهب إليه الآن الأكثرون ... وصف الله كتابه في هذه الآيات الكريمة بأوصاف كثيرة ، **وليس من بينها واحد يشير الى بلاغته اللفظية** ... ذلك أن **البلاغة من الصفات الثانوية التي لا يصح أن يُمتدح بها الله في كتابه** . ولو كانت البلاغة في أساس تحديه للكفار بالإتيان بسورة من سوره ، أما كان يشير إلى تلك البلاغة ولو في آية واحدة ؟ وقد أتى بعشرات منها في التنويه بحقيقته وحكمته وروحانيته)) .

نحن في قضية الدين ، لا في حلبة الأدب والبيان . لذلك فالإعجاز المفروض في القرآن ، قبل غيره ، هو الإعجاز في حقيقته وحكمته وروحانيته أي في الهدى .

لكنّ القوم لمّا رأوا أن القرآن يتحدى ((بكتاب من عند الله هو أهدى منهما)) أي من الكتاب والقرآن (القصص ٤٩) وأن ((من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة)) (الأحقاف ١٢ ؛ هود ١٧) ، فليس التحدّي بالهدى ميزة ينفرد بها ، عدلوا الى فهم تحديه بالنظم والبيان ، **فحرّفوا بذلك معنى التحدي بإعجاز القرآن** . إن التحدي الأول ، في كتاب الله ، بعد التنزيل ، هو التحدي بالهدى .

فهل في هدى القرآن إعجاز في الهدى ؟ هدى العقيدة ؟ أم هدى التشريع ؟ أم هدى ((العلم)) ؟ أم هدى القصص ؟ والقول الفصل في ذلك : ((فبهداهم اقتدِهْ)) .

بحث أوّل

القرآن يتحدّى المشركين بهدى الكتاب

أوّلاً : القرآن يحصر التحدّي بالهدى وبالمشركين

إن مطلع التحدّي بإعجاز القرآن كان التحدّي بالهدى ، في قوله : فلمّا جاءَهم الحق من عندنا قالوا : لولا أُوتي مثلَ ما أوتي موسى ! ـ أولم يكفروا بما أُوتي موسى من قبل ؟ قالوا: سحْران تظاهرا ! وقالوا : إنّا بكلٍّ كافرون ! قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو

أهدى منهما أتّبعْه ، إن كنتم صادقين ! فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلمْ أنّما يتّبعون أهواءَهم ... الذين آتيناهم الكتاب من قبله ، هم به يؤمنون وإذا يُتلى عليهم قالوا : آمنّا به ، إنه الحقّ من ربنا ، **إنّا كنّا من قبله مسلمين** ؛ أولئك **يؤتون أجرهم مرتين** ... » (القصص ٤٨ ـ ٥٤) .

في هذا الفصل يفصّل القول في موقف الأميّين العرب وأهل الكتاب (النصارى من بني إسرائيل) من الدعوة القرآنية ، فالمشركون يكفرون بالكتاب والقرآن ، فيتحداهم «بكتاب هو من عند الله أهدى منهما» ، ويعلن عن عجزهم . هذا هو التحدّي القرآني الحق ، لا التحدي بالنظم والبيان . وهو تحدٍّ للكافرين ، لا لأهل الكتاب . وفي قوله : «**أهدى منهما**» يحصر التحدي في الهدى ، **ويجمع الكتاب والقرآن في إعجاز واحد بالهدى** . وبما أنه يعتبر الكتاب «إمامه» في الهدى (الأحقاف ١٢ ؛ هود ١٧) ، فلا يمكن أن يوجه تحدّيه للكتاب وأهله.

وأهل الكتاب (النصارى من بني إسرائيل) يتضامنون مع القرآن في الدعوة للإسلام ، **لأن اسلام القرآن من اسلامهم** : «إنا كنّا من قبله مسلمين» . والقرآن يعتز بإيمانهم به ويعطيه حجة للمشركين ، ويعلن فضل هؤلاء الكتابيين على جماعة محمد أنفسهم : «أولئك يؤتون أجرهم مرتين» ، لإيمانهم الأول بإسلامهم ، ولإيمانهم أيضاً بالدعوة القرآنية . ومن كانوا مسلمين قبل القرآن ، ولهم مع القرآن الأجر مرتين ، **فلا يصح توجيه التحدي بالهدى ، أو بإعجاز القرآن لهم** . إن هدى القرآن من هداهم ، واسلامه من اسلامهم ، وإعجاز القرآن من إعجاز الكتاب . فالتصريح واضح : «أهدى منهما ... إنا كنا من قبله مسلمين ... أولئك ؟ يؤتون أجرهم مرتين» .

فهل يصح ، بعد هذا النص القاطع ، تحدّي الكتاب وأهله بهدى القرآن ؟

ثانياً : ظهور الإسلام «على الدين كلّه» هو ظهور «للإسلام» من قبله

يقول : هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون» (التوبة ٣٣ ؛ الفتح ٢٨ ؛ الصف ٩) . لكن هذا التحدّي «بالهدى ودين الحق» على «الدين كله» ليس مطلقا ؛ إنما هو مقصورٌ نصّاً على المشركين: «ولو كره المشركون»!

ويرد هذا التحدي لأول مرة في سورة (الفتح ٢٨) ما بين الفتح القريب لشمال الحجاز والفتح الأكبر لمكّة (الفتح ٢٧) ؛ ممّا يدل على أنه مقصور على المشركين العرب ؛ فهو تخصيص في معرض التعميم . ولو جاءَت الآية نفسها في معرض قتال أهل الكتاب (التوبة ٣٤) فلا تعنيهم لأن صفة ((المشركين)) لا يطلقها القرآن أبداً على أهل الكتاب .

ثالثاً : جدال القرآن كان بالكتاب المنير

يؤيد ذلك تحديه للمشركين : ((ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)) (لقمان ٢٠ ؛ الحج ٨) . وهذا التحدي يرد في مكّة وفي المدينة . فالناس كناية عن العرب المشركين: إنهم يجادلون بغير هدى الكتاب ، ولا عِلم الإنجيل ، أي بلا سند من ((الكتاب المنير)) . **أما محمد فهو يجادلهم بعلم وهدى ((الكتاب المنير))** . وهذا الجدال دليل على معنى التحدي ((بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون)) .

رابعاً : الكتاب من قبله ((هدى للمتّقين)) من العرب

والكتاب المنير هو أيضاً هدى للمتقين من العرب : ((ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، **هدى للمتقين** ... الذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون)) (البقرة ١ ـ ٤) . فالإشارة ((**ذلك** الكتاب)) تشير إلى البعيد المجهول ، فلا تعني القرآن العربي، بل الكتاب ((الإمام)) : فكأنه تلا منه آيات ، ويعلّق عليها بآيات القرآن العربي . و ((المتقون)) في اصطلاحه كناية عن ((الذين آمنوا)) من العرب ، كما كان عند أهل الكتاب من يهود ونصارى كناية عن غير أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب وليسوا في الأصل من أهله. فالمتقون من العرب مع محمد يؤمنون بالتنزيل القرآني كما يؤمنون بالتنزيل الكتابي . فهدى الكتاب هو ((هدى للمتقين)) ؛ فلا يكون تحدي القرآن بالهدى لأهل الكتاب ، بل لغيرهم .

خامساً : هدى القرآن من هدى الكتاب

يقول : ((قلْ : إن هدى الله هو الهدى)) (البقرة ١٢٠ ؛ الأنعام ٧١) ، ((قلْ : إن الهدى هدى الله)) (آل عمران ٧٣) . لكن هذا الهدى من قبله: ((ولقد آتينا موسى الهدى)) (غافر ٥٣)؛ وهو في الكتاب : ((وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل)) (الإسراء

٢) ، وللناس أجمعين : ((وما قدروا الله حقَّ قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ! ـ قلْ : مَن أنزل الكتاب الذي جاءَ به موسى نوراً وهدى للناس ؟)) (الأنعام ٩١) . فالهدى في الكتاب قبل أن يكون في القرآن .

سادساً : هدى القرآن من هدى ((المسلمين)) من قبله

والقرآن تثبيت للجماعة ، وهدى وبشرى ، أي توراة وإنجيل بحسب اصطلاحه ، للمؤمنين المسلمين من قبله : ((واذا بدَّلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزّل ـ قالوا : إنما أنت مفتر ! ـ بل أكثرهم لا يعلمون . قلْ : نزّله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبّت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين)) (النحل ١٠١ ـ ١٠٢) . **لاحظ التمييز الصريح بين ((الذين آمنوا)) وهم جماعة محمد ، و((المسلمين)) . فاسم ((المسلمين)) في القرآن** لا يعني جماعة محمد الذين يصفهم بتواتر ((بالمتقين)) و ((الذين آمنوا)) ؛ بل الطائفة المسلمة من قبله التي أُمر بأن ينضم إليها ويتلو معها قرآن الكتاب (النمل ٩١) . والقرائن القرآنية تدل على أنهم ((النصارى من بني إسرائيل)) (قابل الصف ١٤) . فالقرآن تثبيت لجماعة محمد ؛ بينما هو ((هدى وبشرى للمسلمين)) ؛ إنه هدى الكتاب وبشرى الإنجيل معاً .

سابعاً : القرآن يشهد للاسلام بشهادة أهله ((الراسخين في العلم))

فالقرآن لا يتحدّى بالهدى هؤلاء ((المسلمين)) من قبله (القصص ٤٩) ، بل يُؤمر بالانضمام اليهم وتلاوة قرآن الكتاب معهم : ((**وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن**)) (النمل ٩١ ـ ٩٢) . والقرآن العربي كله يشهد بهذا الإسلام الذي يشهد به هؤلاء المسلمون من قبله ، الذين يسميهم ((الراسخين في العلم)) (آل عمران ٧) ، ((وأولي العلم قائماً بالقسط)) ، يقول : ((شهد الله أن لا إله إلاّ هو ، والملائكة ، وأولو العلم قائماً بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام)) (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . فالقرآن يشهد بشهادة النصارى ، أولي العلم المقسطين ((أن الدين عند الله الإسلام)) ـ فلا يمكن أن يفكّر بتحديهم بإعجاز القرآن في الهدى. وهكذا فإن القرآن يتحدّى بالهدى غير أهل الكتاب . فتحديه محصور مقصور ، مقطوع ممنوع . فليس الإعجاز القرآني في الهدى تحدياً للكتاب

وأهله . بل هو يتحدى المشركين بالكتاب والقرآن معاً : ((أهدى منهما)) (القصص ٤٩) فهما متضامنان متكافلان في الهدى وإعجازه . والنبي العربي هو في الهدى تابع لا متبوع: ((فبهداهم اقتدهْ)) (الأنعام ٩٠) .

بحث ثان

الكتاب ((إمام)) القرآن في الهدى

لا يتحدى القرآن الكتاب وأهله بالهدى ، ولا يدّعي القرآن نسخ الكتاب في الشرع والهدى ؛ بل يعتبر القرآنُ الكتاب ((إمامه)) في الهدى ، و((سنن الذين من قبلكم)) (النساء ٢٦).

أولاً : ليس في هدى القرآن على الكتاب سوى اللسان العربي

يقول : ((وإذ لم يهتدوا به ، فسيقولون : هذا إفك قديم ـ ومن قبله **كتاب موسى إماماً** ورحمة ، وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا ، وبشرى للمحسنين)) (الأحقاف ١١ ـ ١٢) . يردّ على تهمة افترائه (٨) وعلى قولهم ((هذا إفك قديم)) بانتسابه الى الكتاب الذي يعتبره إمامه ، فاذا كان الكتاب إمامه ، فالإعجاز في الهدى هو في ((الإمام)) قبل أن يكون في النسخة العربية عنه . وعند الشك في صحة الهدى في النسخة العربية ، يردّ الى ((الإمام)) فعنده الخبر اليقين . لأنه ليس في النسخة العربية ما يزيد على ((الإمام)) **سوى اللسان العربي** : ((وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً)) . وأنت تلاحظ أنه لا يجعل إعجازه في هذا اللسان العربي ، بل في كونه تصديق الكتاب الإمام في الهدى . وهذا الهدى القرآني إنذار للظالمين من يهود ومشركين ، و ((بشرى للمحسنين)) أي ((النصارى)) : فإذا كان القرآن ((بشرى للمحسنين)) فلا يكون تحدّيًا لهم بإعجازه . يؤكد ذلك في ردّه

الأول على تهمة الإفتراء والكفر به : ((قل : أرأيتم **إن كان من عند الله** وكفرتم به ـ وشهد شاهد من بني إسرائيل (النصارى) **على مثله** فآمن واستكبرتم ـ إن الله لا يهدي القوم الظالمين)) (الأحقاف ١٠) . فهو يستشهد على أن القرآن من عند الله بشهادة شاهد من بني إسرائيل النصارى ((**على مثله**)) . فإذا كان ((مثل)) القرآن عند هؤلاء النصارى ، وهذا نص القرآن القاطع ، فقد سقط كلّ تحدٍّ بالقرآن وهداه وإعجازه .

ثانياً : صحّة الهدى في القرآن مبنية على إمامة الكتاب له

يعود للتصريح نفسه في قوله : ((أفمن كان على بيّنةٍ من ربه ـ **ويتلوه شاهد منه** ، ومن قبله كتاب موسى **إماماً** ورحمة ـ أولئك يؤمنون به . ومَن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده . **فلا تك في مرية منه** ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) (هود ١٧). هذا التصريح يكشف عن سر القرآن وهداه وإعجازه : شاهد من قِبَل الله ـ وهو نفس الشاهد من بني إسرائيل (النصارى) على مثله ـ يتلو القرآن على محمد في ((مثله)) ، فيفصّله محمد ((لساناً عربياً)) (يونس ٣٧ والأحقاف ١٢) ؛ ويشهد على صحة ((المِثْل)) النصراني ، وعلى صحة ((المِثْل)) القرآني المفصِّل له لساناً عربياً أن ((من قبله كتاب موسى إماماً)) . **فإمامة الكتاب ، ووجود ((مثل)) القرآن عند النصارى من بني إسرائيل ، هما البرهانان على صحة القرآن العربي في ((تفصيل الكتاب)) الإمام** . وهؤلاء النصارى من بني إسرائيل هم ((على بيّنة)) من ربهم ، لذلك فهم يؤمنون بالدعوة القرآنية وإن كفرت بها الأحزاب من مشركين ويهود . وهذا الإيمان دليل وحدة الكتاب ، ووحدة الإيمان ، ووحدة الدعوة ، ووحدة الأمة (المؤمنون ٥٢ ؛ الأنبياء ٩٢) . أيصح إذن أن يكون في القرآن العربي وهداه وإعجازه تحدٍّ لهم ؟ فحسب النسخة أن تكون كإمامها وكمثْلها . وفي هذا التصريح ردّ على الكافرين بالقرآن العربي ، وردع لمحمد نفسه عن الشك في قرآنه : ((فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك)) . والقرآن العربي ((هو الحق من ربك)) لأنه نسخة عربية عن ((المِثْل)) الذي يتلوه شاهد من بني إسرائيل النصارى على محمد ، ((ومن قبله كتاب موسى إماماً)) . **فهدى القرآن وإعجازه من هدى ((المِثْل)) وإمامه** . وبذلك ، بنص القرآن القاطع ، تسقط عنه دعوى التحدي بإعجازه في الهدى والبيان .

ثالثاً : محمد يؤمر أن يقتدي في القرآن بهدى الكتاب وأهله

والأمر في القرآن العربي أن يقتدي محمد فيه بهدى الكتاب وأهله . فهو يذكر الأنبياء من نوح الى إبراهيم الى موسى الى عيسى ، ويذكر ((من آبائهم وذريتهم وأخوانهم ؛ واجتبيناهم **وهديناهم الى صراط مستقيم : ذلك هدى الله** يهدي به من يشاء من عباده)) (الأنعام ٨٤ ـ ٨٨) . ثم يقول : أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم (الحكمة) والنبوّة ـ فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ـ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**)) (٨٩ ـ ٩٠) . فقوله ((الذين آتيناهم الكتاب والحُكم [1] والنبوّة)) هو اصطلاح قرآني متواتر كناية عن ((الذين يُقيمون التوراة والإنجيل)) معاً ، من أهل الكتاب ، وهم النصارى من بني إسرائيل فهو يصرّح بأنهم على الصراط المستقيم ، وأن هدى الله معهم : ((ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده)) . ويأيه الأمر صريحاً محكماً : ((أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده)) . وهكذا فإن محمداً يُؤمر منذ رؤياه في غار حرّاء ، في الرسالة والدعوة ، أن يقتدي بهدى النصارى من بني إسرائيل . فالإِعجاز في الهدى هو اذن عندهم ومنه يستمد محمد هداه .

رابعاً : ما القرآن سوى تعليم العرب ((الكتاب والحكمة)) أي التوراة والإنجيل

إن دعوة محمد ، بنص القرآن القاطع ، هي تعليم العرب ((الكتاب والحكمة)) ـ والحكمة في مثل هذا التعبير اصطلاح خاص ، كناية عن الإنجيل : ((ولمّا جاء عيسى بالبيّنات قال : قد جئتكم بالحكمة)) (الزخرف ٦٣) ؛ كما أن ((الكتاب)) كناية عن توراة موسى ، كما في قوله لعيسى : ((واذ **علمتك الكتاب والحكمة** ـ والتوراة والإنجيل)) (المائدة ١١٠) ، حيث ((الواو)) بين التعبيرين عطف بيان . هذا ما يؤكده القرآن مراراً : ((كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، **ويعلّمكم الكتاب والحكمة** ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)) (البقرة ١٥١) ، كما طلب إبراهيم واسماعيل : ((ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ، ويزكيهم ، إنّك أنت العزيز الحكم)) (البقرة

---

(١) الحكم أي الحكمة (الجلالان) فقد أخذ التعبير العبراني الأرامي بحرفه شهادة في الانتساب اليهم تعبيراً وتفكيراً.

١٢٩) . وهكذا «لقد مَنّ الله على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، **ويعلمهم الكتاب والحكمة** ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (آل عمران ١٦٤).

إن هذا التصريح المتواتر بالحرف الواحد يدل على توقيف الدعوة القرآنية على حرف موروث ومحوره الدعوة أن «يعلمهم الكتاب والحكمة» كما تعلَّمهما ودرسهما : «وكذلك نصرّف الآيات ! وليقولوا : **درست** ! ـ ولنبينه لقوم يعلمون» (الأنعام ١٠٥) . فإن سكوته عن الرّد على تهمة الدرس ، وعدوله الى بيان حكمته دليل على صحته : فقد «درس» محمد « الكتاب والحكمة» لأنهم «كانوا عن دراستهم غافلين» ، وهو يعلمهما للعرب في القرآن العربي ، «تفصيل الكتاب». فالإعجاز في الهدى والبيان ، إنما هو في «الكتاب والحكمة» ، قبل القرآن ، بشهادته الصريحة القاطعة .

خامساً : القرآن يشرّع للعرب دين «موسى وعيسى» ديناً واحداً

إن النصارى من بني إسرائيل ـ من دون اليهود والمسيحيين ـ كانوا يقيمون التوراة والإنجيل . والقرآن يدعو بدعوتهم ويشرع للعرب «نصرانيتهم» بتصريحه : «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه» (الشورى ١٢) . إن ما وصى به الله نوحاً وإبراهيم نعرفه من توراة موسى التي جدّدت دينهما ؛ فالأمر يقتصر على موسى وعيسى . فنص القرآن القاطع أن القرآن يشرع للعرب دين موسى وعيسى ديناً واحداً ، على طريقة النصارى من بني إسرائيل . هذا هو الأمر القرآني لمحمد نفسه : «قلْ : آمنا بالله ... وما أوتي موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم ، **لا نفرّق بين أحد منهم** ، ونحن له مسلمون» (آل عمران ٨٤) ؛ كما هو الأمر لأمته : «وقولوا : آمنا بالله ... وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم : **لا نفرّق بين أحد منهم** ونحن له مسلمون» ـ كما يُفرّق اليهود والمسيحيون (البقرة ١٣٦) لذلك يتحداهم بقوله : «قل : يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ـ وما أنزل إليكم من ربكم» (المائدة ٦٨) . هذه هي «النصرانية» عينها ؛ وهذا هو الدين الذي يشرعه للعرب .

سادسا : «عباد الرحمان» هم «إمام المتّقين» من العرب

يصرّح : «وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا ... والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً ... والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرّة أعين ، **واجعلنا للمتقين إماماً**» (الفرقان ٦٣ ـ ٧٤) . اصطلاح «المتقين» يعني المهتدين من «الأميّين» العرب . واصطلاح «عباد الرحمان» ، بما أنه مقابل «للمتقين» فلا يعني أبداً جماعة محمد ، ولا اليهود ، بل رهبان عيسى «النصارى» ، كما تدل عليه أيضاً صفتهم التي ينفردون بها: «يبيتون لربهم سجداً وقياماً . فعباد الرحمان هؤلاء هم «إمام المتقين» من العرب في الدين والهدى ، فهم أهل الإِعجاز في الهدى لأنهم «الإمام» ، والقرآن وأهله تبعٌ لهم في الهدى .

سابعاً : «ما لم ينزل من القرآن على أحد قبل النبي ﷺ»

عقد السيوطي في (الإتقان ١:٣٩) فصلاً : «ما أُنزِل منه على بعض الأنبياء ، وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ ... من الثاني : الفاتحة وآية الكرسي وخاتمة (البقرة)» . مع خلاف في هذه الخاتمة أهي آيتان أم ثلاث . فيكون ما اختص به محمد في التنزيل والهدى سبع آيات (الفاتحة) ، وآية الكرسي (البقرة ٢٥٥) وثلاث آيات من خاتمة (البقرة) . أي نحو عشر آيات . فهب الأمر كذلك ، هل يقتصر الإِعجاز في التنزيل والهدى عليه ؟ وهذا دليل جهل كبير بالكتاب : (فالفاتحة) وردت بموضوعها ، الهداية الى «الصراط المستقيم» ، وبأسماء الله الحسنى فيها ، في زبور داود وفي سفر أشعيا (ف ٤٠ ـ ٥٠) . وآية الكرسي فهي هذه : «الله ، لا إله إلاّ هو ، الحيّ القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السماوات والأرض ... وسع كرسيه السماوات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم» (البقرة ٢٥٥) . فأي إِعجاز فيها على زبور داود ؟ والتعبير العبراني الأرامي ، «**الحي القيوم**» دليل مصدره . واذا كان «كرسيه» قد «وسع السماوات والأرض» فأي محل بقي لغيره ممّا ذكره القرآن فيها ؟ أجل هو تعبير مجازي لا يؤخذ على حرفه ، لذلك فهو من المتشابه الذي لا إِعجاز فيه .

وهذه آيات (البقرة) : «لله ما في السموات والأرض : وإنْ تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير (٢٨٤) .

آمن الرسول بما أُنزِل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ـ لا نفرّق بين أحد من رسله ـ وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير (٢٨٥) . لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرْنا على القوم الكافرين)) (٢٨٦) ـ فمن قال إن هذا الإيمان وهذا الدعاء ليس ((مثلهما)) في الكتاب فهو جاهل به . وآية المحاسبة على الوسوسة (٢٨٤) تذمّر منها الصحابة ، فنسختها الآية (٢٨٦) فلا إِعجاز في تنزيل منسوخ وناسخ !

والقول الفصل في هذا كله تصاريح القرآن : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) ، فالقرآن ((تفصيل الكتاب)) لذلك أُمِر محمد : ((فبهداهم اقتدِهْ)) فالكتاب التابع لا يكون معجزاً في الهدى أكثر من الكتاب المتبوع .

بحث ثالث

من ظواهر تحدّي القرآن بالهدى

ظاهرة غريبة ، من ظواهر تحدي القرآن بالهدى ، هي تلك **الأزمات الإيمانية** التي فصلناها في فصل سابق ، ونعود اليها هنا بإيجاز ، لنرى أين يكون الإِعجاز في الهدى والعقيدة .

أوّلاً : التحدّي بالقرآن يلازمه ردْع النبي عن الشرك

إن تحدّي المشركين ((بكتاب من عند الله هو أهدى منهما)) أي من الكتاب والقرآن (القصص ٤٩) يليه للحال ردْع النبي عن الانزلاق الى الشرك : ((قلْ : ربي أعلم مَن جاءَ بالهدى ، ومن هو على ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب ، إلاّ رحمة من

ربك : **فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين ! ولا يصدّنُّك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ! وادعُ الى ربك ، ولا تكوننَّ من المشركين ! ولا تدعُ مع الله الهاً آخر** ، لا إله إلاّ هو ! كل شيء هالك، إلا وجهه ، له الحكم وإليه تُرجعون)) (القصص ٨٥ ـ ٨٨) .

تلك صورة قاتمة من صور الأزمات النفسية الإيمانية المتواصلة التي كانت تنتاب محمداً . وحاشا لله أن يحذّر عبده من الشرك على أنواعه ، لو لم يكن فيه شيء من تجربة الشرك ! فإعجاز الدعوة في الهدى تظهر آثاره أولاً على نبيّه ، لأن هدى النبي من هدى نبوته ودعوته ، وهذا لا ينسجم مع الإعجاز في الهدى .

ثانياً : التحدّي بالقرآن والركون شيئاً قليلاً الى المشركين

في سورة (الإسراء) يتحدى ((الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ... ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)) (٨٨) ! ثم يعتزّ بإيمان ((الذين أوتوا العلم من قبله ، إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّداً)) (١٠٧) . وإذا به في الوقت نفسه يُعاتَب على فتنته عن الوحي القرآني التي كادوا يوقعونه فيها : ((وإنْ كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ، واذاً لاتّخذوك خليلاً ! ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً)) ! (٧٣ ـ ٧٤).

لقد كاد محمد يركن ((شيئاً قليلاً)) الى فتنتهم ، لو لم تتداركه رحمة الله بمثل ((الذين أوتوا العلم من قبله)) . فالفضل في إعجاز الهدى لهم . ولا مراء في ركون محمد ((شيئاً قليلاً)) الى المشركين ، لأنه حاشا للوحي أن يخبر بغير الحقيقة والواقع . فأين إعجاز النبي الذي يعصمه من الفتنة : إن التحدي بالقرآن (الإسراء ٨٨) لا يستقيم مع إمكانية فتنة نبيه عنه، لأن هدى الرسول من هدى نبوته .

ثالثاً : التحدّي بالقرآن وهداه ، والشك من تنزيله

يصرّح القرآن بأنه ((تفصيل الكتاب)) (يونس ٣٧) ثم يتحدى ((بسورة مثله)) (يونس ٣٨) . فالتحدّي لا يطال أهل الكتاب ، لأن القرآن ((تفصيل الكتاب)) إنما هو للمشركين وحدَهم. مع ذلك ، فإنه بعد ذلك التصريح وذلك التحدي يعلن : ((فإن كنت في شك

ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأُون الكتاب من قبلك : لقد جاءَك الحق من ربك ، فلا تكوننَّ من الممترين ! ولا تكوننَّ من الذين كذّبوا بآيات الله ، فتكون من الخاسرين)) (٩٤ ـ ٩٥) . إن الافتراض من الوحي لا يكون عبثاً ، إنما هو برهان الواقع : فمحمد انتابته موجة شك من تنزيل القرآن عليه ، وهذا الشك لا يستقيم مع التحدي ((بسورة مثله)) ، بل يحدّه . ويظل الإعجاز في الهدى عند الذين يحيله الوحي اليهم ، لا عند الذي يحذّره من الشك في صحة التنزيل اليه .

رابعاً : التحدّي بالقرآن ومحنة المِرْية منه

في سورة (هود ١٢ ـ ١٧) ظاهرة غريبة ، يأتي التحدّي ((بعشر سور مثله)) بين الفتنة بترك ((بعض ما يوحى إليك)) وبين ((مرية منه)) . فهو يصرّح : ((فلعلّك تارك بعض ما يُوحى إليك ، وضائق به صدرك ، أن يقولوا : لولا أُنزل عليه كنز ، أو جاءَ معه ملك ! ـ إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل)) (١٢) . ثم يقول للحال : أم يقولون : افتراه ! ـ قلْ: **فأتوا بعشر سور مثله** مفتريات وادعوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ...)) (١٣) . ويختم بهذا التصريح المذهل : ((أفمن كان على بيّنة من ربه ـ ويتلو شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً ـ أولئك يؤمنون به ؛ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ! **فلا تك في مرية منه** ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) (١٧) . يُدعى محمد الى عدم الشك من حقيقة ما يُوحى اليه ، لأنه وإن كفر به ((الأحزاب)) أي ((أكثر الناس)) في مكّة ، فهناك مَن يؤمنون به ، وهم على ((بيّنة من ربهم لأن لديهم ((كتاب موسى إماماً ورحمة)) ؛ وهو كقوله : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) (الأحقاف ١٠) حيث الشاهد ((النصراني)) يصير جماعة النصارى من بني إسرائيل ؛ فهم الذين يشهدون للنبي ويرفعون ((المرية)) من نفسه : فالهدى هداهم ، والإعجاز إعجازهم .

لكن ما هذا التردّد المتواصل بين الإيمان والشك من نفسه ومن أمره ومن وحيه ! هل تردّد الرسول في هداه من ((دلائل الإعجاز)) في هدى رسالته ؟

خامساً : التحدّي بالقرآن وتحذير النبي من مخالطة المشركين

سورة (الأنعام) ـ وهي متبعّضة من أزمنة مختلفة ـ تثبيت لمحمد في رسالته ودعوته ، وجدال عنها مع المشركين . لكن الظاهرة الغريبة المتواترة تظهر فيها ، حيث في آية واحدة يجتمع الإعلان بزعامة محمد للاسلام والتحذير له من الشرك : ((قلْ : إني أُمرُتُ أن أكون

أول مَن أسلم ، ولا تكونَنَّ من المشركين ! » (١٤) . ويلي التحذير له من الشرك تحذير آخر من المشركين . يعلن : «قلْ : إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ! قلْ : لا أتّبع أهواءَكم ! قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ! قلْ : إني على بيّنةٍ من ربي وكذّبتم به» (٥٦ ـ ٥٧) . هنا يصرّح أيضاً عن نفسه بأنه «**من المهتدين**» ، لا من **الهادين** ! فهذه الأوامر المتلاحقة «قلْ» تأتيه إذاً من الذين يهدونه ويشهدون معه وله» (هود ١٧) . لكن للحال يأتيه التحذير من القعود مع المشركين لئلا يسقط في التجربة : «واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وإمّا ينسينّك الشيطان ، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (٦٨) . لقد نُصب لدعوتهم بالقرآن ، وها هو يُؤمر بعدم القعود مع الباحثين فيه : فما هذا ؟ وقعوده مع «الظالمين» منسوب الى عمل من الشيطان : فما هذا السلطان الشيطاني على النبي المعصوم ؟ وهل يُخشى عليه من القعود مع المشركين ؟ وهل يُخشى على الوحي القرآني من خوض «الظالمين» فيه ؟ أأمر بدعوتهم ، وأمر بعدم مخالطتهم؟

سادسا : التحدّي بهدى القرآن ، وتحذير النبي من الضلال

في سورة (الأنعام) نفسها مواقف أخرى متعارضة . فمن جهة يقابل بين المؤمنين بدعوته وبين الكافرين بها من أهل الكتاب : فالنصارى من بني إسرائيل «الذين آتيناهم الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة» أي التوراة والإنجيل والنبوّة كلها ، «أولئك الذين هدى الله **فبهداهم اقتدهْ**» **لأنهم الوكلاء على هدى الله** ، «وإن يكفر بها هؤلاء» أي أهل مكّة ، واذ قال اليهود : « ما أنزل الله على بشر من شيء » (٨٩ ـ ٩٠) . ومن جهة أخرى يحذّره من الضلال بحق القرآن ، وهو «الكتاب مفصّلاً» : «أفغير الله أبتغي حكماً ، وهو **الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً** ـ والذين آتيناهم الكتاب (النصارى) يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق ، فلا تكونَنَّ من الممترين ـ وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدّل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإنْ تُطعْ أكثر من في الأرض (المشركين واليهود في الحجاز) **يضلّوك عن سبيل الله** ، إن يتبعون إلاّ الظن ، وإنْ هم إلاّ يخرصون» (١١٤ ـ ١١٦) . فكأن محمداً يتردّد بين الفريقين ، فيؤكد له الذين أُمر بالاقتداء بهداهم (٩٠) وهم أهل الكتاب المؤمنون به وبدعوة محمد أن القرآن هو «الكتاب مفصلاً» وقد «تمت كلمات ربك صدقاً

وعدلاً ، لا مبدّل لكلماته» ؛ وهم يعلمون أن الكتاب الأول هو المنزّل، وأن القرآن هو «الكتاب مفصلا» . فهذا الكتاب المفصَّل يستمد تنزيله وهداه من الكتاب الأول . بهذا يشهد ثقاته . فإن أطاع محمد اليهود والمشركين أضلّوه عن سبيل الله . فهل يستقيم هذا الامكان بإضلال محمد ، وهذا التحذير المتواتر من الشك في القرآن نفسه ، مع الإعجاز في الهدى عند الرسول ؟

سابعاً : التحدّي بهدى القرآن ، والأمر المتواصل للإخلاص في الدين

سورة (الزمر) حملة متواصلة لحمل محمد على الإخلاص في الدين : «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبدِ الله مخلصاً له الدين (٢) ... قلْ : إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأُمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : إني أخاف ، إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم. قلْ : الله أعبد مخلصا له ديني (١١ ـ ١٤) ... ولقد أُوحي إليك والى الذين من قبلك : **لئن أشركت ليحبطنّ عملك** ، ولتكوننَّ من الخاسرين» (٦٥) . فهذا التهديد المتواصل لمحمد حتى التخويف من عذاب يوم عظيم ؛ وهذا الأمر المتواصل له بالإخلاص في الدين ؛ وهذا الاغراء بجعله «أول المسلمين» ؛ هل هي من «دلائل الإعجاز» في الهدى عنده ؟

ثامناً : التحدّي بالقرآن وهداه ، والأمر المتواتر بالاستقامة على الهدى

يتحدى بالقرآن ، بحديث مثله ، بعشر سور مثله ، بسورة مثله ؛ ويتحدى بهداه . ثم يأتيه الأمر بالاستقامة على الهدى الذي اهتدى اليه . فهو يعلن : «شرع لكم من الدين ... وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» (الشورى ١٣) . فالهدى القرآني هو دين موسى وعيسى الذي يشرعه للعرب ديناً واحداً ـ لأن ما وصى به نوحاً وإبراهيم تجدّد بموسى . هذا هو الكتاب كله الذي آمن به محمد : «وقلْ: آمنت بما أنزل الله من كتاب» (١٥) . وهذا هو العدل بين المؤمنين: «وأمرتُ لأعدل بينكم» (١٥) . بعد هذا الإيمان ، وهذا الجزم بالدين الذي يشرعه ، يأتيه الأمر المكرَّر: «فلذلك فادع **واستقم كما أُمرت** ، ولا تتبع أهواءَهم» (١٥) .

فهل يُخشى على محمد من الميل عن الاستقامة في دعوته ، حتى يأتيه الأمر المكرّر بالاستقامة على الهدى؟ والتحذير المكرّر من أتباع أهواء المشركين؟ وهل هذا كله من «دلائل الإِعجاز» في هديه وهداه ؟

تاسعاً : التحدّي بالقرآن والنهي عن اتباع أهواء المشركين

في مكّة يتواتر التحدي بالقرآن ، ويتواتر أيضاً التحذير نفسه لمحمد من الشرك والمشركين ، مع بيان الصراط المستقيم في الهدى والدين، على طريقة الذين يؤمنون بالكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل ديناً واحداً ـ وهم النصارى من بني إسرائيل . يقول : «ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوّة ... وآتيناهم بيّنات **من الأمر** ... ثم جعلناك على شريعة **من الأمر** فاتبعها ، ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون» أي المشركين (الجاثية ١٦ ـ ١٨) . لقد جُعل محمد على طريقة «من الأمر» في الدين الذي يقيمه النصارى «من بني إسرائيل» الذين «يعلمون» ، «أولي العلم قائماً بالقسط» ، فما عليه إلاّ أن يستقيم على هذه «الشريعة من الأمر» ولا يتبع أهواء المشركين . فليس التحذير المتواتر له طوال العهد بمكّة من المشركين ، من «دلائل الإِعجاز» في الهدى والدين .

عاشراً : التحدّي بالقرآن والاستعاذة قبل قراءَته من الشيطان

آخر تحدٍّ بالقرآن وهداه إعلانه : «أم يقولون : تقوّله ! ـ بل لا يؤمنون ! فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين» (الطور ٣٣) . هنا صار التنزيل «حديثاً» . فهو يتحدى بالقرآن جملةً . لكنه في الوقت نفسه يُؤمر بالاستعاذة من الشيطان ، عند قراءَة القرآن ، لئلا يُلقي فيه ، عند تبديل آية بآية : «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ... واذا بدّلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزِّل ـ قالوا : إنما أنت مفترٍ ! بل أكثرهم لا يعلمون» (النحل ٩٨ ـ ١٠١) .

ظاهرة سببت ردّة بعض المسلمين لمّا عرفوها ، وهي تبديل آية بآية في القرآن . ومحمد نفسه لا يعلم سرّ ذلك ، «والله أعلم بما ينزّل» . لكن هل هذه الظاهرة الغريبة المريبة التي جعلت بعضهم يقول للنبي : «إنما أنت مفتر» ، هي من الإِعجاز في التنزيل والبيان

والهدى ؟ والشبهة الأخرى أغرب وأنكي ، وهي الاستعاذة من الشيطان قبل قراءَة القرآن : إن كلام الله هو استعاذة بحدّ ذاته ، فما معنى هذه الاستعاذة ؟ وهل من خطر على الوحي ان يُلقي الشيطان فيه عند تنزيله ؟ وهل في «تبديل آية بآية» من صلة بهذه الاستعاذة . إن التبديل في التنزيل ليس من «دلائل الإِعجاز» في الهدى والبيان والتنزيل .

حادي عشر : التحدي بالقرآن وهداه ، والإثبات والمحو في مبناه

ينهي العهد بمكّة على صورة المحو والاثبات في تنزيل القرآن : «لكل أجل كتاب : يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أمّ الكتاب» (الرعد ٣٨ ـ ٣٩) . «أم الكتاب» أصلُه عند الله . وهذا الأصل لا شك واحد . فكيف يُنزل الله منه ثم يمحو ما أنزل؟ لذلك احتج الناس على هذه الظاهرة الغريبة المريبة ، «ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل : كفى بالله شهيداً ، ومَن عنده عِلْم الكتاب» (٤٣) . إن شهادة الله على الرسالة هي المعجزة ، فأين هي ؟ يكتفي النبي من المعجزة والإِعجاز بشهادة «مَن عنده علم الكتاب» أي «الراسخين في العلم» ، «أولي العلم قائماً بالقسط» ، وهم النصارى من بني إسرائيل . الى هنا ينتهي التحدي بالإِعجاز والهدى . فمن يشهد على نفسه بالمحو في التنزيل والهدى ، ومَن حجته شهادة «مَن عنده علم الكتاب» ، هل يكون على الإِعجاز في الهدى ؟

تلكم اثنتا عشرة شهادة من التحدي بالقرآن وهداه ، مقرونة بالأزمات النفسية والإيمانية. إنه يتحدى ، ويشك من نفسه ومن أمره ومن وحيه ومن القرآن نفسه ! وهو على ذلك طوراً يعاتبه ، وطوراً يؤدبه ؛ تارة يدعوه الى الإخلاص في الدين ، وتارة يحذره من اتباع أهواء المشركين . وعلى الدوام يدعوه الى الاستقامة في الهدى ، حتى كان محمد يقول : «شيبتني هود . أفتقر الى الله بصحة العزم» !

فهل هذا كله من «دلائل الإِعجاز» في الهدى والعقيدة ؟

بحث رابع

هل من إعجاز في الدعوة الى التوحيد بمكّة ؟

يقولون : إن رجلاً «أمّياً»، لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك في الحجاز المحجوز عن المعمورة برماله وصحاريه ، في بيئة جاهلية وثنية ، يقوم ويدعو للتوحيد الخالص ، تلك هي المعجزة الكبرى في الرسول والرسالة . فهل في ظروف «النبي الأمّي»، وظروف الزمان والمكان في البيئة ، وظروف الدعوة نفسها ، ما يفرض القول بالإِعجاز في الدعوة للتوحيد بمكّة ؟

أوّلاً : هل من إِعجاز في حال «النبي الأمّي»

لقد رأينا أن أمية محمد ينقضها القرآن كله . وقد رأينا أن محمداً «درس» الكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل ، على يد نسيبه ورقة بن نوفل ، قسّ مكّة وعلاّمتها الذي يدعو الى نصرانيته بترجمة الإنجيل الى العربية وقد رأينا أن محمداً في القرآن «يعلمهم الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل .

فليس من إِعجاز في حال محمد .

ثانياً : هل من إِعجاز في ظروف البيئة ؟

إن التاريخ المتصل بالمشاهدة العيان يشهد ، كما نقلنا عن الأستاذ دروزة ، أن الحجاز لم يكن محجوزاً عن الحضارة والثقافة . بل كان أهل مكّة ، ومحمد على رأسهم ، منذ زواجه حتى مبعثه ، صلة الوصل بين حضارة الشرق في الهند وحضارة الغرب في الشام وعند الروم، لسيطرهم على طريق القوافل. وقد أشاد القرآن نفسه بنعم الله على بني قومه، «لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف» ما بين اليمن وما وراءه ، وبين الشام وما وراءه . واتصالهم بحضارتين عظيمتين ، بفارس والروم ، جعلهم ميدان الصراع لهما حتى في الدين . فنادى القرآن «ولا تعبدوا الهين اثنين» ، «ولا تقولوا : ثلاثة» .

والقرآن نفسه خير شاهد على أن البيئة الحجازية ، وعلى رأسها مكّة ، لم تكن على الوثنية في شيء . بل ، **بفضل الدعوة الكتابية** فيها ، قد تحولت وثنية العرب الى شرك ، أي الى عبادة الله مع شريك له من خلقه . وشيئاً فشيئاً أُفرغ هذا الشرك من معناه ، فأمسى شركاً شكلياً ؛ كما يعلن القرآن نفسه على لسانهم: «ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زلفى» (الزمر ٣).

والدكتور جواد علي ، من المجمع العلمي العراقي ، ينهي كتابة (تاريخ العرب قبل الإسلام ٥:٤٢٤ و ٤٢٨) بهذه **النتيجة الحاسمة** : «إن عقيدة الجاهليين في الله ، وحجّهم الى البيت وقسمهم به ، نتيجة **تطور طويل** مرّ على الحياة الدينية لعرب الجاهلية ، اختُتم بظهور الإسلام ، ودخول أكثرهم فيه . فقد كان أهل مكّة على مقالة من التوحيد والدين ، وعلى تيقّظ وشك في أمر الشفعاء والشركاء والأصنام ، حمل الكثيرين على الشك في ديانة قومهم ، وعلى الدعوة الى الاصلاح ... **فعبادة أهل مكّة هي عبادة محمد ؛ وتوحيدهم توحيد اسلامي ، أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي**» .

وقد تغلغل الصراع بين المسيحية واليهودية ، من أطراف الجزيرة كلها الى قلب الحجاز ، وقام بين اليهودية والمسيحية **فرقة** «**النصارى**» من بني إسرائيل ، التي هاجرت الى مكّة ، وكانت على أساس نهضتها التجارية والثقافية والدينية . وكانوا يدعون العرب الى دين موسى وعيسى معاً ، الى إقامة التوراة والإنجيل معاً ، حتى أمست مكّة والحجاز كله مستعدين للدعوة القرآنية . فجاءَ أمر الله الى محمد بالانضمام اليهم والدعوة بدعوتهم : «وأمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (النحل ٩١ ـ ٩٢) ، «تفصيل الكتاب» (يونس ٣٧) .

فبحسب التاريخ والقرآن نفسه ليس في ظروف البيئة ، والزمان والمكان ؛ وليس في ظروف محمد الشخصية والعائلية والقومية من معجزة في الدعوة للتوحيد بمكّة والحجاز .

ثالثاً : هل من إِعجاز في الدعوة للتوحيد نفسه ؟

تقتصر الوعود القرآنية على التوحيد : «قل : **إنما أعظكم بواحدة** أن تقوموا لله مثنى وفرادى . ثم تتفكّروا ما بصاحبكم من جنّة ، إنْ هو إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (سبأ ٤٦) . فليس فيه من وحي سوى هذا التوحيد : «قلْ : إنما أنا بشر مثلكم يُوحى اليّ

إنما الهكم الـه واحد . فاستقيموا لـه واستغفروه ! وويل للمشركين ﴾! (فصلت ٦) . هذا توحيد ظاهري ، لا يكشف شيئاً عن سرّ الله . والإسلام كلـه تنزيـه عن الشرك : ﴿فـاعلموا أنمـا أنـزل بعلم الله ، وأنْ لا اله إلاّ هو ، فهل أنتم مسلمون ﴾؟ (هود ١٤) . فليس في القرآن من كشف عن سر الله سوى توحيده : ﴿والهكم الـه واحد ، لا إلـه إلاّ هو ، الرحمـان الرحيم ﴾ (البقرة ١٦٣) . وسنرى أن التوحيد غارق في التشبيه ، ليس فيـه تجريـد . إنمـا إعلانـه الصـارخ المتواصـل هو دائمـاً : ﴿الهكـم الـه واحـد ﴾ (١٦:٢٢؛ ١٨:١١٠؛ ٢١:١٠٨؛٤١:٦؛ ٢٢:٣٤؛ ٢:١٦٣) . لـذلك كانت الشهادة الإسلامية على وجه الزمان : ﴿لا إله إلاّ الله ﴾ . فهي تقتصر علـى توحيد خـارجي ظاهري ، لا يكتشف شيئاً عن ذات الله . بل اعتبروا البحث في ذات الله اشراكاً .

فهل من إعجاز في الدعوة لهذا التوحيد ، وقد سمعه العرب ، حتـى فـي مكّـة ، مـن أهل الكتـاب ، قبـل محمـد والقرآن ، بعشـرات ومئـات السنين ؟ وقـد دان بـه محمد قبـل مبعثـه ومنـذ زواجه بالسيدة خديجة. بأمر من ابن عمها ورقة بن نوفل، قسّ مكّـة وعلامتهـا، الـذي ﴿درّسـه ﴾ الكتاب والتوحيد مدة خمسة عشر عاماً ، قبل الدعوة لهما ؟

رابعاً : القرآن نفسه يشهد بأنّ توحيده من توحيد الكتاب

فالكتاب إمامه في التوحيد والهدى :﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمـة ، وهذا كتـاب مصدق لساناً عربياً ﴾ (الأحقاف ١٢ ؛ هود ١٧) فليس فيه من جديد سوى اللسـان العربـي. وهو يجادل العرب بهدى وعلم الكتاب المنير ، إذ ﴿من الناس من يجـادل فـي الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (لقمان ٢٠ ؛ الحج ٨) . ويجادل اليهود بوحدة التوحيد معهم : ﴿قلْ : أتحاجوننا في الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنـا أعمالنـا ولكم أعمـالكم ، ونحـن لـه مخلصـون ﴾ (البقرة ١٣٩) . ويمنـع الجـدال مـع النصـارى لوحـدة الالـه ووحـدة التنزيـل ووحـدة الإسـلام : ﴿ولا تجـادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هـي أحسن ـ إلاّ الـذين ظلمـوا منـهم (اليهـود) ـ **وقولـوا** : آمنـا بالـذي أنـزل الينـا وأنـزل إلـيكم ، والهنـا وإلهكـم واحـد ، ونحـن لـه مسـلمون ﴾ (العنكبـوت ٤٦) . والأمـر صـريح بالشهادة بهذه الوحدة بين القرآن والنصـارى . والأمر صـريح الـى محمد بالإسلام علـى طريقـة موسى وعيسى معاً : ﴿قلْ : آمنا بالله وما أنزل علينا ... وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم : لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (آل

عمران ٨٤) . والأمر صريح الى جماعة محمد بهذا الإسلام عينه : ((قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ... **وما أوتي موسى وعيسى** ، وما أوتي النبيون من ربهم : لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)) (البقرة ١٣٦) . فالإله واحد ، والتوحيد واحد ، والإسلام واحد فهل من إعجاز بهذه الدعوة للتوحيد بمكّة ؟

بحث خامس

هل من إعجاز في العقيدة الإلهية في القرآن ؟

يقول العقاد، في كتاب المؤتمر الإسلامي (الإسلام وأباطيل خصومه ص ٥٤ ـ ٥٥). ((فالله ؛ رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من **صورة الله** في عقيدة من العقائد الكتابية . بل كان **هو الأصل** الذي يثوب اليه مَن ينحرف عن العقيدة في الإله ، كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما ينبغي أن يكون . ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام **مصحّحة متمّمة** لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية Theology)) .

أوّلاً : التوحيد القرآني تنزيه عن الشرك ، لكنه غارق في التشبيه والمتشابه

إن التوحيد القرآني **سلبي** قائم على التنزيه من الشرك ، كما تعلن الشهادة : لا إله إلاّ الله . وهذا التوحيد السلبي قد جاء أيضاً بأسلوب غارق في التشبيه . أجل يعلن : ((ليس كمثله شيء)) . لكنه في تعابير التوحيد يشبّه الله بالإنسان : ((إن ورد في القرآن ممّا يتصل بذات الله السامية من تعابير **اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجئ** ، وفوق وتحت وأمام ، وطي وقبض ونفخ ـ إنما جاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءَت من قبيل التقريب لأذهان السامعين))[1] . وهذا التقريب أغرقها في التشبيه حتى جاءَت صورة الله في القرآن كصورة إنسان أكبر من الإنسان .

---

(١) دروزة : **القرآن المجيد** ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

وما عدا عقيدة التوحيد الخالص سلبياً ، فكل تعليم القرآن في صدد الذات الإلهية من **المتشابه فيه** الذي ((ما يعلم تأويله إلاّ الله)) : ((وكل ما ورد في صدد الذات الإلهية من أسماء وأفعال وصفات أخرى **قد توهم مماثلة لأسماء وصفات وأفعال البشر** ، إنما جاء كذلك على سبيل التقريب والتشبيه)) [1] . وتوحيد غارق في التشبيه ، يأتي ببيان متشابه للعقيدة الإلهية ، أيكون هو الأصل الذي تثوب اليه كل عقيدة في الإله ؟ أتكون هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة متممة لعقيدة الله في الكتاب ((الإمام)) ، وفي ((الكتاب المنير)) كما يسميهما القرآن ؟

إن توحيد القرآن سلبي يقوم على تنزيه الله عن الشرك ، لا كشف فيه عن غيب الله ، وعن سر الله في ذاته وحياته . فيظل الإله في القرآن ، مع الشهادة له بالتوحيد الخالص ، مجهولاً في ذاته ، محجوباً في غيبه . والبحث في ذات الله إشراك . ففي ذاته ، وفي سر حياته ، **الله أكبر ، بحسب القرآن ، هو المجهول الأكبر** .

ثانياً : حرف التوحيد واحد في التوراة والإنجيل والقرآن

هذا هو الإخلاص في التوحيد ، كما يعلنه القرآن : ((قلْ : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلدْ ولم يُولدْ ، ولم يكن له كفواً أحد)) . كلها صفات تنزيه عن الشرك : فالله واحد أحد ، وهو الصمد المتعالي المتجلّي فوق عباده ، لا كفوء له من خلقه ، ((وليس كمثله شيء)) .

وقوله ((لم يلدْ ولم يُولد)) لا يدل على امتناع صفة من ذاته ، لذاته ، إنما يدل على استحالة الولادة والاستيلاد من غيره تعالى ، كقوله ((ما اتّخذ صاحبة ولا ولداً)) (الجن ٣) . فهذه هي فلسفته في استحالة الولد والولادة : ((بديع السماوات والأرض ، **أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**)) (الأنعام ١٠١) . فكل ولادة في عرْفه لا تقوم إلاّ على ((صاحبة)) ! حاشا لله الواحد الأحد ، الله الصمد ! وبما أن البحث في ذات الله إشراك ، فلا ينظر القرآن الى ولادة روحية عقلية نطقية ، يصدر بها نطق الله الذاتي ، من ذاته ، في ذاته ، لذاته . فهذا غيب الله المحجوب .

وفات القوم إن قوله : ((هو الله أحد)) **نقل حرفي للتوحيد الكتابي** في التوراة والإنجيل. ففي التوراة : ((اسمع ، يا إسرائيل ، إن يهوه (الله) الهنا هو يهوه أحد)) (التثنية ٦:٤) . وكانت

---

(١) دروزة : **القرآن المجيد** ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

شهادتهم مدى الدهر : «يهوه أحد» أي الله أحد ، وترجمها حرفيّا «هو الله أحد» . وسأل السيد المسيح أحد العلماء: «أي وصية هي أولى الوصايا جميعا ؟ فأجاب يسوع: الأولى هي «اسمع يا إسرائيل : إن الله إلهنا هو الله أحد» (مرقس ١٢:٢٨ ـ ٢٩) . لقد ردّ عليه بالشهادة التوراتية التي بها يشهدون كل مرة الله ، سبحانه وتعالى .

فحرف التوحيد واحد في التوراة والإنجيل والقرآن . فكيف تكون العقيدة الإلهية في القرآن مصحّحة متمّمة لعقيدة الإنجيل والتوراة في الله تعالى ؟ والإعجاز للمتبوع للتابع .

ثالثاً : إنّ التوحيد في القرآن هو دين موسى وعيسى

إن التوحيد في القرآن هو دين موسى وعيسى الذي يشرعه للعرب : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه ! كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» (الشورى ١٣) . نقتصر على هذه الشهادة ، وهي متواترة في القرآن . فكيف تكون صورة الله في القرآن هي الأصل ؟ والقرآن يصرح بعكس ذلك .

رابعاً : إسلام القرآن هو إسلام من قبله اسماً ومعنى

في بعثته لدعوته جاءه الأمر : «وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (النمل ٩١ ـ ٩٢) . فانضم الى المسلمين من قبله ودعا بدعوتهم للاسلام . **فإسلامه من اسلامهم لفظاً واسماً** : «هو سماكم المسلمين من قبل (في الكتاب) وفي هذا» القرآن (الحج ٧٨) .

وهذا الإسلام يقوم على عدم التفريق بين موسى وعيسى (البقرة ١٣٦؛ آل عمران ٨٤) وعلى إقامة التوراة والإنجيل معاً (المائدة ٦٨) ، على طريقة النصارى من بني إسرائيل الذين يسميهم أولي العلم المقسطين أو القائمين بالقسط أو «الراسخين في العلم» .

وإسلامه من إسلامهم معنى وموضوعاً : «شهد الله أنه لا إله إلاّ هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ٨٨ ـ ٨٩) . فالقرآن يشهد للاسلام بشهادتهم ، ويعتبر شهادتهم من شهادة الله وملائكته . فكيف تكون عقيدته

مصححة متممة لعقيدة «الراسخين في العلم» من أهل الكتاب . فالإِعجاز للاسلام المتبوع قبل الإسلام التابع .

فهل من إِعجاز في العقيدة الإلهية في القرآن على الكتاب وأهله ؟

بحث سادس

الإِعجاز في الشريعة

سنفرد فصلاً للإِعجاز في الشريعة . نقدم له هنا بكلمة في الشريعة كهدى سماوي .

يقول عبد الكريم الخطيب [1] ، معلقاً على قول ابن خلدون : «واعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ...لاتحاد الدليل والمدلول عليه» ؛ «ومعنى هذا الذي يقوله ابن خلدون **إن النبي ﷺ حمل الى الناس أمراً واحداً فقط هو الشريعة** ، وفي الشريعة نفسها المعجزة التي تشهد له بأنه رسول الله الصادق في ما يقول عن الله» . وفاته وأمثاله تصريح القرآن : «يريد الله ليبيّن لكم **ويهديكم سُنَن الذين من قبلكم** ويتوب عليكم والله عليم حكيم» (النساء ٢٦) . فالهدى في التشريع القرآني هو هداية الى شريعة الكتاب وسنن أهله . ويعطينا مثلاً صريحاً في تشريع الصيام : «يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم ، لعلّكم تتّقون» (البقرة ١٨٣) ، فمن تقواهم في توبتهم من الشرك أن يصوموا مثل أهل الكتاب : فالشريعة واحدة .

وقد يقول قائل : هل شريعة الزواج في القرآن مثل الكتاب ، التوراة أو الإنجيل ؟ نجيب : إنه يهديهم الى «سنن الذين من قبلكم» . كان الطلاق وتعدد الزوجات مباحاً في التوراة على اطلاقه . لكن بتأثير المسيحية جعل التلمود عدد الزوجات مقصوراً على أربع

---

(١) **إعجاز القرآن** ١:٨٠ ـ ٨١.

معاً . فوقف النصارى من بني إسرائيل على هذا الشرع التلمودي ، كأمّة وسط بين التوراة والإنجيل ، في إقامتهم للتوراة والإنجيل معًا . فنزل القرآن على ما يقول ((أولو العلم قائماً بالقسط)) : ((فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألاّ تعولوا)) (النساء ٣) .

إن القرآن في الهدى والشريعة ((**يقتدي**)) بأمر الله بهدى ((الذين آتيناهم الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة)) (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) ، أي النصارى من بني إسرائيل، الذين بإقامة ((الكتاب والحكمة ـ التوراة والإنجيل)) معاً كانوا أمة وسطاً بين اليهودية والمسيحية ، في العقيدة والشريعة والصوفية والدين والإسلام كله . وشرع يهتدي بسُنن أولي العلم المقسطين من أهل الكتاب ، ليس هداه من الإِعجاز في الشريعة . إنما الإِعجاز التشريعي في ((إمامه)) .

بحث سابع

الإِعجاز في الدين

في كتاب ديني سماوي ، إنما يكون الإِعجاز المطلوب في الدين . ويأتي القرآن صريحاً في الدين الذي يشرعه للعرب : ((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ... فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتّبع أهواءَهم ! وقلْ : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرتُ لأعدل بينكم)) (الشورى ١٣ ـ ١٥) .

فالدين الذي يشرعه الله للعرب في القرآن هو **دين موسى وعيسى معاً** ، بنص القرآن القاطع . قد يقولون : وما بال نوح وإبراهيم ؟ نقول : دينهما هو دين موسى وعيسى في الكتاب ؛ وقد أُمر محمد أن يؤمن ((بما أنزل الله من كتاب)) مباشرة . ومُنع محمد من أتباع

أهواء اليهود والمشركين في الدين؛ وأُمر مراراً أن يستقيم على دين موسى وعيسى معاً ((على شريعة من الأمر)) . وطريقته في اتباع دين موسى وعيسى معاً إنما هي طريقة النصارى من بني إسرائيل ، الأمة الوسط : ولقد آتينا بني إسرائيل الكتب والحكم والنبوّة ... وآتيناهم بيّنات من **الأمر** ... ثم جعلناك على **شريعة من الأمر** ، فاتّبعها ، ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون)) أي المشركين (الجاثية ١٦ ـ ١٨) . فقد جُعل محمد على طريقة من أمر الدين هي طريقة الذين يقيمون ((الكتاب والحكمة ـ التوراة والإنجيل)) معاً ، وهم النصارى من بني إسرائيل ، أولي العلم المقسطين . ويؤمر بتواتر أن يستقيم عليها وهذا هو العدل الذي جاءَهم به في أمر الدين : ((وأُمرت لأعدل بينكم)) ، بين اليهود الذين اختلفوا من بعد ما جاءَهم العلم مع السيد المسيح ، وبين المشركين ، ((الذين لا يعلمون)) .

هذا هو الإخلاص في الدين أُمر به محمد، ((مخلصاً له الدين)) (الزمر ٢ و١١ و١٤)؛ والذي يأمر به ، ((مخلصين له الدين)) (٧:٢٩ ؛ ١٠:٢٢ ؛ ٢٩:٦٥ ؛ ٣١:٣٢ ؛ ٤٠:١٤ و٦٥ ؛ ٩٨:٥) . وبما أن القرآن يشرع للعرب دين موسى وعيسى معاً ، بإقامة التوراة والإنجيل معاً ، في أمة وسط ، على طريقة أولي العلم المقسطين من بني إسرائيل ، فهل يكون فيه الإِعجاز في الدين ؟

بحث ثامن

الإِعجاز في الإسلام

((دين الحق)) ، ((دين القيّمة)) ملّة إبراهيم حنيفاً ، الدين الذي يشرعه القرآن للعرب ، يسميه الإسلام . ويظنون أن الإسلام في لفظه ، كما في معناه ، من الإِعجاز في التنزيل القرآني . وفاتهم أن الإسلام في لفظه ومعناه ، بنص القرآن القاطع ، هو من قبل محمد القرآن: ((هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا)) القرآن (الحج ٧٨) .

نستنتج من القرائن القرآنية والتاريخية أن النصارى من بني إسرائيل ، بعد هجرتهم المرغمة الى الحجاز ، أخذوا يدعون العرب الى دينهم . ولإيلاف العرب الى دعوتهم سموها أولاً **الحنيفية ، ملّة إبراهيم** ، جدَ العرب المستعربة في الحجاز بواسطة اسماعيل . فلمّا أينعت الدعوة أطلقوا عليها اسم ((الإسلام)) قبيل الدعوة القرآنية . فجاء القرآن ـ ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) ـ يشهد بشهادتهم أن الدين عند الله الإسلام : ((شهد الله أن لا إله إلاّ هو ، والملائكة ، وأولوا العلم قائماً بالقسط ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ أن الدين عند الله الإسلام)) (آل عمران ١٨ ـ ١٩) .

نعرف من اصطلاح القرآن المتواتر أن ((أولي العلم)) مرادف لأهل الكتاب من يهود ونصارى . وهو يقسم أهل الكتاب ، أولي العلم ، الى طائفتين : أولي العلم الظالمين وهم اليهود ، وأولي العلم المقسطين ، وهم النصارى من بني إسرائيل . فهؤلاء النصارى هم الذين يشهدون مع الله وملائكته ((أن الدين عند الله الإسلام)) وذلك بنص القرآن القاطع ، الذي يعتبر شهادتهم من شهادة الله وملائكته . **والقرآن يدعو الى شهادتهم في الإسلام** . لذلك يختلف معه أهل الكتاب من اليهود في الاسم ومعناه : ((وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ، إلاّ من بعد ما جاءَهم العلم بغياً بينهم ـ ومَن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجّوك فقل : أسلمتُ وجهي ومَن اتّبعني)) (آل عمران ١٩ ـ ٢٠) .

والدعوة لاسلام النصارى من بني إسرائيل ، أولي العلم المقسطين ، هي التي يوجهها لليهود والمشركين الأميّين : ((قل للذين أوتوا الكتاب (اليهود) والأميّين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ؛ وإن تولّوا ، فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعبادِ)) (آل عمران ٢٠) . وبما أن القرآن يدعو للاسلام بدعوة النصارى من بني إسرائيل ، أولي العلم المقسطين ، فهل في دعوته من الإِعجاز في الإسلام ؟

خاتمة

القرآن في الهدى والعقيدة تابع لا متبوع

والقول الفصل ، في هذا الفصل ، إن الإعجاز الحق يكون أولاً في التنزيل ثم في هداه. وفي الهدى يدعو القرآن الى إسلام ((أولي العلم قائماً بالقسط)) الى دين موسى وعيسى معاً الذي يشرعه للعرب ، لكي يهديهم ((إلى سنن الذين من قبلكم)) ؛ فليس فيه من كشف جديد في العقيدة الإلهية التي تقتصر على الإخلاص في التوحيد ، بالخلاص من الشرك. وليس من إعجاز في الدعوة للتوحيد ، بمكّة . وليس من إعجاز في قيام محمد نفسه بهذه الدعوة ، فقد ظل طول العهد بمكّة يتردّد بين الإيمان والشك من نفسه ومن أمره ومن صحة قرآنه . وقد كان الكتاب ((إمامه)) في الهدى والبيان ، على ((المثل)) الذين شهد به شاهد من بني إسرائيل النصارى . فالقرآن يتحدى بالإعجاز في الهدى ، قبل التحدي بالإعجاز في حرفه : قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله **أهدى منهما** أتبعه ، إن كنتم صادقين)) (القصص ٤٩) . فنص التحدّي بالهدى ، ((أهدى منهما)) يسقط عنه دعوى الإعجاز في الهدى . إن الإعجاز في الهدى هو في ((الإمام)) الذي أمر أن ((يقتدي)) ((بالمثل)) عنه . إن القرآن في الهدى والعقيدة تابع لا متبوع . والإعجاز هو للمتبوع قبل التابع .

الجزء الثاني

الإعجاز في الشريعة

توطئة

وجه جديد من إعجاز القرآن : الإعجاز في الشريعة

بعد العقيدة ، يكون الإعجاز في الشريعة . والسيوطي ، خاتمة المحققين الأقدمين ، لم يذكر في (الإتقان في علوم القرآن) ، من وجوه الإعجاز ، وجه التشريع . وفي عصرنا ، طلع علينا الأستاذ محمد أبي زهرة ، أستاذ الشريعة بكلّية الحقوق بجامعة القاهرة ، **بهذا الوجه الجديد من الإعجاز ، في التشريع القرآني** . يقول [1] ، بعد بيان وجوه الإعجاز البياني والعيني والعلمي ؛ «ولكن وجهاً آخر لم يبيّنه العلماء بإطناب ، ونعتقد أنه أقوى دلالة في خطاب الناس أجمعين من كل ما ذكر ، **وهو شريعة القرآن** . وقد أشار الى هذا الوجه ، إشارة عابرة ، القرطبي ، فقال في كتابه (أحكام القرآن) في وجوه إعجاز القرآن : (ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام ، وسائر الأحكام) . هذا كلام القرطبي ، وهو يشير الى أن شريعة القرآن وما اشتملت عليه من أحكام منظمة

---

(١) **مصادر الفقه الإسلامي** ١٩٥٦ ص ٢٤ و ٣٢.

للأسرة ، والتعامل الإنساني ، هي وجه من وجوه الإعجاز ... ولذلك نقول : **إن شريعة القرآن هي أقوى وجوه إعجاز القرآن** ؛ وهي القائمة الدالة على الإعجاز إلى يوم القيامة ، وهي قائمة الى اليوم **حجة على العربي والأعجمي** ، لا يفترق في قبولها من يعرف لسان القرآن ، عمّن لا يعرفه . فهي شفاء لأدواء المجتمع في كل العصور والأزمان)) . وظن وظنوا أنه فتح جديد في إعجاز القرآن ، يفوق ما تعارف عليه القوم في الإعجاز البياني والغيبي والعلمي ؛ وأنه ((أقوى وجوه إعجاز القرآن)) يفحم العربي والأعجمي معاً .

ومن الغريب المذهل ، لو كان ذلك حقاً ، أن يسهو عنه علماء الإعجاز حتى اليوم ! وأن يقوم مَن يردّد زعم الأستاذ أبي زهرة ، مثل الأستاذ عبد الكريم الخطيب [1] : ((إن النبي حمل الى الناس **أمراً واحداً فقط هو الشريعة** ، وفي الشريعة نفسها المعجزة التي تشهد له بأنه رسول الله الصادق في ما يقول عن الله)) . ((فكيف ينسى هو أيضاً نفسه ويرى إعجاز القرآن في ((الصدق المطلق)) الذي نزل به - على الجهة المنزل منها - حسن الأداء: النظم والفاصلة - روحانية القرآن [2] ؟ أم هي شهوة الابتداع ، ولو كان بدعة ، لتسفيه آراء الأقدمين ، كما فعل الرافعي في (إعجازه) .

فهل إعجاز القرآن في شريعته المعجزة ؟

بحث أوّل

الشريعة القرآنية ((مدنية)) : لا تحدّي فيها بإعجازها

إن الإجماع منعقد على أن الشريعة القرآنية نزلت بالمدينة . وهذا أمر مشهود في القرآن المكي . **فلا تشريع في مكّة** . ((أخرج البخاري عن عائشة قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سور من (المفصّل) فيها ذكر الجنة والنار ؛ حتى إذا ثاب الناس الى الإسلام نزل الحلال

---

(١) **إعجاز القرآن** ١:٨٠ - ٨١.
(٢) **إعجاز القرآن** ٢:١٩٣ - ٢٥٠.

والحرام))[1] . ولم يثب الناس الى الإسلام إلاّ في المدينة ، ولم يدخلوا في دين الله أفواجاً إلاّ في آخر العهد بالمدينة . فالتشريع القرآني **من زمن متأخر في الدعوة ، وقد نزل من القرآن أكثره** . وظاهرة كبرى أخرى في التشريع القرآني ، ما قاله ابن حزم : ((إعلم أن نزول المنسوخ بمكّة كثير ، ونزول الناسخ بالمدينة كثير)) .

نستنتج من هاتين الظاهرتين :

أولاً : أنه لا تشريع بمكّة . وبما أن ((أقوى وجوه إِعجاز القرآن في شريعته)) ، **فليس من إِعجاز في القرآن المكي** .

ثانياً : إن القرآن يتحدّى ((بسورة مثله)) (يونس ٣٨) ((بسورة من مثله)) (البقرة ٢٣) ؛ وبما أن أكثر القرآن لا تشريع فيه ، **فليس إِعجاز القرآن في تشريعه وشريعته** .

ثالثاً : إن أكثر المنسوخ بمكّة ، وإن الناسخ من المدينة : فالقرآن المدني ينسخ من القرآن المكي . والنسخ ليس دليلاً على الإِعجاز في التشريع . فالناسخ والمنسوخ في القرآن كله شبهة قائمة على الإِعجاز في التشريع القرآني .

رابعاً : وهكذا ، فإن تأخر نزول الشريعة القرآنية حتى المدنية ، وهي وجه الإِعجاز الأقوى ، وربما الأوحد ، في القرآن ؛ فإن الإِعجاز في **القرآن ليس من أصل التنزيل فيه ومن غايته** .

خامساً : بما أن التحدي بإِعجاز القرآن ، كما هو مشهود فيه ، كان من أواخر العهد بمكّة ، بعد أن عجز عن معجزة كالأنبياء الأولين ، وفي مطلع العهد بالمدينة (البقرة ٢٣) ، ثم سكت عنه في العهد المدني كله في مجابهة أهل الكتاب ، أي في زمن نزول الشريعة القرآنية؛ **فليس في القرآن من تحدّ بإِعجاز الشريعة على الإطلاق** .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١:٤٤.

بحث ثان

أحكام الشريعة المحكمة قليلة ، فليست دليلاً على إعجاز القرآن كلّه

أوّلاً ـ الإعجاز التشريعي يكون في آيات القرآن المحكمات ، لا في آياته المتشابهات، لأن المحكمات هن أم الكتاب : ((هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات **هنّ أم الكتاب** ، وأخر متشابهات)) (آل عمران ٧) . وبما أن المتشابه من القرآن ، وهو أكثره ، ((ما يعلم تأويله إلاّ الله ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا ، كلٌّ من عند ربنا)) (آل عمران ٧) ، فليس فيه من الإعجاز في التشريع شيء . وبما أن الآيات المحكمات هي ((أوامره الزاجرة)) ، على حدّ قولهم في شبه إجماع [١] ، ((عن مجاهد قال : **المحكمات ما فيه الحلال والحرام** ، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً ؛ وعن الربيع قال : **المحكمات هي أوامره الزاجرة**)) ـ فإن أحكام الشريعة هي في أوامره الزاجرة في الحلال والحرام ، المبيّنة في الآيات المحكمات .

ثانياً ـ وآيات الأحكام المحكمات قليلة : ((قال الغزالي وغيره : **آيات الأحكام خمسماية آية** . وقال بعضهم : **مائة وخمسون** . قيل : ولعلّ مرادهم **المصرّح به** ، فإن آيات القصص والأمثال يُستنبط منها كثير من الأحكام)) [٢] . والأحكام القرآنية على نوعين : ((من الآيات ما صُرّح فيه بالأحكام ، ومنها ما يؤخذ **بطريق الاستنباط** ، إما بلا ضمّ إلى آية أخرى... وإمّا به . ((ويستدل على الأحكام **تارة بالصيغة** ، وهو ظاهر؛ وتارة بالأخبار)) .

بناءً عليه ، هذه هي **النتيجة المذهلة** في إعجاز القرآن :

١ ـ بما أن القرآن يعلن أن آياته المحكمات هنّ أم الكتاب ، فهن إذن موضوع إعجازه . وهذه الآيات المحكمات هي **آيات الأحكام الخمسماية** في الحلال والحرام من

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٢:٢ ـ ٣.
(٢) السيوطي : **الإتقان** ٢:١٣٠.

أصل ستة آلاف وستماية وستين آية . نقل النحاس [1] عن الحافظ الفارسي : ((وبعد فهذا كتاب جمعت فيه جميع ما في القرآن من الآيات الناسخة والمنسوخة ، موجزة على حسب آيات القرآن : ألف آية أمر ؛ وألف آية نهي ، وألف آية وعد ، وألف آية وعيد ، وألف آية عبر وأمثال ، وألف آية قصص وأخبار ، **وخمسماية حلال وحرام** ، وماية آية دعاء وتسبيح ، وست وستون منسوخ . الجملة ٦٦٦٠ آية)) . وهكذا لا يصح التحدي بإعجاز القرآن ، لأن آيات المحكمات ، في أحكام الحلال والحرام ، هي ٥٠٠ من أصل ٦٦٦٠ .

٢ ـ **لا يصح التحدّي بالإعجاز التشريعي** إلاّ بالأحكام المحكمة المصرح بها . ولا يصح التحدّي على الإطلاق بالأحكام المستنبطة استنباطاً .

والمشهود في أحكام القرآن المحكمة المصرّح به أنها **مائة وخمسون** . قال السيوطي: ((قال الغزالي وغيره : آيات الأحكام خمسماية آية . وقال بعضهم : مائة وخمسون ؛ قيل : ولعل مرادهم المصرح به)) .

فإذا كانت أحكام القرآن المحكمة المصرّح بها هي فقط **مائة وخمسين** ، من أصل ٦٦٦٠ آية هي القرآن كله ، فلا يصح التحدي بإعجاز القرآن كله ، بسبب ماية وخمسين آية . **كما لا يصح التحدي بتشريع القرآن** بسبب مايةٍ وخمسين آية محكمة مصرح بها . فلا يصح الحكم بالبعض على الكل ، وبالجزء على سائر الأجزاء . والإصرار بالحكم على هذه الطريقة، لا منطق فيه ، ولا حكمة ، ولا إعجاز .

٣ ـ أحكام القرآن عن طريق التصريح والاستنباط هي خمسماية آية أو حكم . أما **أحكام التوراة** فهي ست مائة وثلاثون آية أو حكماً . والكتاب إمام القرآن في العقيدة وفي الشريعة . فليس الإعجاز التشريعي في القرآن ميزة **انفرد بها** ، حتى يصح التحدي به عن طريق القياس والمقابلةَ .

٤ ـ ناحية من الشريعة هي الدستور الأخلاقي . والشرعة الأخلاقية في القرآن هي ((الكلمات العشر)) لموسى على سيناء : ((قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخُذْ ما آتيتُك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في **الألواح** من كل شيء موعظة ،

---

(١) أبو جعفر النحاس : **الناسخ والمنسوخ** ص ٢٦٠.

وتفصيلا لكل شيء » (الأعراف ١٤٤ ـ ١٤٥) . وتلك الكلمات العشر يردّدها القرآن بصور مختلفة ، مع هذه الفاتحة : « قلْ : تعالوا أتلُ ما حرَّم ربّكم عليكم » (الأنعام ١٥١) . فحتى في التشريع الأخلاقي يقتدي القرآن ويهتدي بهدى الكتاب الإمام ، والكتاب المنير ، التوراة والإنجيل .

وعليه ، فليس التشريع القرآني وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن . ولا يقوم تحدٍّ بإعجاز القرآن بسبب ماية وخمسين آية من أحكامه المحكمة المصرح بها في « آياته المحكمات (اللواتي) هنّ أم الكتاب » !

بحث ثالث

تشريع بحسب الحاجة ، ولا ينزل مبتدئاً

ميزة التنزيل والتشريع في القرآن أنه نُزّل تنزيلاً وفُرّق تفريقاً ، من بعض الآية ، حتى خمس آيات أو عشر : « وقال الذين كفروا : لولا أُنزل عليه القرآن جملة واحدة ! ـ كذلك ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً ؛ ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (الفرقان ٣٢ ـ ٣٣) ؛ « وقرآنا فرّقناه لنقرأه على الناس على مكث ، ونزّلناه تنزيلاً » (الإسراء ١٠٦) . فبحسب نص القرآن القاطع ، إن القرآن نزل مفرّقاً « **بجواب كلام العباد وأعمالهم** » كما قال ابن عباس [1] ، واستشهد بقوله : « ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » . والسر والحكمة في تنزيل القرآن نجوماً ، مفرّقاً ، ما نقله أيضاً السيوطي : « **إنما لم ينزل جملة واحدة** ، لأن منه الناسخ والمنسوخ ولا يتأتى ذلك إلاّ فيما أنزل مفرّقا . ومنه ما هو جواب لسؤال . ومنه ما هو إنكار على قول قيل أو فِعل فُعل . وقد تقدم ذلك في قول ابن

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ١:٤١ و٤٣.

عباس : **نزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم**)) . فكان التنزيل القرآني والتشريع فيه بحسب الحاجة وظروف الحال .

وهذه هي الظاهرة الكبرى في الشريعة القرآنية . قال محمد صبيح : ((أورد كتاب (تاريخ التشريع) : كانت الآيات التشريعية ، وهي آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله ﷺ في **الغالب** جواباً لحوادث في المجتمع الإسلامي . وتعرف هذه الحوادث **(بأسباب النّزول)** . وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن . وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً على أسئلة يسألها بعض المؤمنين . **وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة ... فقلّما** ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أُنزل الحكم مرتّبا عليه)) [1] . **فميزة التشريع القرآني الذاتية مزدوجة** : إنه تشريع المناسبة الطارئة ؛ وقليلاً ما كان ينزل مبتدئاً . والنتيجة الحاسمة لتلك الميزة هي أيضاً مزدوجة : تشريع يأتي بحسب الحاجة الطارئة وظروف الحال العابرة ، لا يكون من الإعجاز في التشريع الذي يتحدّى كل تشريع ، حتى يصح أن يكون معجزة . والأصل في التشريع المنزل أو الوضعي **أن يأتي مبتدئاً** ، يوضع وتسير الدعوة والسيرة على هداه . فالشريعة نور وهدى في النبوّة والرسالة تسيران على ضوئهما ، لا تتسكعان وراءَهما . وما يرفع الإعجاز عن التشريع القرآني قوله : ((ولا يأتونك بمثل ، إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)) (الفرقان ٣٣) ؛ كأن جبريل والكفّار في سباق على أفضل مثل وأحسن تفسير . فالتشريع المعجز الذي يصح التحدّي به هو الذي ينزل مبتدئاً ، وتجري السيرة والنبوّة على هداه ، لا الذي يأتي طارئاً بحسب الحاجة وضرورة الحال . فالتشريع التوراتي نزل مبتدئاً على موسى في سيناء ، في الكلمات العشر ، وسارت الرسالة على هداه . والتشريع الإنجيلي وضع السيد المسيح دستوره في خطبته التأسيسيّة على الجبل (متى ٥ ـ ٧) ، وسارت الدعوة على هداه ، وعلى نوره يقضي السيد المسيح في المسائل والمشاكل الطارئة . وتشريع لا ينزل مبتدئاً ، بل بحسب الحاجة وظروف الحال ، هل هو من الإعجاز في التشريع !

---

(١) **عن القرآن** .

بحث رابع

التشريع القرآني دستور أم قانون ؟

التشريع القانوني ابن بيئته ، وابن ساعته ، يرعى ضرورة الحال ، لا مصلحة الاستقبال . والتشريع الدستوري مبادئ عامة تتخطّى ظروف الزمان والمكان ، لكي يكون صالحاً لكل زمان ومكان . وواقع الحال في القرآن ، وكتب (أسباب النّزول) تشهد أن التشريع القرآني **كان ابن بيئته ، وابن ساعته** . فهو لا يتخطى ظروف الزمان والمكان ليصلح لكل زمان ومكان . ظل التشريع القرآني ينزل «بجواب كلام العباد وأعمالهم» ، ويتطور بين تبديل ومحو ، واسقاط ونسخ ، حتى فاجأه موت الرسول ولم يكتمل . يقول الأستاذ دروزة [1]: « إن جُلَّ الآيات والفصول التشريعيّة ، **إن لم نقل كلها** ، قد نزلت إجابة على أسئلة واستفتاءات ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف **متصلة بالسيرة** النبوية ، ومواقف وتصّرفات المسلمين وغير المسلمين في أثنائها : فكانت من جهة **حلاً لمشاكل ومسائل واقعية** ، ومن جهة تشريعاً مستمر الحكم والتلقين والمدى . **وفي التشريع القرآني بعض التطورات** : نعني أن هناك أحكاماً أو أوامر ونواهي أبكر من أحكام وأوامر ونواه : وأن من المتأخر ما جاءَ **ناسخاً أو معدّلاً** للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها **سلباً وإيجاباً** ، وتخفيفاً وتشديداً وضيقاً وسعةً » .

وتشريع كهذا هو تشريع قانوني ، لا دستوري . لأن التشريع الدستوري ، في مدة عشر سنوات وما دون ، لا ينزل متأخراً عن النبوّة والرسالة ، ولا يعتريه نسخ أو تعديل .

وهاك مثلاً على قيام التشريع الديني في القرآن ، من شِرْعة الصيام . قال دروزة [2] « هناك روايات أن النبي ﷺ **قد صام عاشوراء** ، وحضّ على صيامه ، قبل نزول آيات فرض صيام رمضان (البقرة ١٨٣ ـ ١٨٧) . ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود **ناسخ**

---

(١) **سيرة الرسول** ٣٠٦:٢ الخ.
(٢) **سيرة الرسول** ٣٠٦:٢ الخ.

ومنسوخ في آيات الصوم ، إذاستدلّوا ، من الآية الثانية على أن الصيام فُرض في أوَّل الأمر بصورة عامة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين عن كل يوم . ثم أُكّدت الفريضة بالآية (١٨٥) ، إذ جعلت كامل شهر رمضان وحتّم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة الى القادرين . وفي هذا **مظهر من مظاهر التطور** . والآية الأخيرة (١٨٧) تدل على أن المسلمين وقعوا في شيء من الحرج أو الإثم في صدد قرب نسائهم في ليالي الصوم ؛ وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً (عدم الجماع ليلة الصوم) **فخفّف الله عنهم حينما ظهر الحرج**)) .

أما الحجّ فيقول عنه أيضاً دروزة : ((إن تشريع الحج (الحج ٢٥ ـ ٣٥) تشريع مدني (البقرة ١٥٨ و١٨٩ و١٩٦ ـ ٢٠٣ ثم آل عمران ٩٦ ـ ٩٧ ثم المائدة ١ ـ ٢ مع ٩٤ ـ ٩٧) . وجلّ المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها ـ **إن لم نقل كلها ـ قد أُقر على ما كان عليه قبل البعثة** ، بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك والوثنية . وفي الآيات صور واقعية وخطوات تطورية . ويُفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرّجوا من الاشتغال بالتجارة في أثناء أشهر الحج ـ وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية في هذه الأثناء ـ **فأباحت الآية لهم ذلك** . ويُفهم من آيات المائدة (٩٤ ـ ٩٥) أن العرب كانوا يحرّمون صيد البَر والبحر في أشهر الحج المحرَّمة فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس . كما أنها جعلت حالة التحريم مقصورة على وقت الإحرام الذي حدّدته السُنة بلبس الثياب غير المخيّطة حين دخول المسلم منطقة الحرم . ويفهم من آيات الحج (٢٥ ـ ٣٥) أن العرب كانوا يتحرّجون من أكل لحوم قرابينهم فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء)) . تشريع كهذا هو ابن بيئته وابن ساعته ، يخضع لظروف الزمان والمكان ، ولا يتخطاها الى التاريخ والبشرية كلها . وتشريع قانوني ابن ساعته ، وابن بيئته ، ويكون على مقتضى ظروف الزمان والمكان ، قد لا يصلح لكل زمان ومكان في تطور البشرية المستديم . فقوله مثلا : ((للذكر مثل حظ الانثيين))في الميراث ؛ وقوله مثلاً في مواقيت الصيام ((حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود)) (البقرة ١٨٧) ، سيأتي زمن لا تطيق البشرية ذلك ، في عهد المساواة بين الرجل والمرأة ، وفي عهد الساعة التي تحدّد وقت الصوم بدقة أكثر من شريعة الخيط الأبيض أو الأسود .

وهل سترضى المدنية بالتيمّم بتراب طهور ، بدل الوضوء بالماء ؟ وتشريع قانوني، « بجواب كلام العباد وأعمالهم » ، كما يصفه ابن عباس ، ترجمان القرآن ، هل هو من الإِعجاز في التشريع الدستوري لكل زمان ومكان ؟

بحث خامس

مصادر التشريع الإسلامي

١ ـ المصدر الأول للتشريع الإسلامي هو القرآن .

وكان يجب أن يكون **المصدر الوحيد** ، لو كان التشريع القرآني كاملاً شاملاً ، يصلح لكل زمان ومكان ، حتى يصح التحدّي بإِعجازه . لكن بما **أن التشريع القرآني ناقص** ، لا يفي بحاجة الأمة والجماعة في تطورها عبر الزمان والمكان ، أُلجئوا الى التفتيش له عن مصادر أخرى .

٢ ـ فالمصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، بعد القرآن ، هو السُنّة الرسولية . وغالى بعض أهل السُنّة بصواب هذا المصدر الثاني فقالوا أحيانا **بنسخ القرآن بالسنة . وتشريع في كتاب الله تنسخه سُنّة رسوله ، هل هو من الإِعجاز في التشريع ؟**

ثم ان السُّنّة مبيّنة في الحديث : فهل الحديث مصدر صحيح موثوق لا شبهة عليه ؟ قال النووي في شرح صحيح مسلم : «قد استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلاّ بشرطهما فيها ، ونزلت عن درجة ما التزماه . وقال ابن خلدون : إنني أعتقد صحة **سند حديث** ، ولا قول عالم صحابي **يخالف ظاهر القرآن** ، وإن وثّقوا رجاله . فرُبّ راوٍ يُوَثّق للاغترار بظاهر حاله ، وهو سيّ الباطن . ولو انتقدت الروايات ، من **جهة فحوى متنها** ، كما تُنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض» .

وأهل المدرسة الحديثة يكادون يشكون في الحديث كله . يقول عبد الله السمّان [1]: « واذا تركنا السيرة الى **كتب الحديث** ألفينا أنفسنا إزاء مشكلة معقّدة تجعل الباحث في

---

(١) **محمد الرسول البشر** ١٢ ـ ١٣.

حيرة لا تنتهي ولا تقف عند حد . ففي عهد النبي لم يُدوّن الحديث (وقد منع من تدوينه) ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين ، **وذلك خشية أن يختلط الحديث بالقرآن** . ولم يكد يتولّى الخليفة الثالث عثمان حتى بدأت تتولّد الخلافات السياسية ، وظهر وضع آلاف الأحاديث ونسبتها الى النبي ، لتكون مؤيدا لحزب سياسي ، أو ناقضاً لحزب آخر ، وانتهز اليهود والزنادقة فرصة هذه الخلافات التي تدثّرت بالدماء في معظم الأحايين ، وراحوا يختلقون الأحاديث ليهدموا بها الإسلام ويُشغلوا العامة عن أصوله ، لتنصرف الى شكلياته . كما تطوّع كثير من السذّج والبسطاء فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ، ظنّاً منهم أن في هذا خدمة للدين ؛ ولو عقلوا لأدركوا أنهم **أساؤوا إلى الدين أكبر اساءَة** ... ولم يبدإ التدوين إلاّ في عهد المأمون ؛ وذلك بعد أن **اختلط الحديث الصحيح في الحديث الكذب ، كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود** ، كما يقول الدار قطني ، أحد جامعي الحديث المعروفين)) .

لذلك قام الخلاف الأكبر بين السنة والشيعة على صحة الحديث ، وعلى صحة اعتباره مصدراً للتشريع الإسلامي . فقال أهل السنة بأن مصدر التشريع الكتاب والسنة ؛ وقالت الشيعة بأن **الكتاب وحده مصدر الشريعة** ، وأنكروا السُنّة كمصدر للتشريع .

ومصدر مشبوه كالحديث في **متنه ، وسنده ، ومصدره** ، هل يصح مصدراً للتشريع ؟ وتشريع مبني على مصدر مشبوه ، هل هو من الإِعجاز في التشريع ؟

٣ ـ وتطورت الحياة الإسلامية ، وتطورت معها الحاجة الى مزيد من التشريع لقيام مصالحها . وتلفتوا الى الكتاب والسنة ، فلم يجدوا فيهما كل ما تحتاجه الأمة من تشريع . فلجأوا إلى **مصدر ثالث للتشريع الإسلامي : الرأي** ، أي اتفاق أهل النظر في المصالح العامة، دون سواد الأمة ، لأنه اجماع أهل العلم ، في العلم .

وعن الأستاذ الأكبر ، محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر ، في كتابه (العقيدة والشريعة) ، ينقل ناقده [1] : ((ذكر فضيلة الأستاذ الأكبر عند الكلام عن الرأي ـ كمصدر للتشريع ـ أن عهد الرسول قد تركّز فيه مصدران للتشريع هما القرآن والسنة ، وكان أصحابه من بعده يرجعون الى القرآن والسنة ؛ **فإن لم يجدوا حاجتهم بحثوا مستلهمين روح**

---

(١) في ((**نقد وتعريف**)) به للسيد عبد الله السمان : مجلة الأزهر ، ديسمبر ١٩٥٩ ص ٦٣٣.

الشريعة . وكان أخذ الرأي بطريق الاستشارة مصدراً جديداً ظهر العمل به **بعد وفاة الرسول،** في ما لا نص فيه من كتاب أو سُنة ، أو في ما فيه نص محتمل . وترجيح حجّية الرأي في التشريع الى تقرير القرآن **مبدأ الشورى** ، وأمره بردّ المتنازع فيه إلى أولي الأمر ؛ ثم بعد ذلك ثبوت إقرار النبي لأصحابه الذين كان يبعثهم الى الأقاليم **على الاجتهاد والأخذ بالرأي**)) .

وتشريع بحاجة ((الى الاجتهاد والأخذ بالرأي)) هل هو من الإعجاز في التشريع ؟

٤ ـ وهناك **مصادر أخرى الجأتهم الحاجة الى استنباطها** لإكمال مصادر التشريع الإسلامي . فهل الحاجة المستمرة ، في تطور حياة الجماعة ، الى استنباط مصادر أخرى للتشريع ، غير المصدر المنزل ، دليل على إعجاز التشريع المنزل وكفايته ؟ إن الاعتماد المتواتر على مصادر أخرى ، غير الكتاب ، في مصادر التشريع الإسلامي ، لخير دليل على عدم كفاية التشريع المنزل : فكيف تكون الشريعة القرآنية معجزة للتحدي ؟

بحث سادس

((أكثر الأحكام الإسلامية من النوع الاجتهادي))

لكي يصح التحدي بشريعة كأنها معجزة ، يجب أن تكون أحكامها من الشرع المنزل المحكم الذي لا مجال فيه لرأي أو اجتهاد .

١ ـ والتشريع القرآني بحاجة الى السنّة لبيانه ؛ ((وقد تكفلت بذلك السُنة النبوية **شأن كثير من الحدود والقواعد** [1])) . ويقول بعضهم : وقد تنسخ السُنة القرآن . وتشريع منزل بحاجة الى سنة الرسول ، في حديث مشبوه ، لبيانه ، ليس من الإعجاز في التشريع .

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ٢:٣٤٣ ـ ٣٤٤.

٢ ـ والتشريع القرآني ، بعد الكتاب والسنة ، **بحاجة الى الرأي والاجتهاد** لبيانه . وتشريع منزل يفتقر بعد الكتاب والسُنة الى الرأي والاجماع بالاجتهاد لبيانه ، كمصدر ثالث لأحكامه ، ليس بالتشريع الجامع المانع ، الشامل الكامل ، التشريع المعجز بذاته الذي يصح التحدي به .

٣ ـ فمصادر التشريع الإسلامي المتعدّدة تجعله **تشريعاً اجتهاديّاً** . إن الشيخ الأكبر ؛ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر «يقسم الحكم في الشريعة الى نوعين : حكم نص عليه القرآن والسنة نصّاً صريحاً لا يحتمل التأويل ، ولا يحتمل الاجتهاد ـ **وهو قليل** ؛ والنوع الآخر حكم لم يرد به قرآن ولا سُنة ، أو ورد به أحدهما ، ولم يكن الوارد به قطعيّاً فيه ، بل محتملاً له ولغيره ، وكان ذلك محلاً لاجتهاد الفقهاء والمشرّعين : فاجتهدوا فيه ، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره . **وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادي** »[١] .

وتشريع أكثر الأحكام فيه من النوع الاجتهادي ، هل يكون معجزة الشريعة الى يوم القيامة ؟ وهل يصح أن نجعله ، مع الشيخ أبي زهرة وغيره ، معجزة الإِعجاز القرآني الكبرى ؟ ألا يكفي القرآن إِعجاز نظمه وبيانه ؟

٤ ـ ويرى الدكتور السنهوري[٢] أن الفقه الإسلامي ، المبني على الشرع الإسلامي، بحاجة الى تطوير ليصلح للعصر الذي نعيش فيه . قال : «والهدف الذي نرمي إليه هو **تطوير الفقه الإسلامي** ، وفقاً لصناعته ، حتى نشتق منه **قانونا حديثا يصلح للعصر الذي نعيش فيه**. وليس القانون المصري أو القانون العراقي الجديد ، إلاّ قانوناً مناسباً في الوقت الحاضر لمصر أو للعراق . **والقانون النهائي الدائم** لكل من مصر والعراق ، بل ولجميع الدول العربية، إنما هو «**القانون المدني**» الذي نشتقه **من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطوّرها**».

وشريعة بحاجة الى تطوير لتصلح للعصر الذي نعيش فيه ليست بمعجزة الشريعة . وتشريع أكثر الأحكام فيه من النوع الاجتهادي ليس من الإِعجاز في التشريع المنزل .

---

(١) مجلة الأزهر ، فبراير ١٩٦٠ ص ٨١٨ في مقال للاستاذ الشرقاوي : **الشريعة والناس**.
(٢) مجلة الأزهر ، نوفمبر ١٩٥٩ ص ٤٢١ في مقال للدكتور محمد يوسف موسى : **التشريع الإسلامي** .

بحث سابع

تشريع يعتريه التبديل والمحو والإسقاط والنسخ

إن التشريع المنزل الذي يصلح للتحدي هو التشريع المحكم الذي ينزل مبتدئاً ، ولا يعتريه تبديل ولا محو ولا اسقاط ولا نسخ .

١ ـ والتشريع القرآني يعتوره التبديل ، بنص القرآن القاطع : ((واذا بدَّلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزّل ـ قالوا : إنما أنت مفترٍ !)) (النحل ١٠١) . هذه الظاهرة من مكّة ، وقد دامت الى وقت التشريع بالمدينة ، كما يؤيدها مبدأ النسخ وواقعه (البقرة ١٠٦) ، والى العرضة الأخيرة . وتشريع يعتوره تبديل في مدى عشر سنوات لا يكون معجزاً بذاته .

٢ ـ والتشريع القرآني يلحقه **المحو** ، بنص القرآن القاطع : ((لكل أجل كتاب : يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أمّ الكتاب)) (الرعد ٣٨ ـ ٣٩) . وتنزيل بالتشريع ، مثبت في أم الكتاب ، أي أصله الذي لا يتغير منه شيء ، كيف يلحق به المحو مثبتاً أو منزلاً ؟ وتشريع يقتضي المحو بعد تنزيل ، في مدى عشر سنوات ، لا يكون معجزاً بذاته .

٣ ـ والتشريع القرآني آفته **الاسقاط** منه [١] ، بعد تنزيله . بحسب الحديث المتواتر كان يجري اسقاط من القرآن في عرضاته السنوية على جبريل ؛ وفي العرضة الأخيرة سقط منه منسوخ كثير رفعت تلاوته وأحكامه . وعند جمع القرآن ((ذهب منه قرآن كثير)) ؛ ((قبل أن يغيّر عثمان المصاحف)) ، على قول ابن عمر والسيدة عائشة [٢] . وتشريع يقتضي الاسقاط منه لتقويمه ، في مدى عشر سنوات ، لا يكون معجزاً بذاته .

٤ ـ والتشريع القرآني يعتريه **النسخ** في أحكامه (البقرة ١٠٦) . وقد يقع النسخ فيه بين المدني والمكي ؛ وفي المدني بين السورة والسورة ، وفي السورة نفسها بين آية وآية ،

---

(١) ((قال : اسقطت فيما أُسقِط من القرآن)) **الإتقان** ٢:٢٥.
(٢) قابل دروزة : **القرآن المجيد** ٥٨ ؛ قابل **الإتقان** ٢:٢٥.

وأحياناً في الآية الواحدة . قال السيوطي [1] : «**النسخ ممّا خصَّ الله به هذه الأمة**» . وقد وقع النسخ أثناء التنزيل . وفي العرضة الأخيرة للقرآن رُفع من المنسوخ كثير . ومع ذلك فقد احتوى مصحف علي كثيراً من المنسوخ ، قضى عليه عثمان عند جمعه القرآن . وفي المصحف العثماني بقي ناسخ ومنسوخ تُؤلف فيه الكتب الى اليوم . وتشريع يعتريه النسخ في جميع أطواره لا يكون معجزاً بذاته .

وتشريع يتّصف بذاته بالتبديل والمحو والاسقاط والنسخ هل يكون من الإِعجاز في التشريع ؟

بحث ثامن

تشريع يشوبه متشابه ويعوزه تفسير

للقرآن أسلوب مطّرد في بيانه ، وهو التعميم في معرض التخصيص ، والتخصيص في معرض التعميم . ومن أساليبه اطلاق الحكم مع قيده باستثناء أو سواه . ومن أساليبه اصدار الحكم عن الخاص الى العام مستمر التلقين ، لمن كان بمنزلة الشخص المعين . وقد تصدر الأحكام فيه على «**رتبة متوسطة ، دون السبب (المخصُوص) ، وفوق التجرّد**» ؛ فتلك ثلاثة أنواع . وقد يأتي الحكم العام تالياً للخاص في الرسم متراخياً عنه في النزول . لذلك قال بعضهم : **لا يصح تفسير الكتاب إلا بعد معرفة «أسباب النّزول»** .

ومعرفة (أسباب النّزول) لها **فوائد** [1] : «منها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم . ومنها تخصيص الحكم به ، عند مَن يرى أن العبرة بخصوص السبب . ومنها أن اللفظ قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه ، فإذا عُرف السبب قصر التخصيص على

---

(١) **الإتقان** ٢:٢١.
(٢) السيوطي : **الإتقان** ١:٢٩ ـ ٣٠.

ما عدا صورته . ومنها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال . قال الواحدي **: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها** . وقال ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن . وقال ابن تميمة : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبِّب ... ومنها دفع توهم الحصر . ومنها معرفة اسم النازل فيه الآية ، وتعيين المبهم فيها . **واختلف أهل الأصول : هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب**)) .

ومن الأحكام المتشابهة التي لا يُعرف حدّها إلاّ بسبب نزولها مثل قوله : ((ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا)) فظنها بعضهم مبيحة لشرب الخمر ، وهي مقصورة على أناس قُتلوا في سبيل الله قبل تحريمها ؛ ومثل قوله : ((فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله)) ، فمدلول اللفظ يقتضي أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً ، وهو خلاف الاجماع ، فلمّا عُرف سبب نزولها عُلِمَ أنها في نافلة السفر أو فيمن صلّى بالاجتهاد وبان له الخطأ ، على اختلاف الروايات ؛ ومثل قوله : ((إن الصفا والمروة من شعائر الله)) فإن ظاهر لفظها لا يقتضي أن السعي فرض ، وقد ذهب بعضهم الى عدم فريضته تمسكاً بذلك ؛ ولكن سبب نزولها يدل على فرضها ، وهو أن الصحابة تأثّموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، فنزلت ...

وهكذا يظهر على كثير من أحكام القرآن تشابه لا يُرفع إلاّ بغيره من القرائن القرآنية أو من (أسباب النّزول) . وتشريع يشوبه تشابه في لفظه هل هو من الإِعجاز في التشريع ؟

بحث تاسع

من ميزات التشريع القرآني

للتشريع القرآني ميزات يختص بها ، هي دلائل على مدى إِعجازه .

١ ـ ميزته الأولى : التخفيف في أحكام أهل الكتاب ، وفي أحكام الجاهلية نفسها . بتشريع القرآن ((يريد الله ليبيّن لكم **ويهديكم سُنن الذين من قبلكم** ... يُريد الله أن يخفِّف

عنكم ، وخُلق الانسان ضعيفاً » (النساء ٢٦ و٢٨) . من ذلك تحليل « الرفث الى النساء ليلة الصيام » (البقرة ١٨٧) ، وكان محظوراً عند أهل الكتاب . ومن ذلك ، في الصيام ، العِدّة من أيام أُخر لمن كان مريضاً أو على سفر ، **إذ** « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » (البقرة ١٨٥) ...

وقد يأتي التخفيف في أحكام الجاهلية نفسها ، كالتي في مناسك الحج في إباحة التجارة. (البقرة ١٩٨) ، أو في ما « استيسر من الهدي ، فمن لم يجد فصيام » عشرة أيام (البقرة ١٩٦) أو قبول جميع المواقف في مناسك الحج تألّفا لأصحابها كالسعي بين الصفا والمروة (البقرة ١٥٨) ، أو العفو عن القصاص في القتلى ، « **ذلك تخفيف من ربكم** » (البقرة ١٧٨) .

ومبدأ التخفيف في الأحكام قد يطبقه القرآن على محرّماته ، عند الضرورة ، كقوله : « إنما حُرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير... **فمن اضطُرّ غير باغ ولا عاد ، فلا إثم عليه** » (البقرة ١٧٣) . ويطبّقه في الإيمان والتوحيد ، بإظهار الشرك عند الحاجة : « من كفر بالله ، بعد إيمانه ـ إلاّ مَن أُكرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ـ ولكن مَن شرح بالكفر صدراً ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦) فهذا المبدأ يلغي الاستشهاد الحق في سبيل الإيمان . وكان المبدأ الفقهي : الضرورات تبيح المحظورات .

وتشريع سمته التخفيف في أحكامه عن أمته ، هل هو من الإعجاز في التشريع لخلق خير أمة أخرجت للناس » ؟

٢ ـ ميزته الثانية : التسهيل في مداورة الأحكام بفرض **التحلة والكفّارة ، أو الفدية**.

يقول في القسم : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » (البقرة ٢٢٤) ؛ « واحفظوا أيمانكم » (المائدة ٨٩) ؛ « ولا تتّخذوا إيمانكم دَخَلاً بينكم ، فتزل قدم بعد ثبوتها ... **ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً** » (النحل ٩٤ و٩٥) . ثم يقول : « **قد فرض الله لكم تحلّة إيمانكم** » (التحريم ٢) ، وكان ذلك مقدَّمة لتحلة محمد من قسمه الى بعض أزواجه . كذلك : « لا يُؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الإيمان ؛ **فكفارته** : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتُهم ، أو تحرير رقبته ؛ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ـ ذلك كفّارة أيمانكم اذا حلفتم ـ واحفظوا أيمانكم ـ كذلك يُبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون » (المائدة ٨٩) .

وقد شرع **الفدية** في الصوم : ((وعلى الذين يطيقونه فدية : طعام مسكين)) (البقرة ١٨٤) . قال البيضاوي : ((رُخص لهم في ذلك أوّل الأمر ، لمّا أُمروا بالصوم ، **فاشتدَّ عليهم لأنهم لم يتعوّدوه** ثم نُسخ ... (وهناك قراءات أخرى للآية) ، وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً ، وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده ، وهم الشيوخ والعجائز ، في الافطار والفدية ، فيكون ثابتاً ، وقد أُوّل به القراءَة المشهورة أي يصومونه جهدهم وطاقتهم)) . والفدية لمن كان مريضاً أو على سفر في الصيام لم تُنسخ (البقرة ١٨٤ ـ ١٨٥) .

كذلك شرع الفدية في الحج بحلق الرأس للمضطرّ (البقرة ١٩٦) .

ومتى وُضع مبدأ التحلة والكفّارة والفدية للتخلّص من أحكام الشريعة ، جازت مداورتها لمن يريد ويهوى . فإذا جاز مداورة الشريعة بمبدإ الكفّارة أو الفدية فكيف تصير أخلاق المؤمن ؟

٣ ـ ميزته الثالثة: رفع الحرج في الدين وشعائره وأحكامه . فكان هذا المبدأ: ((وما جعل عليكم في الدين من حرج)) (الحج ٧٨) . وطبّقه بالتيمّم بتراب طهور ، بدل الوضوء بالماء (المائدة ٦) . وطبّقه حتى في التظاهر بالكفر والشرك عند الضرورة ، ((لمن أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان)) (النحل ١٠٦) . وكان النبي نفسه ((أسوة حسنة)) (الأحزاب ٢١) برفع القرآن الحرج عنه في حدود شريعة الزواج وقيودها . فقد ألغى شريعة التبنّي الجاهلية ـ وهي عالمية حتى اليوم ـ وأخذ محمد مطلقة متبنّاه زيد ((لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ... ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له)) (الأحزاب ٣٧ ـ ٣٨) . وأحلّ له جميع قريباته ، فوق نسائه ، ((وامرأة مؤمنة ، إن وهبت نفسها للنبي ، إن أرد النبي أن يستنكحها ، خالصة لك من دون المؤمنين : **قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت إيمانهم** . لكيلا يكون عليك حرج ، وكان الله غفوراً رحيماً)) (الأحزاب ٥٠) . ورفع عنه حدود الطلاق والعزل والعدل بين نسائه : ((ترجئ مَن تشاء ، وتؤوي إليك مَن تشاء . ومن ابتغيت ممن عزلت ، فلا جُناح عليك)) (الأحزاب ٥١) .

وقد وصل رفع الحرج حتى في القرآن نفسه ، فنزل : ((طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)) (طه ١ ـ ٢) ؛ ((كتاب أنزل إليك ، **فلا يكن في صدرك حرج منه**)) (الأعراف ٢) . ورفع الحرج عن النبي في تنزيل القرآن يفسّر لنا بعض مظاهره من تبديل أو محو أو نسخ .

وقد استخلص الفقهاء من ذلك أن الحرج في الدين وأحكامه والشريعة وأحكامها **مرفوع شرعاً** ، وأن المشقة تجلب التيسير ، **وأن الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات** . إن التكليف بالشريعة يلازمه الحرج في تطبيقها . ومتى رُفع الحرج ، بتقدير المكلَّف وقدرته ، زالت حرمتها وقدسيّتها ! ومتى كان الحرج في التكليف بالشريعة مرفوعاً شرعاً ، ومتى كانت الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات ، فعلى الشريعة وأحكامها السلام .

٤ ـ ميزته الرابعة : مبدأ الكَسْب في الإثم والخطيئة والسيئة

المبدأ في القرآن : ((بلى ، مَن كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) (البقرة ٨١) ؛ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه الى الله ، ثم تُوفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون)) (البقرة ٢٨١) . ويقول : ((ومن يكسب إثماً فإنما يكسِبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيماً)) (النساء ١١١) . مع ذلك فهو يقول : ((**لا يكلِّف الله نفسا إلاّ وسعها** : لها ما كَسَبَت ، وعليها ما اكتسبت)) (البقرة ٢٨٦) . فليس من كسب أو اكتساب في التكليف إلاّ على وُسْع الانسان . وهذا تقدير ذاتي قد يذهب بالتكليف ذاته .

يقول أيضاً : ((**وذروا ظاهر الإثم وباطنه** : إن الذين يكسبون الإثم ، سيُجزون بما كانوا يقترفون)) (الأنعام ١٢٠) . وبناءً عليه يقول : ((لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ، والله غفور حليم)) (البقرة ٢٢٥) ؛ ويقول ((إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله)) (البقرة ٢٨٤) أي يشرع **المحاسبة على الوسوسة** . ثم ينسخها بقوله : ((لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها)) (البقرة ٢٨٦) . إن باطن الاثم كالوسوسة بالشر إخفاء له نُحاسب عليه ، فكيف لا يكلف الله نفساً إلا وسعها بالكسب العملي الظاهر ؟

ثم ((لا يؤاخذكم الله **باللغو في أيمانكم** ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم)) (البقرة ٢٢٥) . كأن اللغو باسم الله العظيم لا كسب فيه للإثم ! لذلك درجت العادة بالقسم باسم الله (بدون كسر الهاء) كأنه لا إثم فيه . ولا تمنع اليمين من الاصلاح بين الناس عن طريق الكذب الظاهر (البقرة ٢٢٥) ؛ أو عمل ما هو أفضل من الأمور المقسوم عليها ((كقوله عليه السلام لابن سمرة : اذا حلفت على يمين ورأيت غيرها خيراً منها فأتِ الذي هو خير ، وكفّر عن يمينك)) (البيضاوي) .

فالكسب للإثم هو طوراً ((ظاهر الاثم وباطنه)) ؛ وهو طوراً ((بما كسبت قلوبكم)) ؛ وهو طوراً مَن ((أحاطت به خطيئته)) من ظاهر العمل . فالكسب في الإثم متشابه ، وهذا ممّا يجعل درء حدود الأحكام سهلا . وعلى كل حال ، يصح درء الحدود بالشبهات . وتشريع لا تتضح فيه معالم الشر والاثم والذنب هل هو من الإِعجاز في التشريع ؟

٥ ـ ميزته الخامسة : استباحة ((اللمم)) في الإثم والفواحش

من صفات المحسنين ، في القرآن ، استباحة اللمم في الآثام والفواحش : ((ولله السماوات وما في الأرض ، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلاّ اللمم : إن ربك واسع المغفرة)) (النجم ٣١ ـ ٣٢) . فصغائر الاثم واللمم في الفواحش لا تمنع الحسنى لدى الله .

فالمحسنون ، في عرْف القرآن ، هم ((الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش)) (الشورى ٣٧) .

والمبدأ في الجزاء : ((إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه ، نكفّر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلاً كريماً)) (النساء ٣١) ؛ مع أن كتاب الحساب في يوم الدين لا يترك صغيرة ولا كبيرة : ((ووضع الكتاب ، فترى **المجرمين** مشفقين ممّا فيه ، ويقولون : يا ويلتنا ، **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة** إلاّ أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً)) (الكهف ٤٩) ؛ ومع أن ((الحسنات يذهبن السيئات)) (هود ١١٤) .

ومبدأ آخر في الجزاء : إن عباد الرحمان ((الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ، ولا يزنون ـ ومَن يفعل ذلك يلق آثاماً ، **يُضاعف له العذاب** يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً)) (الفرقان ٦٨ ـ ٧٠) . فعباد الرحمان جزاؤهم مضاعف ، وتوبتهم تبدِّل سيئاتهم حسنات .

فالخُلق الحسن ، والثواب الحسن ، في اجتناب ((كبائر الاثم والفواحش)) . أمّا صغائر الآثام ، واللمم في الفواحش ، فلا عبرة له في الجزاء . وتشريع يستبيح صغائر الآثام ، واللمم في الفواحش ، هل هو من الإِعجاز في التشريع الديني والخلقي ؟ وهل يعطي ((خير أمة أُخرجت للناس)) أسوة حسنة للعالَمين ؟

٦ ـ **ميزته السادسة : الشرك هو الاثم الوحيد** الذي لا مغفرة له

إن الشرك اثم عظيم : ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومَن يُشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ (النساء ٤٨) . وإن الشرك ضلال بعيد : ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومَن يُشرك بالله فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ (النساء ١١٦) . وهذا التعليم ينسبه القرآن للمسيح : ﴿وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . إنه مَن يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار﴾ (المائدة ٧٢) .

لا شك أن الشرك إثم عظيم وضلال بعيد ومأواه النار . ولكن مَن خُلق مشركاً ، وهو قانع من وجدانه أنه على حق ، فهل يكون مصيره النار ؟ ألا يقول : ﴿وما كان ربك مهلك القرى **حتى يبعث في أُمّها رسولاً فيتلو عليهم آياتنا** ! وما كنّا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون﴾ (القصص ٥٩) ، ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، وأهلها غافلون﴾ (الأنعام ١٣١) فتلك الأشراط الثلاثة للإهلاك تجعل المشرك غير مسؤول عن شركه ، فلا يُحاسب عليه . إن الشرك المسؤول هو الشرك الظالم الذي يعرف نفسه وظلمه . فليس جميع المشركين الغافلين وغير الظالمين ، مأواهم النار ! وليس الشرك الاثم الوحيد الذي لا مغفرة له . إن صاحب الكبيرة غير التائب لا مغفرة له أيضاً ؛ وإن اختلفوا هل هو في النهاية من أهل الجنة أم مِن أهل النار ، أم في منزلة بين المنزلتين . واستنتاجهم من آية الشرك (النساء ٤٨) **أنه لا يخلّد في النار مؤمن** ، ولا ينجو من النار مشرك ، ليس بمنطق ولا صواب . والقول : ﴿لا يخلّد في النّار مؤمن﴾ هو باب فساد وإفساد للمؤمن . والقول الحق قوله : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : **مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً** ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة ٦٢) . فشرط النجاة من النار ليس الإيمان وحده ، بل الإيمان المقرون بالعمل الصالح . فإذا كان الشرك هو الاثم الوحيد الذي لا مغفرة له ، وكان المسلم صاحب الكبيرة لا يُخلّد في النار ، جاز له أن يستبيح أحكام الشريعة كلها : فهل هذا من الإعجاز في التنزيل والتشريع ؟

تلك هي ميزات التشريع القرآني الذاتية . ونتساءَل أين فيها معجزة الشريعة التي يصح بها تحدي العالمين ؟ فهل التخفيف في أحكام أهل الكتاب والجاهلية والقرآن نفسه ؛ هل

التسهيل بمداورة أحكام القرآن بالتحلة والكفّارة والفدية ؛ وهل رفع الحرج في أحكام الدين والشريعة ؛ وهل حصر الكسب في الإثم والخطيئة والسيئة بالعمل الظاهر من دون المحاسبة على السوء من فكر أو شهوة أو رغبة لم تقترن بعمل ؛ وهل استباحة الصغائر في الآثام واللمم في الفواحش ؛ وهل اقتصار الاثم الوحيد الذي لا مغفرة له على الشرك وحده من دون سائر الكبائر ، هي كلها من دلائل الإِعجاز في التشريع ؟

بحث عاشر

التشريع القرآني هداية الى التشريع الكتابي

إن التشريع القرآني هداية الى التشريع الكتابي ، وذلك بنص القرآن القاطع : «يريد الله ليبيّن لكم **ويهديكم سُنَن الذين من قبلكم** ، ويتوب عليكم ، والله عليكم حكيم» (النساء ٢٦). إن صراحة هذا التصريح تدلنا على سعة مدلول التحدي في قوله : «قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله هو **أهدى منهما** اتّبعه ، ان كنتم صادقين» (القصص ٤٩) . إنه يتحدى المشركين بهدى الكتاب والقرآن معاً أي بعقيدتهما وشريعتهما . فالتحدي بالشريعة لا ينفرد به القرآن حتى يكون معجزة له ، إنما هو ميزة الكتاب والقرآن معاً . وكما أن القرآن **تابع** في هداه لكتاب الإمام ، فهو **تابع له** في الشريعة أيضاً : فالإِعجاز في الشريعة والسُنن **يكون في الإمام المتبوع قبل التابع** . بذلك تزول عن القرآن صفة التحدي بشريعته كمعجزة له .

والقرآن في **الدين كله** ، سواء العقيدة والشريعة والصوفية ، في سننه وأحكامه ، إنما يشرع للعرب دين موسى وعيسى معاً ، أمةً واحدةً : شرع لكم من الدين ... ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» (الشورى ١٣) . فدين الكتاب ، دين موسى وعيسى معاً ، هو الدين للعرب : «تلك أمتكم أمة واحدة» (الأنبياء ٩٢ ؛ المؤمنون ٥٢) في وحدة الأمة والدين والشريعة . فلا ميزة

للقرآن وأهله بها ينفردون ، وبها يتحدّون . فإن الأمر ، منذ رؤيا غار حرّاء ، جاءَ محمداً أن يقتدي بهداهم : أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة ... أولئك الذين هدى الله ، **فبهداهم اقتدِهْ** » (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) في العقيدة والشريعة ، في الأحكام والسنن . فالإعجاز في الهدى ، من عقيدة وشريعة ، الذي به يقتدي في الدعوة القرآنية . « والذين آتيناهم الكتاب والحكم » هم الذين يقيمون « الكتاب والحكمة » معاً ، دين موسى وعيسى معاً ، النصارى من بني إسرائيل ، **الذين يختصّهم باسم « مسلمين »** ، ويُؤمر بأن ينضم اليهم ويتلو قرآن الكتاب على طريقتهم : « وأُمرتُ أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن » (النحل ٩١ ـ ٩٢). فالإعجاز في العقيدة والشريعة هو عند هؤلاء « المسلمين » : فما محمد سوى تلميذ لهم في « الإسلام » . وهؤلاء « المسلمون » هم « أولو العلم المقسطون » الذين يشهدون مع الله وملائكته « ان الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . فشهادتهم من شهادة الله وملائكته. والقرآن يشهد بشهادة هؤلاء « الراسخين في العلم » بالإسلام في عقيدته وشريعته . فالإعجاز الحق في الشريعة ، كما في العقيدة والهدى ، هو عند هؤلاء « المسلمين » . لذلك فالتشريع القرآني هداية الى التشريع الكتابي . ومَن كانت هدايته في الحقيقة والشريعة من هدى غيره ، فالإعجاز الحق الذي به يتحدى هو عند غيره : « ليهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم » .

خاتمة

الشبهات التشريعية ودلائل الإعجاز

وهكذا فتشريع يهتدي بشريعة الكتاب وأهله ، من أولي العلم المقسطين ؛ تشريع ميزاته الذاتية التخفيف والتسهيل ورفع الحرج في الدين ؛ تشريع يشوبه متشابه ويعوزه تفسير؛ تشريع يعتريه التبديل والمحو الاسقاط والنسخ في أحكامه ؛ تشريع أكثر الأحكام فيه من النوع الاجتهادي ؛ تشريع منزل لا يفي بالحاجة في تطور الجماعة ، إلاّ بمصادر أخرى تفصّله ؛ تشريع قانوني ، ابن بيئته وابن ساعته ، أكثر منه دستوريّاً يتخطّى ظروف الزمان والمكان ليصلح لكل عصر وأمة ؛ تشريع أحكامه المحكمة جزء ضئيل من القرآن فلا تصح دليلاً على إعجاز القرآن كله ؛ تشريع نزل بعد سكوت القرآن عن التحدي بإعجازه ، فلا تحدّي به في القرآن ؛ هذا التشريع هل هو من الإعجاز في الشريعة ؟

الجزء الثالث

الإعجاز في العلم

((بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم))
(العنكبوت ٤٩)

((وليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحقّ من ربّك))
(الحج ٥٤)

((وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً))
(الإسراء ٨٥)

توطئة

تعبير ((العلم)) في لغة القرآن واصطلاحه

يرد تعبير ((العلم)) اسماً وفعلاً مع مشتقاتهما كثيراً في القرآن . ويظهر بين هذا ((العلم))، و ((أولي العلم)) و ((الراسخين في العلم)) - وبين القرآن **صلة متواصلة متأصلة** كأنه يستشهد بهم ، ويستعلي بهم ، ويتحدّى بهم ، كما في قوله : ((بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون)) (العنكبوت ٤٩) ؛ ((وليعلم الذين أوتوا العلم

أنه الحق من ربك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم » (الحج ٥٤) ؛ « والراسخون في العلم يقولون : آمنا ، كلٌ من عند ربنا » (آل عمران ٧) .

وكأن أولي العلم يشهدون مع القرآن « إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٩) فظن فريق أول أن القرآن ، كما هو كتاب دين ، هو أيضاً كتاب علم . وأفرط بعضهم في الظن فرأوا فيه جميع علوم الأولين والآخرين . وانتهي الأمر ببعضهم فقالوا **بإعجاز القرآن في العلم** ، فقد سبق القرن العشرين الى الكشف عن علم الذرة ، لأن كلمة الذرة اللغوية وردت فيه . وقام فريق آخر منذ **الشاطبي** يردعون الناس عن ذلك الاسراف ، وينادون بأن القرآن كتاب دين لا كتاب علم . وقام فريق ثالث ، مثل عبد الكريم الخطيب في (إعجاز القرآن) يقف في منزلة بين المنزلتين ، فيرى « **ان العلم هو الذي يخدم قضية القرآن** ، إذ هو الذي يكثر له من القوى المبصرة التي ترى ما فيه من حِكم وأسرار ... وفي هذا يتجلّى **وجه جديد من وجوه الإعجاز في القرآن ، وهو خلوده على الزمن** ، مع احتفاظه بمكانه من السمو **والهيمنة على كل ما تبلغه العقول من مدركات** ، وما تلده الحياة من أسرار » (١:٢٧) .

وهذا الخبط كله فيما بينهم **قائم على سوء فهم التعبير القرآني** : « العلم » و « أولي العلم » . انهم يفهمونه على حرف اللغة ، وهو **اصطلاح قرآني** ذو مدلول خاص . واصطلاح القرآن لتعابير « العلم » و « أولي العلم » ، وموضوع صلتهم بالقرآن ، يجعل صلة القرآن بالعلم، بحسب حرفه اللغوي والعلمي ، **لا وجود لها** ؛ ويجعل ما قالوه من **إعجاز القرآن في العلم** من دون أساس : « وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً » (الإسراء ٨٥) . فالقرآن كتاب دين ، لا كتاب علم .

بحث أوّل

القرآن كتاب دين ، لا كتاب علم « الكونيات »

إن تعابير « العلم » ، وتصاريح القرآن : « ما فرّطنا في الكتاب من شيء » ، « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » ، كلها جعلت بعض القوم **يرون في « الكونيات » القرآنية معجزة علميّة** .

أوّلاً : التطرّف قديماً وحديثاً

١ ـ عقد السيوطي ، آخر المحققين القدماء ، فصلا من (الإتقان ٢:١٢٥) ((في العلوم المستنبطة من القرآن)) ، حيث يجعلونه موسوعة العلوم الحاضرة والماضية والمستقبلة ، من لغوية وعلمية وفلسفية . ونقل عن الطبري قوله : ((وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء . أما **أنواع العلوم** ، فليس منها باب ، ولا مسألة هي أصل ، إلاّ وفي القرآن ما يدل عليها . وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السماوات والأرض ، وما في الأفق الأعلى ، وتحت الثرى ، وبدء الخلق ... وقد احتوى على علوم أخرى من **علوم الأوائل** مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبْر والمقابلة والنجامة وغير ذلك ... **وجميع ما وقع ويقع في الكائنات** ما يحقق معنى قوله : ما فرطنا في الكتاب من شيء ... حتى لقد قال قائل : إن **علوم القرآن** خمسون وأربعماية وسبعة آلاف علم . أو سبعون ألف علم على عدد كَلِم القرآن مضروبة بأربعة إذ لكل كلمة فيه ظهر وبطن وحد ومطلع . وقال قائل : **لكل آية ستون ألف فهم** . حتى قال ابن عباس : لو ضاع لي **عقال بعير** لوجدته في كتاب الله)) .

٢ ـ وقد زاد بعض أهل العصر على تلك الخوارق والمخاريق : ((أما بعد فيقول عبد ربه تعالى خادم الكتاب والسنة ، محمد العرب العزّوزي [1] : إن أوسع دائرة للمعارف تناولتها البشر القرآن الكريم)) . والسيد عفيف عبد الفتاح طبّارة ، في كتابه (روح الدين الإسلامي) يعدّد ((**معجزات القرآن العلمية**)) , ويجد في بعض آياته **النظريات العلمية الحديثة** . والسيد عبد الرزاق نوفل ، في كتابه (**القرآن والعلم الحديث**) يرى فيه : أسرار علم النفس ، وأسرار علم الفيزياء الطبيعية ، وأسرار نظرية اينشتين في النسبية ، وأسرار علم الوراثة ، وأسرار علم الحياة ، وأسرار العالم غير المنظور في قوله في ٧٣ آية ((**رب العالمين**)) ، كقوله: ((وقد سبق القرآن **علم الذرة** وتفجيرها كما قال فيها : (فارتقب يوم تأتي السماء **بدخان مبين** يغشى الناس ، هذا عذاب أليم ... وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : **سحاب مركوم**) . فقد وضعت سورة الدخان تفجير الذرة ومفعولها قبل ١٤٠٠ سنة ونيف)) . وقوله أيضاً : ((وأهم حدث في القرن العشرين ، إن لم يكن في حياة الأرض ، هو **الأقمار الصناعيّة** التي تنبأ بها القرآن الكريم في سورة النمل (٨٢) : ((واذا وقع القول عليهم ، أخرجنا **لهم دابة من الأرض تكلمهم** أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)) .

---

(١) وهو أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية ، في ((**دليل مباحث علوم القرآن المجيد**)) ـ المقدمة ص ١٢.

ثانياً : الاعتدال قديماً وحديثاً

القرآن مثل الكتاب والإنجيل ، **كتاب دين ، لا كتاب علم** . فهو صريح كل الصراحة في اقتصار وحيه على الدين: ((قلْ: إنما يوحى إليَّ إنما إلهكم اله واحد ، فهل أنتم مسلمون)) ؟ (الأنبياء ١٠٨) . فليس من وحي في القرآن سوى التوحيد وأحكام الدين والشريعة : ((**إنما أعظكم بواحدة** : أن تقوموا لله)) ! (سبأ ٤٦) . ويركّز دعوته كلها على حصر الوحي القرآني في التوحيد وعقيدته وشريعته : ((قل : إنما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ أنما الهكم اله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه)) (فصلت ٦) .

١ ـ **وقديماً** رأى ذلك بعض العلماء ، مثل الإمام الشاطبي [١] الغرناطي ، قال : ((إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه **كل علم يُذكر للمتقدمين والمتأخرين** ، من علوم الطبيعيات ، والتعاليم ـ أي العلوم الرياضية ـ والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأسبابها . ((وهذا اذا عرضناه على ما تقدم **(من أن القرآن إنما خاطب العرب بما كان واقعاً في حياتهم)** ، لم يصح . والى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه ، وما أودع فيه . ولم يبلغنا أنه تكلّم أحد منهم في شيء من هذا المدّعى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من **أحكام التكاليف وأحكام الآخرة** ... ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدل على أصل المسألة ... إلاّ أن ذلك لم يكن ، فدلّ على أنه غير موجود عندهم ... **وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير شيءٍ ممّا زعموا** . نعم ، **تضمّن علوماً هي من جنس علوم العرب ، أو ما يُبنى على معهودها**)) .

٢ ـ **وحديثا** أبدى بعض العلماء رأيهم كذلك :

يقول عبد المتعال الصعيدي [٢] في مقاصد القرآن : ((مقاصد القرآن لا تخرج عن **الوظيفة الدينية** للقرآن ، **لأنه نزل لتشريع العقائد والأحكام** . فيجب أن يقف عند حدودها . فلا يُقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب أو غيرها من العلوم ،

---

(١) **الموافقات** ١:٨١ .
(٢) **النظم الفني في القرآن** ص ٣٦ ـ ٣٧.

لأنه لم ينزل لغرض من هذه الأغراض . وإنما نزل للأغراض السابقة التي لا سبيل الى معرفتها إلا بالوحي . أما هذه الأغراض العلمية فإنها تُعرف بالعقل ، ولا تتوقف معرفتها على الوحي . فلا يصح أن يخلط بينها وبين الأغراض السابقة في كتاب ديني كالقرآن أو غيره)) .

والأستاذ دروزة [1] يرى ((الكونيات)) في القرآن هي من المتشابه فيه ، لا من إعجازه ، واستخراج النظريات العلمية منها إنما هو تمحّل لا يليق بقدسية القرآن . قال: ((لعلَّ في تعبير الأوتاد عن الجبال ، والسقف المبني عن السماء ، والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن النجوم ، وجريان الشمس ومنازل القمر ، والسراج الوهّاج للأولى ، والمصباح المنير للثاني ، وفي ذكر انزال الماء من السماء ، وتسيير السحاب وتصريف الرياح ، وارسال البرق والرعد والصواعق ، وإثبات مختلف الزرع والأشجار ، وتسخير الدواب والأنعام ، وتسيير البحار والأنهار والفلك ، **وجعل الأرض بساطاً ، وتصويرها مركزاً للكون** ، والانسان قطباً للأرض ، حيث سخّر له كل ما في السماوات والأرض ، وسوّاه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ... **ما جاءَ متّسقاً مع مشاهد ومدركات مختلف فئات الناس الذين يوجه اليهم الكلام** . وان ما ورد في القرآن من **مشاهد الكون ونواميسه** قد استهدف العظة والتدعيم دون أن ينطوي على قصد تعزيز ماهية الكون ، وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية **العلمية والفنيّة** ... وهذه النقطة متصلة **بالمبدإ العام** الذي ما فتئنا نقرّره من أن القرآن خاطب الناس بما يتّسق في أذهانهم إجمالاً من صور ومعارف ، لما يكون من قوة أثر الخطاب فيهم بمثل هذا الأسلوب . وملاحظة ذلك جوهرية جداً ، لأنها تحول دون التكلّف والتجوّز والتخمين ، **ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنّية** ، في حقائق الكون ونواميسه وأطواره منها ، والتمحّل والتوفيق والتطبيق ، **ممّا يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته**)) .

فالقرآن كتاب دين ـ وكفاه ذلك فخراً ـ لا كتاب علم . ومن انتهاك حرمته ، جعله كتاب علم ، والكلام فيه عن الإعجاز في العلم .

---

(١) **القرآن المجيد** ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

بحث ثان

« العلم » و « أولو العلم » في اصطلاح القرآن

إن القرآن يأخذ اسم «العلم» وفعل «علم» ومشتقاتهما ، أحيانا بحسب حرف اللغة ؛ ولكن أحياناً بحسب **اصطلاح خاص** يتّضح من القرائن . وهذا الاصطلاح الخاص هو الذي غفل عنه القوم في صلة «العلم» والذي يعلمون بالقرآن ؛ وبنوا عليه نظريات لا أساس لها في القرآن .

إن الاصطلاح «**أولي العلم**» مرادف لأهل الكتاب الذين كانوا يسمّون المشركين الذين لا كتاب لهم ، وليس عندهم «**العلم**» **المنزل** : «الذين لا يعلمون» ، فهم أهل **الجهل والجاهلية**، لا بالعلم المعروف والمعارف البشرية ، بل بالعلم المنزل في الكتاب .

في خطاب بولس الرسول في جامعة أثينا يقول : «ولقد أغضى الله عن **أزمنة الجاهلية** وها هو الآن ينذر جميع الناس ، في كل مكان ، أن يتوبوا ؛ لأنه قد حدّد يوماً سيدين فيه المسكونه بالعدل ، بذلك الإنسان الذي عيّنه ، مقدّماً للجميع ضمانة بإقامته من بين الأموات» (سفر الاعمال ١٧:٣٠ ـ ٣١) .

وانتقل تعبير «**الجاهلية**» الى القرآن ومنه إلى الأدب العربي : «يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» (آل عمران ١٥٤) ؛ «أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» (المائدة ٥٠) ؛ «وقرْنَ في بيونكن ، ولا تبرّجْن **تبرّج الجاهلية الأولى**» (الأحزاب ٣٣) ؛ «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية» (الفتح ٢٦) . فهو يقرن **الكفر بالجاهلية** . ويقابل بين أهل الكتاب «الذين يعلمون» ، **والمشركين** «**الذين لا يعلمون**» : « وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ! وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ! **وهم يتلون الكتاب** ، كذلك قال **الذين لا يعلمون** مثل قولهم ... وقال **الذين لا يعلمون**: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ؟ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم: تشابهت قلوبهم»! (البقرة ١١٣ و١١٨) . فالنص صريح بأن «الذين لا يعلمون» كناية عن المشركين ؛ وبالعكس «فالذين يعلمون» أو « أولو العلم» كناية عن أهل الكتاب ، كما جاء في

الآية : « **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (الزمر ٩) . وهو اصطلاح قرآني للمقابلة بين أهل الكتاب « الذين يعلمون » والمشركين « الذين لا يعلمون » .

والقرآن يستشهد « بالذين يعلمون » ، ويستعلي على المشركين بهؤلاء « العلماء » بكتاب الله ، كما في قوله : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » (فاطر ٢٨) أي « **مَن عنده علم الكتاب** » (الرعد ٤٣) .

هل كان في الحجاز قبل الإسلام علماء بالطبيعيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية، حتى يخاطبهم القرآن ويستشهد بهم، ويستعلي بهم، ويكون معهم « أمة واحدة » في الدعوة القرآنية ؟

إن « **الذين أوتوا العلم** » في اصطلاحه المتواتر كناية عن أهل الكتاب ، كما في قوله : « قلْ : آمنوا به أو لا تؤمنوا ؛ إن الذين أوتوا العلم **من قبله** ، إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجّدًا » (الإسراء ١٠٧) . فالعلم على الإطلاق ، العلم المنزل ، هو عند أهل الكتاب ؛ ومعهم في القرآن ، الذي « هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت ٤٩) . لذلك « يرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد » (سبأ ٦) . فالقرآن يستشهد **بطائفة قائمة** على صحة تنزيل القرآن ودعوته .

والقرآن يقسم أولي العلم الى طائفتين : اليهود أولي العلم **الظالمين** ، والنصارى من بني إسرائيل أولي العلم **المقسطين** أو **المحسنين** . وقد تأتي صفتهم صراحةً أو ضمناً في القرائن اللفظية أو المعنوية . والتقسيم والصفة ظاهران في قوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ـ **إلاّ الذين ظلموا منهم** » (العنكبوت ٤٦) .

قبل الإنجيل ، « الذين أوتوا العلم » هم أهل الكتاب على العموم : « إن قارون كان من قوم موسى ... وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير » (القصص ٧٦ و٨٠) . وظلوا بعد الإنجيل حتى القرآن كذلك على العموم ، كما في قوله بحق اليهود : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك ، قالوا **للذين أُوتوا العلم** ماذا قال آنفاً » (محمد ١٦) . **ولكن تعبير « أولي العلم » يخصّه بالنصارى من بني إسرائيل** الذين هم « أمة واحدة » مع محمد . إنه يميّزهم ، في خطاب إلقاء الشيطان في الوحي ، من « الذين في قلوبهم مرض (المنافقين) والقاسية قلوبهم (المشركين) ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد (اليهود) . وليعلم

الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ، فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا (جماعة محمد من العرب) الى صراط مستقيم» (الحج ٥٣ ـ ٥٤) . فهؤلاء «الذين أوتوا العلم» ، النصارى من بني إسرائيل ، هم الذين يشهدون للقرآن ، ويستشهد بهم النبي على الدوام : « وقال الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قل : كفى بالله شهيداً **ومَن عنده علم الكتاب**» (الرعد ٤٣) . وشهادتهم تدوم الى يوم الدين : «ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول : أين شركائي الذين كنتم تشاقّون فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم : إنّ الخزي اليوم والسوء على الكافرين» (النحل ٢٧) . فتعبير « الذين أوتوا العلم» أو «أولي العلم» عند الثناء والاستشهاد ، هو مخصوص بالنصارى من بني إسرائيل .

وقد يقترن التعبير **بصفة تميّزهم عن اليهود** ، أولي العلم الذين «اختلفوا من بعد ما جاءَهم العلم ، بغياً بينهم» ـ بالمسيح ثم بمحمد . فهم **أهل العلم والإيمان** : «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان (للمجرمين) : لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنّكم كنتم لا تعلمون» (الروم ٥٦) . وهم **الراسخون في العلم** : «لكن الراسخون في العلم منهم (من أهل الكتاب) **والمؤمنون** يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك» (النساء ١٦٢) . وهؤلاء « الراسخون في العلم» يؤمنون بالقرآن ، ويؤمنون بالمتشابه فيه كما بالمحكم : «**والراسخون في العلم** يقولون : آمنا به ، كلٌ من عند ربنا» (آل عمران ٧) . فهو يضع في منزلة واحدة ، كأمة واحدة ، «الذين آمنوا» من العرب ، «والذين أوتوا العلم» كقوله : «**يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم ، درجات**» (المجادلة ١١) ؛ لاحظ التمييز والعطف والجمع ، فهم **أمة واحدة** (الأنبياء ٩٢ ؛ المؤمنون ٥٢) .

وهم خصوصا أولو العلم المقسطون الذين يشهدون مع الله والملائكة ـ والقرآن يدعو بشهادتهم ـ أن الدين عند الله الإسلام : «شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ـ لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ـ أن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب (اليهود) إلاّ من بعد ما جاءَهم **العلم** بغياً بينهم» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . لذلك فاليهود الذين كانوا «يقتلون النبيّين بغير حق ، **ويقتلون الذين يأمرون الناس بالقسط** : فبشرهم بعذاب أليم» (٢١) .

وهذا هو القول الفصل ، في هذا الفصل : إن «أولي العلم قائماً بالقسط» هم النصارى من بني إسرائيل . وهم يدعون الى الإسلام قبل محمد (الحج ٧٨) ، **والقرآن يدعو**

بدعوتهم الى الإسلام ، ويشهد بشهادتهم ((أن الدين عند الله الإسلام)) . هذا هو ((علم)) القرآن كله.

والنتيجة الثانية أن ((**العلم**)) في القرآن هو **العلم المنزل على الإطلاق ، والعلم ((النصراني)) على التخصيص** الذي جاءَ به المسيح في الإنجيل ، فاختلف فيه اليهود من أهل الكتاب : ((**وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءَهم العلم**)) (٣:١٩ ؛ ٤٢:١٤ ؛ ٤٥:١٧) . وهذا ((العلم)) الإنجيلي ((النصراني)) هو الذي وصل الى محمد في القرآن : ((بعد الذي جاءَك من العلم)) (البقرة ١٢٠) ، ((من بعد ما جاءَك من العلم)) (البقرة ١٤٥ ؛ آل عمران ٦١) ، ((بعد ما جاءَك من العلم)) (الرعد ٣٧) .

وبعلم الإنجيل ، وهدى الكتاب يجادل القرآن المشركين : ((ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)) (لقمان ٢٠ ؛ الحج ٨) . أما محمد فهو يجادل في الله بعلم وهدى الكتاب المنير ، ويتحداهم بالكتاب والعلم المنزل : ((قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السماوات ؟ ائتوني **بكتاب من قبل هذا ، أو إثارة من علم** ، إن كنتم صادقين)) (الأحقاف ٤) . **فالعلم الحق هو العلم المنزل في الإنجيل ، وينادي به النصارى من بني إسرائيل** .

وهكذا ، ففي اصطلاح القرآن ، إن ((العلم)) الذي ينادي به هو **علم الكتاب** ، ((**ومَن عنده علم الكتاب**)) (الرعد ٤٣) . فليس القرآن اذن **معجزة في علم المعارف البشرية** . وليست هي من مقاصد القرآن . إنهم يقولون بمعجزة لا أساس لها في القرآن .

والإِعجاز في ((العلم)) الذي يتحدّى به القرآن **هو الإِعجاز في ((علم الكتاب))** الذي هو مع ((مَن عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٣) ، مع ((الراسخين في العلم)) (آل عمران ٧ ؛ النساء ١٦٢) مع ((الذين أوتوا العلم **من قبله**)) (الإسراء ١٠٧) ، مع ((الذين أوتوا العلم والإيمان)) (الروم ٥٦) ؛ يقول : ((فبهداهم اقتدِ)) (الأنعام ٩٠) ، ((وأُمرتُ أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن)) معهم . (النمل ٩١ ـ ٩٢) .

إن الإِعجاز في العلم هو إِعجاز ((علم الكتاب)) .

بحث ثالث

« الكونيّات » القرآنية من متشابه القرآن

لقد ثبت لنا ، في البحث السابق ، أن الإعجاز القرآني في « العلم » **مردود شكلاً ولفظاً،** لأن « العلم » الذي يذكر ، ويتحدّى به ، هو علم « أولي العلم » ، وهم في اصطلاحه المتواتر النصارى من بني إسرائيل .

ونقول أيضاً : إن الإعجاز القرآني في « العلم » **مردود أيضاً موضوعاً** لأن « الكونيات » القرآنية هي من متشابه القرآن، فلا تصح معجزة للتحدّي. وكون هذه « الكونيات » أو العلوم الكونية في القرآن ، هي من متشابه القرآن ، **أنّ أحداً لم يذكرها في المحكم منه** . قال السيوطي في (الإتقان ٢:٢) : «وقد اختلف في المحكم والمتشابه : «عن ابن عباس ، قال: المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه ؛ **ما يؤمن به ويعمل به** . والمتشابهات منسوخه ، ومقدمه ومؤخره ، وأمثاله ، وأقسامه : ما يؤمَن به ولا يُعمل به . وقيل : المحكم الفرائض والوعد والوعيد . والمتشابه القصص والأمثال . وعن مجاهد : المحكمات ما فيه الحلال والحرام . وما سوى ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضا . وعن الربيع : المحكمات هي أوامره الزاجرة » . وهكذا فالمحكمات من آيات القرآن هي **الأحكام المحكمة في شريعته** . وبما أن « الكونيات » القرآنية أي العلوم الكونية فيه ، ليست من شريعته ولا من أحكامها المحكمة ، ولا من محكم التنزيل فيه ، **بل من متشابه القرآن** ، فلا يصح التحدي بها كعلم منزل في القرآن .

والتحدّي بها قد يرتد على القرآن نفسه : فإن تصوير الأرض مركزاً للكون وجعل الأرض بساطاً ، بحسب نظرية الأقدمين التي جاءَ عليها القرآن ، يُخرجه من دائرة العلم المعروف . «وأن ما ورد في القرآن من **مشاهد الكون ونواميسه** قد استهدف العظة والتدعيم، دون أن ينطوي **على قصد** تعزيز ماهية الكون وأطوار الخلق والتكوين **ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية** ... وملاحظة ذلك جوهرية جداً ، لأنها تحول دون التكلّف والتجوز والتخمين ، **ومحاولة استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون ونواميسه وأطواره منها** ، والتمحّل والتوفيق والتطبيق ، **ممّا يخرج بالقرآن عن نطاق قدسيته** » [1] .

---

(١) دروزة: **القرآن المجيد** ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

فليس في «الكونيات» القرآنية من نظريات علمية وفنية يصح القول بها . فلا يجوز بحالٍ التحدي بإعجاز العلم في القرآن ، **لأنه ليس من أغراضه ، ولا من أعراضه** .

بحث رابع

«العلم» الوحيد في القرآن هو «علم الكتاب»

ظل القرآن يستشهد طول العهد بمكّة بمن عنده علم الكتاب : «ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً ! ـ قلْ : كفى بالله شهيداً **ومَن عنده علم الكتاب**» (الرعد ٤٣) . فهو يكتفي بالشهادة على صحة رسالته وصحة دعوته بشهادة مَن عنده علم الكتاب ؛ لذلك يسميهم «**أولي العلم**» فهم أهل «العلم» من دون العالمين. وهم «الذين أوتوا العلم **من قبله**» (الإسراء ١٠٧): «فالعلم» على الإطلاق هو علمهم ـ لاحظ التعريف والإطلاق في تعبيره : «العلم» . فهذا هو «**العلم**» **الوحيد** الذي يذكره القرآن ، وبه يستشهد ، وبه يتحدى : «قلْ : آمنوا به أو لا تؤمنوا: إن الذين أوتوا العلم من قبله ، إذا يُتلى عليهم ، يخرّون للأذقان سجداً» (الإسراء ١٠٧) . فيكفيه إيمانهم وتكفيه شهادتهم .

وشهادتهم للاسلام من شهادة الله وملائكته ، والقرآن كله يشهد بشهادتهم «أن الدين عند الله الإسلام» ؛ بهذه الشهادة هم «أولو العلم قائماً بالقسط» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . وفي هذه الشهادة **علم القرآن كله ، وسرّ القرآن كله** . فالإسلام الذي ينادي به القرآن هو اسلام «أولي العلم من قبله» (الحج ٧٨) ؛ وهو العلم الوحيد الذي يتحدى القرآن بإعجازه ؛ إنه علم «مَن عنده علم الكتاب» في الإسلام ، علم «الراسخين في العلم» (آل عمران ٧ ؛ النساء ١٦٢) . إن علم القرآن علمهم ؛ واسلام القرآن اسلامهم ؛ وإعجاز القرآن في العلم والإسلام هو إعجازهم : «قلْ : كفى بالله شهيداً ومَن عنده علم الكتاب» (الرعد ٤٣) .

هذا هو **العلم الوحيد** الذي جاءَ محمداً في القرآن : ((بعد الذي جاءَك من العلم)) (البقرة ١٢٠) ، ((من بعد ما جاءَك من العلم)) (البقرة ١٤٥ ؛ آل عمران ٦١) . وهذا هو ((العلم)) الإنجيلي ، ((النصراني)) ، الذي اختلف فيه اليهود من أهل الكتاب ، مع المسيح ثم مع محمد : ((وما اختلفوا إلاّ من بعدما جاءَهم العلم)) (١٩:٣ ؛ ١٤:٤٢ ؛ ١٧:٤٥) . وبهذا ((العلم)) المنزل الإنجيلي ((النصراني)) يجادل القرآن اليهود ثم المشركين الذين يجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (لقمان ٢٠ ؛ الحج ٨) . **فالإسلام هو علْم القرآن كله** ، وهذا الإسلام من علْم الكتاب ، ((ومَن عنده علم الكتاب)) (الرعد ٤٣) . لذلك **يخص القرآن اسم ((المسلمين))** بأولي العلم المقسطين وحدهم . والقرآن نفسه ((هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم)) (العنكبوت ٤٩) ؛ ((يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم)) معرفة مصدرية (البقرة ١٤٦ ؛ الأنعام ٢٠) .

فالعلم الوحيد في القرآن **هو علم الكتاب ، وأهله ((من عنده علم الكتاب))** .

خاتمة

((وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً)) (الإسراء ٨٥)

وهكذا فالعلم ، في لغة القرآن ، اصطلاح مقصور على أهله ، ((أولي العلم)) ، ((الراسخين في العلم)) . ومصدر هذا ((العلم)) هو هدى الكتاب الإمام ، و ((علم الكتاب المنير)) فلا يرى القرآن خارج التنزيل في الكتاب ((علماً)) . و ((علم)) القرآن من ((علم الكتاب)) ، بشهادة ((مَن عنده علم الكتاب)) لكنه في نقل هذا ((العلم)) الى العرب ، ((ما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً)) . وهذا ((العلم القليل)) القرآني الكتابي هو كل إعجازه في العلم . ولا إعجاز عنده في ((العلم)) سواه .

الجزء الرابع

الإعجاز في التاريخ
القصص القرآني

« نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن »
(يوسف ٣)

« فاقصص القصص ، لعلّهم يتفكّرون » (الأعراف ١٧٦)

« لقد كان في قصصهم (الرسل) عبرة لأولي الألباب .
ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل
شيء » (يوسف ١١١)

توطئة

خطورة موضوع التاريخ في الإعجاز القرآني

إن القصص هواية عربية فطرية .

«كان للعرب قصص . وهو باب كبير من أبواب أدبهم . **وفيه دلالة كبيرة على عقليتهم** . وهذا القصص في الجاهلية أنواع ... وهناك نوع من قصص العرب أخذوه من أمم أخرى وصاغوه في قالب يتّفق وذوقهم »[1] .

---

(١) أحمد أمين : **فجر الإسلام** ـ طبعة سادسة ص ٦٦ ـ ٦٨.

فلم يخلق القرآن فنّ القصص ، لكنه جعله ناحية من نواحي الدعوة فيه . ومتى عرفنا أن القصص القرآني يشمل نحو **ثلثي القرآن** ، أدركنا خطورة موضوعه في الإعجاز القرآني . وإذا أضفنا الى القصص الأمثال ، وهي نوع آخر منه ، وأخبار اليوم الأول في الخلق ، وأخبار اليوم الآخر في السعة ويوم الدين ووصف الجنة والنار ، **كان موضوع التاريخ القرآن كله تقريباً** .

والقرآن نفسه يقرّ بذلك : «نحن نقصّ عليك أحسن القصص ، بما أوحينا إليك هذا القرآن» (يوسف ٣) . والشعب لا يرى في القرآن سوى قصص : «واذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ ـ قالوا : أساطير الأولين» (النحل ٢٤) . وظلوا على هذا الموقف العنيد منذ السورة الأولى (القلم ١٥) ، حتى حكم السيف فيهم في بدر ، أول نصر (الأنفال ٣١) . ويرى القرآن في نفسه «أحسن القصص» (يوسف ٣) ؛ وكانوا هم يرون فيه «أساطير الأولين» : «ما هذا إلاّ أساطير الأولين» (الأحقاف ١٧) في **موضوعه وأسلوبه** ، «حتى إذا جاؤوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا : إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين» (الأنعام ٢٥) .

لذلك ، إذا كان في إعجاز القرآن معجزة له ، **يجب أن تكون أولاً في قصصه** . فهل في القصص القرآني إعجاز ومعجزة ؟

بحث أول

موضوع القصص القرآني وهدفه

يأتي القصص القرآني **كبرهان للتوحيد والنبوّة** ، من تاريخ البشرية ، بعد الاستشهاد بمشاهد الخليقة التي تشهد لخالقها : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق» (فصلت ٥٣) .

أولاً : هدفه تثبيت النبي وذكرى للعرب

ففي نظرية القرآن يُوجَز تاريخ البشرية بسيرة النبوّة مع أقوامها ، كأنه صراع متواتر بين الإيمان والكفر . ويرمي القرآن ، من وصف هذا الصراع الديني ، الى غايتين: الأولى « **لنثبّت به فؤادك** » (٢٥:٣٢ ؛ ١١:١٢٠) ؛ الثانية اتعاظ أهل مكّة بمثل الماضين : «**فاقصص**

القصص لعلّهم يتفكرون » (الأعراف ١٧٦) ؛ « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » (غافر ٢١ و٨١) ؛ « انظرْ كيف كان عاقبة المنذَرين » (الصافات ٧٣)؛ « انظر كيف كان عاقبة المكذبين » (الزخرف ٢٥) .

فهدف القصص القرآني المزدوج يدل على أنه **ليس في إعجازه معجزة له** : فغايته الأولى تثبيت فؤاد النبي في أزماته النفسية والإيمانية التي تملأ القرآن المكي ؛ فلو كان في إعجاز القصص معجزة لكان ثبت فؤاد محمد منذ القصة الأولى . والواقع القرآني يشهد بأن أزمات الإيمان ظلت تساور محمداً ، وهو يتلو القصص القرآني بتواتر . فحتى أواخر العهد المكي يُقال له : « **فإن كنت في شك ممّا أنزلنا إليك** ، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : لقد جاءَك الحق من ربك ، فلا تكوننَّ من الممترين ! ولا تكوننَّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » ! (يونس ٩٤ ـ ٩٥) . والواقع القرآني يشهد أيضاً بأن **إعجاز القرآن في قصصه لم يكن معجزة لهم** ، فقد ظلوا طول العهد بمكّة ، قبل إحكام آية السيف فيهم بالمدينة ، « اذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ ـ قالوا : أساطير الأولين » ! (النحل ٢٤) . ويتهمونه في مصدر تنزيله وقصصه : « قال الذين كفروا : انْ هذا إلاّ إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ! وقالوا : **أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً !** ـ قلْ : أنزله الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » (الفرقان ٤ ـ ٦) . وكانت هذه مقالتهم طول العهد بمكّة **جملة** (٢٥:٦ ؛ ٨٣:٢٣ ؛ ٦٨:٢٧) **وأفراداً** (٥:٢٥ ؛ ٢٤:١٦) ، حتى بعد نصر بدر بآية السيف (الأنفال ٣١) . فكان هذا موقفهم من إعجاز القصص القرآني : « واذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ! **لو نشاء لقلنا مثل هذا !** إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين » (الأنفال ٣١) . فلم يرَ المخاطَبون بإعجاز القصص القرآني معجزة له ، **موضوعاً** : « إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ؛ **وأسلوباً** : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ! ونلاحظ أن القرآن لا يردّ تحدّيهم الأخير هذا .

ثانياً : موضوع القصص القرآني محدود ومكرّر

والظاهرة الكبرى في القصص القرآني هي **التكرار** . قال سيد قطب [1] : « نشأ عن خضوع القصة في القرآن لأغراضه أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين الى الإيمان الواحد ، والانسانية المكذّبة بهذا الدين الواحد ، **مرّات متعدّدة** بتعدّد هذه الأغراض ؛

---

(١) **التصوير الفني في القرآن** ص ١٤١ ـ ١٥٦.

وأن يُنشئ هذا **ظاهرة التكرار** في بعض المواضع ، ولكنّ هذا أنشأ جمالاً فنّياً من ناحية أخرى. فهذه قصة إبراهيم ترد في حوالي **عشرين موضعاً** . وقصة موسى ترد **أكثر من ذلك** ؛ وهذه قصة عيسى ، ابن مريم ، ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع ؛ وقصة سليمان في ثلاثة مواضع . ويأتي هذا التكرار بخصائص فنّية ، منها تنوّع طريقة العرض ، وتنوّع طريقة المفاجأة ، وتنوّع التصوير في التعبير)) .

ولكن هذا التنوّع في التعبير ، **لا يمنع التكرار في التفكير** ، وهو موضوع الوحي والتنزيل ، كما لاحظوا ذلك قديماً وحديثاً .

في البيان والبديع يسمّى التفنّن أو التنوّع في التعبير عن المعنى الواحد والموضوع الواحد **بالاقتدار** : ((الاقتدار هو أن يُبرز المتكلم **المعنى الواحد في عدّة صور** اقتداراً منه على نظم الكلام ، وتركيبه على صياغة قوالب المعاني والأغراض . فتارة يأتي في لفظ الاستعارة، وتارة في صور الأرداف ، وحيناً في مخرج الايجاز ، ومرة في قالب الحقيقة . قال ابن أبي الاصبع : **وعلى هذا أتت جميع قصص القرآن ؛ فإنك ترى القصة التي لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة** ، وقوالب من ألفاظ متعدّدة حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه ، ولا بدَّ أن تجد الفرق ظاهراً)) [1] . فموضوع القصة الواحدة في القرآن ((**لا تختلف معانيها**)) . والذي يهمنا في كلام الله ما يريده منه أي موضوع كلامه ، والموضوع واحد يتكرّر ، مع تنوّع في التعبير بعض الشيء ، مثل قصة آدم وابليس : ((وقد أورد القرآن قصة آدم وابليس **سبع مرات** ، ستاً منها في سور مكية ، وهي الأعراف (١٩ ـ ٢٧) والحجر (٢٨ ـ ٤٠) والإسراء (٦١ ـ ٦٥) والكهف (٥٠) وطه (١١٦ ـ ١٢٣) وصاد (٧١ ـ ٨٥) ؛ وواحدة في البقرة (٣٤ ـ ٣٨) . والقصة كما يُفهم من سياقها في كل مرة قد استهدفت العظة والتمثيل والتنبيه ، كما أنها تنوّعت في أسلوبها ومحتوياتها **بعض الشيء ، وهو شأن القصص القرآنية المتكررة بصورة عامة كما لا يخفى**)) [2] .

---

(١) السيوطي : **الإتقان** ٢:٨٨
(٢) دروزة : **عصر النبي وبيئته** ص ٢٩٠.

ثالثاً : القرآن بين الدين والفنّ

قيل : **إن معجزة القرآن أن يجمع الدين والفن** في حرفه ، بلفظه ونظمه . وهل يهمّنا الإعجاز بالفن في أمور الدين ؟ ننسى أن القرآن هو كتاب دين ، قبل أن يكون كتاب فن ؛ وأن ما يهم البشرية في كلام الله هو الدين لا الفن . قيل : ان القرآن «يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنّية» . [1] ـ فهل الله في كلامه مع البشر خطيب مثلهم يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني فيهم ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . إنما يتنازل الله ويكلّم الناس ليعلّمهم حقيقة سره وغاية أمره ؛ ويهمه كما يهمنا أولاً حقيقة الدين ، لا إعجاز الفنّ . وجعل الإعجاز البياني والفني من مقاصد الله في كلامه **هو قلب للمفاهيم وهو جعل العَرَض مكان الجوهر** . وهب أن ميزة القرآن على كل تنزيل هو في إعجاز الحرف مع إعجاز المعنى ، ومعجزة العرض مع معجزة الجوهر ، لتكون معجزته منه وفيه ؛ فإن **معجزة لغوية بيانية فنيّة** ، هي للخاصة من العرب ، لا للعامة منهم ، فكيف بعامة البشر ! فيفوت على الله الغاية الأولى من تنزيله وكلامه ، لو كان الإعجاز في نظم القرآن مقصده ومعجزته . وحاشا لله أن يخاطب عامة العرب والبشر بمعجزة لا يفقهونها ! «ما لا يمكن الوقوف عليه لا يُتصوَّرالتحدي به» [2] .

إن التحدي بحرف التنزيل هو معجزة عند البعض ، لا عند سائر الناس . وما نراه في القرآن وقصصه إعجازاً واقتداراً ، يراه سائر الناس في كل آدابهم عجزاً وافتقاراً ، كلّما زاد تكراراً .

فالقصص القرآني ، وهو أكثر القرآن ، مع ما فيه من إعجاز بياني ، هل هو معجزة في هدفه وموضوعه ؟

---

(١) سيد قطب : **التصوير الفني في القرآن** ص ١٤١.
(٢) **الإتقان** ١١٧:٢.

بحث ثان

هل القصص القرآني للتاريخ أم للتمثيل ؟

والمشكل الأكبر في القصص القرآني ، هل هو للتاريخ أم تمثيلي ؟

أوّلاً : واقع مزدوج

إن القصص القرآني هو برهان النبوّة والتوحيد من تاريخ البشرية مع الأنبياء والرسل: **فالعظة منه في الواقع التاريخي** ، لا في التمثيل البياني ، كالإنجيل في أمثاله . واذا سلبنا القصص القرآني واقعيته التاريخية ، سلبناه استشهاده بتاريخ النبوّة والبشرية على صحة نبوته وتنزيله .

هذا هو موقف أهل السنة والجماعة . لذلك لمّا حاول السيد محمد أحمد خلف الله سنة ١٩٤٧ في كتابه (الفن القصصي في القرآن الكريم) أن يخرج على هذا الاجماع ، «للوصول الى قاعدة أو نظرية يمكن تطبيقها من **حل المشكلات ، وردّ الاعتراضات ، والخروج بالقصص القرآني من دائرة المتشابه**» (ص ٢٦٠) أفتى علماء الأزهر الشريف بتكفير الكتاب وصاحبه [١] .

والواقع القرآني يشهد بالتمثيل في تاريخيته : «وكلاّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك ، وجاءَك في هذه الحق وموعظة وذكرى» (هود ١٢٠) . فهو يقص «الحق» في «أنباء الرسل» ، وان كان الهدف الموعظة والذكرى . فالعبرة عنده بالتاريخ للتمثيل: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» (يوسف ١١١) . والقول الفصل : «إن الحكمُ إلاّ لله ، **يقص الحق** ، وهو خير الفاصلين» (الأنعام ٥٧) . فلا يضرب القرآن أمثالاً في قصصه ، إنما «يقصّ الحق» التاريخي .

---

(١) تجد قصة التكفير في مجلة **الرسالة** عدد ٧٤٢ ص ١٠٣٤ ؛ و ٧٤٦ ص ١١٦٤ ؛ و ٧٤٩ ص ١٢٣٤.

ثانياً : الشبهات الناجمة عن هذا الواقع المزدوج

لكن ، على **تاريخية القصص القرآني** ، **شبهات** حملت المدرسة العصرية على القول بالتمثيل في القصص القرآني ، أكثر منه بالتاريخ .

الشبهة الأولى أن قصص القرآن أكثره توراتي ، لكنه يختلف أحياناً عمّا في التوراة . ومن السخف ضرب الكتاب بعضه ببعض . فما سبب الفوارق القصصية ما بين القرآن والكتاب ؟ يقول دروزة [1] : ((القصص القرآني ، منه ما كان عربياً غير توراتي كقصص هود وعاد ، وصالح وثمود ومدين ؛ ومنه ما كان توراتياً كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون مع بني إسرائيل ، وداود وسليمان ويوسف الخ ... وما ورد خصوصاً في القرآن ولم يرد في التوراة من **قصص إبراهيم** ﷺ مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه ، وهي في سور (الأنعام وابرهيم والأنبياء والشعراء والصافات والزخرف والعنكبوت) . وعدم ورودها في التوراة ، ممّا يسوّغ القول أنها كانت متداولاً معروفاً في أوساط العرب كمرويات ومنقولات عربية عن الآباء الى الأبناء)) .

أجل ، كانت متداولة معروفة في أوساط العرب ، لكن ليس ((كمرويات ومنقولات عربية عن الآباء الى الأبناء)) - بل عن أهل الكتاب من يهود ونصارى إسرائيليين ، الذين كانوا **يروونها عن حرف التلمود** أكثر منه عن حرف الكتاب . وهذا ما فات الأستاذ دروزة وأمثاله . فما انفرد به قصص إبراهيم ((مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه)) عن التوراة ، قد ورد مثله في التلمود . لذلك جاء القصص القرآني **ابن بيئته** الكتابية العربية ، **أقرب الى التلمود منه الى الكتاب** .

وهذا المصدر الشعبي للقصص القرآني يحمل معه **شبهة أخرى** : بعد قصة نوح الشهيرة يقول : ((**تلك من أنباء الغيب** نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك **من قبل هذا** ، فاصبر إن العاقبة للمتقين)) (هود ٤٩) . وبعد قصة يوسف الشهيرة يقول : ((**ذلك من أنباء الغيب** نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)) (يوسف ١٠٢) . وبعد قصة مريم ، في آل عمران ، وقد طبّقت آفاق الجزيرة ، من ألوف النصارى والمسيحيين،

---

(١) **سيرة الرسول** ١:٢٠٤.

يقول : «**ذلك من أنباء الغيب** نوحيه إليك . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون» (٤٤) . فكيف يقول بأنها «من أنباء الغيب نوحيه إليك» ؟ وقد كانت متداولة بينهم من التوراة والإنجيل، ومن التلمود والأناجيل المنحولة . وكيف يقول: «ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» القرآن ؟ إنه **إشكال ضخم** كما يقول دروزة [١] : «إن في الآيات الثلاث اشكالاً يدعو الى الحيرة ، ولا يُستطاع النفوذ الى الحكمة الربانية فيه نفوذاً تاماً» .

أجل ، من يعتبر القرآن ، لفهم خاطئ في بعض تعبيره ، منزلاً من لوح محفوظ في السماء ، لا يستطيع النفوذ الى الحكمة الربانية في تلك الآيات المتشابهات . أمّا مَن يعتبر القرآن «**تفصيل الكتاب**» على حدّ تعبيره (يونس ٣٧) ، كما فصّله أيضاً التلمود وبعض الاناجيل المنحولة ، فيعرف أنه «من أنباء الغيب» المنزل في الكتاب ، عند أهل الكتاب ؛ وما كان محمد ، ولا قومه من قبله ، يعرفونه ، قبل تفصيل أهل الكتاب له فيما بينهم ، كما يصرّح بذلك في قوله : «ولقد آتينا موسى الكتاب : **فلا تكن في مرية من لقائه !** وجعلناه هدى لبني إسرائيل (من يهود ونصارى) . **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا**» (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) . فما على محمد أن يشك في لقاء الكتاب بواسطة أئمته الذين يهدون محمداً اليه بأمر الله . فالقرآن يتلو «أنباء الغيب» المنزل في الكتاب من قبله ؛ لكنه يفصّلها على حسب هدى أئمة الكتاب الذين يفصلون التوراة والإنجيل بحسب التلمود والاناجيل المنحولة التي لديهم . ولا ننس القول الفصل : «**وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله**» (الأحقاف ١٠) .

وهناك شبهتان أخريان تشكلان مشكلتين . يقول أيضاً دروزة [٢] : «وقد بقيت **مسألتان قد تبدوان مشكلتين** . **أولاًهما** ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحاً في جزئيات وقائعه ، وحقائق حدوثه . **وثانيتهما** ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبي أو أمّة ، **من بضع الخلاف** ، مثل وصف عصا موسى بالحية في سورة ، وبالثعبان في سورة أخرى ، ومثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون ، من قتل الأنبياء

---

(١) **القرآن المجيد** ص ١٧٠.
(٢) **القرآن المجيد** ص ١٨٤.

واستحياء النساء ، حيث ذُكر هذا الوقت في سورة أنه قبل بعثة موسى ، وفي سورة أنه بعد بعثة موسى . فنحن كمسلمين نقول أن **كل ما احتواه القرآن حق** وواجب الإيمان ، وإنّا آمنا به «كلٌ من عند ربنا» . كما إننا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه **استهدف** العظة والتذكير فحسب (لا التاريخ) ، وهما لا يتحقّقان إلاّ فيما هو معروف ومسلّم به إجمالا من السامع ، وان هذا أيضاً من الحق الذي انطوى فيه حكم التنزيل ؛ وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحد الذي استهدفه القرآن ، وعدم الاستغراق في ماهياتها على غير طائل ولا ضرورة ، لأنها ليست ممّا يتصل بالأهداف والأسس» .

تجاه تلك الشبهات ، أخرجت المدرسة الحديثة في تفسير القرآن ، منذ الامام محمد عبده ، القصص القرآني **من دائرة التاريخ الى دائرة التمثيل** . نقل صاحب المنار [1] نظرية إمام المدرسة الحديثة ، بمناسبة أسطورة هاروت وماروت التي وردت في (البقرة ١٠٢) ؛ فيقول محمد عبده كما نقل رشيد رضا : «بيّنا غير مرة أن القصص جاءَت في القرآن لأجل **الموعظة والاعتبار ، لا لبيان التاريخ** ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الاخبار عن الغابرين . وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار. **فحكاية القرآن لا تعدو موضوع العبرة**» .

فالقصص القرآني لم يرد لذاته التاريخية ، والبحث العلمي ، بل للموعظة والعبرة. «وهذه الملاحظة مهمة وجوهرية جداً ، لأن من شأنها أن تحول دون استغراق الناظر في القرآن في **ماهيات ووقائع** ما احتوته القصص **التي لم تُقصد لذاتها** ؛ وأن تغنيه عن التكلّف والتجوّز في التخريج والتأويل والتوفيق ، أو الحيرة والتساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع؛ وأن تجعله يُبقي القرآن في نطاق قدسيته من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة ، **ولا يخرج به الى ساحة البحث العلمي** ، وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل والتخطئة والتشكيك ، على غير طائل ولا ضرورة» [2] . فليس في القرآن تاريخ مقصود لذاته ، ولا بحث علمي في تاريخ الأنبياء . فالقصص القرآني ، ليس

---

(١) **تفسير المنار** ١:٣٩٩.
(٢) دروزة : **القرآن المجيد** ص ١٦٨.

للتاريخ ، بل للتمثيل والعبرة ، كما يقول أيضاً السيد محمد خلف الله [1] : «وفي الجملة ، إن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والمرسلين أو الأقوام ، **لا يشاكل الواقع** ، وإنما يمشي على وتيرة واحدة ... **والحوار فيه إنما يمثّل أكثر من كل شيء الدعوة الإسلامية ونفسية محمد** ﷺ . فالقصص القرآني ، في موضوعه كما في أسلوبه ، لا يشاكل الواقع والتاريخ ، بل يمثل الدعوة الإسلامية ونفسية محمد ، في أسلوب بياني قصصي .

والعبرة في الواقع التاريخي ، لا في التمثيل البياني ، حين الاستشهاد على صحة النبوّة والدعوة بتاريخ الأنبياء وسيرتهم بين أقوامهم . فهل القصص القرآني من الإِعجاز في التاريخ ؟

بحث ثالث

القصص القرآني من متشابه القرآن

إن النتيجة الحاسمة التي وصلوا اليها ، تجاه الشبهات على تاريخية القصص القرآني ، أنه من متشابه القرآن . فقد أجمع «**أئمة الدين والتفسير ، منذ الصحابة ، على اعتبار القصص القرآني من المتشابه فيه**» [2] .

وهذا ما يبيّنه السيوطي في (الإتقان ٢:٢) عند استجماع أقوالهم في المحكم والمتشابه منه . قال : «المحكم لا تتوقف معرفته على البيان ، **والمتشابه لا يُرجى بيانه** . وقد اختُلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال ... قيل المحكم ما لم تتكرر ألفاظه ، ومقابله المتشابه . وقيل المحكم الفرائض والوعد والوعيد ، **والمتشابه القصص والأمثال** ... وعن ابن عباس قال المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه ، ما يؤمن به ويعمل به ؛

---

(١) **الفن القصصي في القرآن الكريم** ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.
(٢) محمد خلف الله : **الفن القصصي في القرآن الكريم** ص ٨ و ٢٦٢.

والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره ، **وأمثاله وأقسامه** . ما يؤمَن به ولا يُعمل به . وعن مجاهد قال : **المحكمات ما فيه الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه متشابه يصدّق بعضه بعضاً** . وعن الربيع قال : المحكمات هي أوامره الزاجرة)) .

فالاجماع أن المحكم من القرآن هو فقط أحكامه ، وما سوى ذلك فهو من متشابه القرآن ((الذي لا يُرجى بيانه)) ، ((ما استأثر الله بعلمه)) .

فقصص القرآن من المتشابه فيه . وأمثال القرآن من المتشابه فيه . وأخبار الملائكة والجن من المتشابه فيه .

ومشاهد الكون ونواميسه من المتشابه فيه . قال دروزة [1] : ((وبتعبير آخر : (إن ما ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه) وقد استهدف العظة والإرشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون أن ينطوي على قصد تقرير **ماهيات الكون وأطوار الخلق والتكوين ، ونواميس الوجود ، من الناحية العلمية والفنية**)) .

ومشاهد الحياة الأخروية وصورها من المتشابه فيه . وهذه الملاحظة ((من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الأخروية وصورها ، والتورط والتكلّف والتزيّد في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق لذاتها ، ويذكر أن هدف القرآن في ما جاءَ من التعابير والأوصاف هو العظة والتنبيه وإيقاظ الضمائر ... ويتذكر أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيّبتان لا يُستطاع فهم شيء عنهما إلاّ بالأوصاف الدنيوية ، وأن حكمة الله اقتضت وصفهما بهذه الأوصاف على سبيل **التقريب والتشبيه**)) [2] .

وأوصاف ذات الله في القرآن من المتشابه فيه . ((إن ما ورد في القرآن ممّا يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجئ، وفوق وتحت وأمام ، وطي وقبض ونفخ ، إنما جاء بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءَ بها من **قبيل التقريب لأذهان السامعين** ... حيث يصح أن يقال : إن ورودها في القرآن كذلك على سبيل **التقريب والتشبيه**)) [3] .

---

(١) **القرآن المجيد** ص ١٩٠.
(٢) **القرآن المجيد** ص ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٣) **القرآن المجيد** ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

وبكلمة موجزة : إن القرآن يدعو الى الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ «أما ما عدا ذلك ممّا احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد والترهيب والترغيب والتنديد والجدل والحجاج والأخذ والرد ، والتذكير والبرهنة والإلزام ، ولفت النظر الى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته ، ومخلوقاته الخفية والعلنية ـ فهو وسائل تدعيمية وتأييدية الى تلك الأسس والأهداف وبسبيلها» [1] .

فإذا كان القرآن كله ، ما عدا أحكامه التشريعية ، من المتشابه فيه ، فكيف يكون قصصه ، وأمثاله ، وأخباره عن الخلق ، وأخباره عن اليوم الآخر، من الإِعجاز في التاريخ ؟ والإِعجاز في النبوّة ؟

---

(١) **القرآن المجيد** ص ١٦٠.

خاتمة

قصصه تصديق وتفصيل

الواقع المشهود في القرآن أن قصصه العربي قليل ، من أساطير الأولين ؛ وقصصه الآخر كتابي ، على رواية التلمود . وفي مطلع سورة يوسف صفة القصص القرآني : «نحن نقص عليك **أحسن القصص** بما أوحينا إليك هذا القرآن» (٣) . ومثاله قصة يوسف . وهي مشهورة في الكتاب . لذلك يعتبر القرآن نفسه أنه «ما كان حديث يُفترى ، ولكن **تصديق** الذي بين يديه (قبله) **وتفصيل** كل شيء» ، كما يقول في ختامها (١١١) . ونعرف أن «التفصيل» في اصطلاحه يعني التعريب (حم فصّلت ٤٤) . فإذا كان أحسن القصص عنده تصديقاً وتفصيلاً للقصص الكتابي ، فهل في ذلك إِعجاز في التاريخ ؟

القسم الثاني

إعجاز القرآن

هل يعتبر القرآن إعجازه معجزة له ؟

[Plank Page]

تمهيد

١ ـ الإعجاز بديل المعجزة ، أي المعجزة اللغوية

في القسم الأول ثبت لنا ، بعد الاستقراء والتحليل ، فراغ القرآن من كل أنواع المعجزة . وهذا ما اضطر أهل القرآن للتكلّم عن معجزة أخرى ، أسموها «**إعجاز القرآن**» ؛ واعتبار هذا الإعجاز «**معجزة القرآن**» ؛ لأن المعجزة دليل النبوّة الأوحد ، في اعتقاد أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل القرآن . وهكذا قام الإعجاز بديل المعجزة .

فنادى القوم قديماً وحديثاً بأن **القرآن وحده معجزة محمد** . وقد نقلنا حكم شيخ أهل الإعجاز قديماً ، الباقلاني : «ان نبوّة النبي صلعم معجزتها القرآن» وأضاف : «وذلك أنه احتجّ عليهم بنفس هذا التنزيل ، ولم يذكر حجة غيره» (ص ١٦) . فتنافسوا في بيان إعجاز القرآن ، حتى ختم ابن خلدون مقالتهم جميعا بقوله : «إن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها القرآن ، لاجتماع الدليل المدلول عليه» (المقدمة السادسة) . وهذا حكم شيخ أهل السيرة حديثا، حسين هيكل : «**لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة** أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلاّ القرآن» (حياة محمد) . فالاجماع قائم في الأمة أنه «لم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة» ، وأن القرآن وحده معجزة محمد ، بإعجاز لفظه ونظمه ، أي أنه «**المعجزة اللغوية**» التي تشهد بصحة النبوّة وصحة التنزيل .

ونحن نعلن : **لا جدال في إعجاز القرآن** . إنما الجدل ، كل الجدل ، **في اعتبار إعجاز القرآن معجزة له** . والسؤال الواجب أولاً ، هل يعتبر القرآن نفسه إعجازه معجزة له ؟ ثم هل اتفق القوم على «وجه الإعجاز» لاعتباره معجزة ؟ يقول عبد الكريم الخطيب [١] :

---

(١) عبد الكريم الخطيب : **إعجاز القرآن** ٢:٥٥٥ ـ ٥٥٦.

«وانما الأمر الذي يحتاج الى بحث ونظر ، بل الى كثير من البحث والنظر ، هو دلائل الإعجاز ووجوهه ؛ حيث أن الأمر لا يقع موقع المشاهدة والحس ؛ **وانما هو حقيقة مضمرة في كلمات القرآن وآياته** . والكشف عنها ليس ممّا يتيسّر لكل طالب ... من أجل هذا ذهب الناس مذاهب شتى في وجوه الإعجاز» . فليس الإعجاز معجزة ظاهرة لكل ذي بصيرة وبصر . وهذا الاختلاف القائم الدائم في «دلائل الإعجاز ووجوهه» هو البرهان القاطع على أن إعجاز القرآن ليس بمعجزة له . جاء في (الإتقان ٢:١١٧) للسيوطي : «ما لا يمكن الوقوف عليه ، لا يُتصوّر التحدي له» فلا يقوم الإعجاز مقام المعجزة دليلاً على النبوّة والتنزيل .

٢ - «القرآن المصفىّ»

ولصحة الحكم في إعجاز القرآن ، في النظم والبيان ، كان لا بدَّ من وجود القرآن كما نزل على النبي . لكن القرآن مرّ بتصفيتين ، قبل أن يصلنا بحرفه العثماني والحجّاجي .

١) التصفية الأولى على يد محمد نفسه ، في عرْضات القرآن السنوية . جاءَ في (الإتقان ١:٥١) : «أخرج ابن اشته ، عن ابن سيرين ، قال : كان جبريل يعارض النبي ﷺ كل **سنة** في شهر رمضان مرة . فلما كان العام الذي قُبض فيه **عارضه** مرتين . فيرون أن تكون **قراءَتنا على العرضة الأخيرة** . وقال البغوي في (شرح السُنّة) : يقال إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي بيّن فيها **ما نُسخ وما بقي** ... ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه ، وولاّه عثمان كتابة المصاحف ... ذكر ابن جرير (الطبري) : لا شك أن القرآن **نُسخ منه في العرضة الأخيرة** - بالفعل المبني للمجهول - فاتفق رأي الصحابة على أن كتبوا ما تحققوا أنه قرآن مستقر في العرضة الأخيرة ، **وتركوا ما سوى ذلك**» . وفي موضع آخر: «والمعتمد أن جبريل كان يعارضه في رمضان بما ينزل به طول السنة» (الإتقان ١:٤١) .

ما هذه القصة في عرْضات القرآن السنوية ؟ والقرآن تنزيل في روع النبي ، فكيف «شهد زيد بن ثابت العرضة الأخيرة» ؟ حديث وضعوه يصف **تنقيح النبي للقرآن كل سنة** . ويدور هذا التنقيح النبوي على تصفية المنسوخ منه في بحر السنة . و «القرآن المصفّى» نفسه يشهد «بالمحو» و «التبديل» واقعين فيه (النحل ١٠١) .

مع هذه التصفيات النبوية السنوية ، كان القرآن يُقرأ على عهد النبي نفسه ((**على سبعة أحرف**)) ـ والعدد للرمز لا للحصر ـ ((**باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني**)) ، كما نقل الطبري. لذلك ما كان التنقيح النبوي السنوي ليأتي على ((اختلاف الألفاظ)) في ((الأحرف السبعة)) . وبعد وفاة محمد ، ظل هذا الاختلاف في أحرف القرآن قائماً .

٢) التصفية الثانية على يد عثمان به عفان والصحابة

في صدر الإسلام انشغل القوم بحروب الردة في الداخل ، ثم بالفتوحات في الخارج . فتحولت الرخصة النبوية بقراءَة القرآن على سبعة أحرف ، والرخصة بقراءته بلغات العرب كلها ، والرخصة بقراءَته أحياناً بالمعنى من دون الحرف ، الى فوضى أفزعت القوم من ضياع القرآن ، فلجأوا الى وضع ((إمام مبين)) . فكانت التصفية الثانية ، بأمر عثمان والصحابة ، على يد اللجان المتعدّدة . فأتلف الأحرف الستة ، ليسلم الحرف العثماني الموحد.

جاء في (الإتقان ١:١٨٦) : عن ابن اشته : ((فهذا الخبر يدل على أن القوم كانوا **يتخيّرون أجمع الحروف للمعاني ، وأسلسها على الألسنة ، وأقربها في المأخذ ، وأشهرها عند العرب** ، للكتاب في المصاحف)) .

وقد شملت التصفية العثمانية أموراً كثيرة .

لقد اسقط عثمان ستة أحرف ، كما ينقل الطبري ، ليسلم الحرف ((العثماني)) وحده . فهل كان عثمان والصحابة ولجانهم معصومين ليختاروا النص الصحيح ؟ وقد مرت بنا الشهادة في حقيقة تصفيتهم لنص القرآن : ((**إن القوم كانوا يتخيرون**)) !

وفي الحرف المختار المصفّى **أسقطوا كثيراً من المنسوخ** ، الذي كان يحتفظ به علي بن أبي طالب في مصحفه ، كما يقولون .

وأسقطوا كذلك بعض القرآن من التلاوة ، حتى ((**ذهب منه قرآن كثير**)) كما نُقل . وقد قيل أيضاً : ((**غيّر عثمان المصاحف**)) !

ومن التصفية العثمانية ، ما ورد على لسان الامام علي : ((ما في قريش أحد إلاّ وقد نزلت فيه آية)) (الإتقان ٢:١٥١) : فأين هذا كله ؟

وجعل عثمان **ترتيب التلاوة على غير ترتيب النزول** ، واعتمد مبدأ الطول في الترتيب ، فتداخلت السور المكية بالمدنية ، والآيات المدنية بالمكية ، وضاع الترتيب التاريخي في الآيات وفي السور ، وهو أساس لصحة الحكم بالإِعجاز في القرآن وتطور البيان .

مع ذلك بقي في الحرف العثماني ما بقي . نقل الرازي : ((روي عن عثمان وعائشة أنهما قالا : **إن في المصحف لَحَنا ، وستقيمه العرب بألسنتها**))!

وهكذا ، بعد التصفية النبوية ، وبعد التصفية العثمانية ، لم يبق للحكم في إِعجاز القرآن إلاّ ((**القرآن المصفّى**)) الذي أقامته العرب بألسنتها ، قبل جمعه وتدوينه ، على نص واحد ، ولغة واحدة . مع ذلك لم يسلم من ((**اختلاف القراءات**)) حتى اليوم .

فهذا ((القرآن المصفّى)) هو ((**القرآن المصطفى**)) بواسطة اللجان العثمانية : فهل يصح منه حكم شامل كامل في إِعجاز القرآن ؟ وهل الإِعجاز الباقي هو للحرف المنزل ، ام للحرف المصفى ؟

مع كل تلك الشبهات القائمة على صحة حرف القرآن ، ما زلنا نقول **بصحته الجوهرية** ، التي نحتكم اليها في قيام الإِعجاز بديل المعجزة ، وفي صحة اعتبار إِعجاز القرآن معجزة له .

الفصل الأوّل

أسس اعتبار الإعجاز معجزة

توطئة

أسس اعتبار الإعجاز معجزة غير متينة

واقعان قائمان في القرآن : فراغه من معجزة تشهد له ، بتصريحه عن محمد ان المعجزة منعت عنه منعاً قاطعاً ، في المبدإ وفي الواقع ؛ وقوله بإعجاز فيه يتحدى به المشركين . وبما أن واقع امتناع المعجزة ثابت ، فما معنى تحديه بإعجازه ؟ سنراه في الفصل التالي . لكن بما أن القرآن يشهد بامتناع المعجزة على محمد ، فلا يصح مبدئياً بحال من الأحوال اعتبار إعجازه معجزة له .

مع ذلك فقد حاول القوم منذ ألف سنة اعتبار الإعجاز معجزة . فباءَت هذه المحاولات الألفية بالفشل ، حتى اضطر أهل عصرنا أن يتبرّأوا من حجّية المعجزة لصحة النبوّة ، ضاربين عرض الحائط بضرورة المعجزة لصحة النبوّة بحسب أهل «الكتب السماوية» أجمعين .

فبنوا قولهم بالإعجاز على «**أمية محمد**» . وهذا موقف **مغالطة قرآنية** مشهود . فتعبير «النبي الأمّي» (الأعراف ١٥٧) اصطلاح قرآني ، أخذوه على حرفه ولغته .

شك بعضهم بهذا الأساس المشبوه ، فقالوا : القرآن كلام الله ، فهو معجز بذاته للمخلوق . فوقعوا في **مغالطة منطقية** مكشوفة ، إذ أقاموا المدلول عليه مقام الدليل .

وفتش الجميع عن **وجه الإعجاز** في القرآن ، فاختلفوا فيه ، وما زالوا مختلفين . واختلاف الأمة في «دلائل الإعجاز ووجوهه» برهان قاطع على أنه أساس مشبوه .

ونحن ندرس الآن في أبحاث ثلاثة هذه الأسس لاعتبار الإعجاز معجزة : «أمية» محمد ؛ القرآن كلام الله ، فهو معجز بذاته وجه الإعجاز في القرآن مختَلَفٌ فيه .

بحث أول

«أمّيّة» محمّد . وهي الأساس الأوّل للإعجاز

محمد درس وتعلّم

١) وليقولوا : درست (١٠٥:٦) درس محمد كما درس أهل الكتاب

٢) المشركون ما درسوا : كتاب فيه تدرسون (٣٧:٦٨) ؛ من كتب يدرسونها (٤٤:٣٤) ؛ كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦:٦) .

٣) أهل الكتاب يدرسون الكتاب وبما كنتم تدرسون (٧٩:٣) ؛ «ودرسوا ما فيه» (١٦٩:٧).

محمد تعلم الكتاب والحكمة ، وهو يعلم الكتاب والحكمة

محمد تعلم الكتاب والحكمة مثل عيسى (٤٨:٣) ؛ عليك الكتاب والحكمة (١١٣:٤) ؛ علمتك الكتاب والحكمة (١١٠:٥) ؛ آل إبراهيم الكتاب والحكمة (٥٤:٤)

١) آتيناهم الكتاب والحكم (لفظ عبراني) (٨٩:٦) ؛ آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة (١٦:٤٥) ؛ أتيتكم من كتاب وحكمة (٨١:٣) من الكتاب والحكمة (٢٣١:٢) .

٢) أدع الى سبيل ربك بالحكمة (١٢٥:١٦) ؛ أوحى إليك ربك من الحكمة (٣٩:١٧)؛ من آيات الله والحكمة (٣٤:٣٣) .

٣) ويعلمهم الكتاب والحكمة (١٦٤:٣ ؛ ٢:٦٢) ؛ ويعلمكم الكتاب والحكمة (١٥١:٢)؛ من الآيات والذكر الحكيم (٥٨:٣) ؛ تلك آيات الكتاب الحكيم (١:١٠ ؛ ٢:٣١) ؛ والقرآن الحكيم (١:٣٦) .

محمد تعلّم التأويل

ويعلمك من تأويل (٦:١٢) ؛ ولنعلمه من تأويل (٢١:١٢) ؛ وعلمتني من تأويل (١٠١:١٢) ؛ هل ينظرون إلاّ تأويله ؛ **يوم يأتي تأويله** (٥٣:٧) ؛ وابتغاء تأويله ؛ **وما يعلم تأويله إلا الله** (٧:٣) .

إن الأساس الأول للقول بإعجاز القرآن معجزة هو «أمية» محمد .

وقد عبّر الدكتور أحمد أحمد بدوي [1] عن مقالة الجميع في قوله : «وممّا أكّده القرآن من صفات محمد **الأمّية** ، يصفه بها في قوله : «قلْ : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السماوات والأرض ، لا إله إلاّ هو يُحيي ويميت . فآمن بالله ورسوله ، **النبي الأمّي** ، الذي يؤمن بالله وكلماته (كلمته) واتبعوه لعلكم تهتدون» . ويبيّن حكمة اختياره . «أمّيّاً» في قوله : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطّه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون» . **واذا كانت الأمّية ممّا يُعاب ، فهي المعجزة** بين رسالة النبي والشكّ فيها . **ولو أنه كان يقرأ ويكتب لكان للمبطلين مجال للريب في صدْق رسالته**» .

أولاً : اصطلاح «الأمّي» في القرآن

تُنْسَخ «أمّيّة» محمد على هذه الصفة القرآنية : «**النبي الأمّي**» ، على أساس اللغة ، لا بحسب الاصطلاح القرآني المتواتر .

١ ـ كان أهل الكتاب يقسمون الناس الى **كتابيّين وأمّيين** أي الأمم الذين لا كتابَ منزلاً لهم ؛ وكانوا يقولون : «ليس علينا في الأميّين سبيل» (آل عمران ٧٥) . فقسمهم

---

(١) **من بلاغة القرآن** ، ص ٢٧١.

القرآن في الجزيرة مثلهم : ((وقلْ للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا)) (آل عمران ٢٠) . **فالعرب المشركون كلهم أمّيون** لأنهم ليسوا من أهل الكتاب ، ولا كتاب منزلاً لهم .

٢ ـ ومحمد هو ((أمّي)) لأنه من العرب الأميّين ، غير الكتابيين : ((هو الذي بعث **في الأميّين رسولاً منهم** ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإنْ كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) (الجمعة ٢) . فهذه الآية تقطع بأن ((**الأمي**)) **اصطلاح قرآني يعني** ((**العربي** الذي ليس له كتاب منزل)) . فمحمد هو ((**النبي الأمّي**)) (الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨) أي **النبي العربي** ، لأنه من العرب الأميّين واليهم . وليس في التعبير **أدنى معنى للأمية اللغوية** في العلم والمعرفة والثقافة والدرس والتدريس . قال الأستاذ دروزة [١] : ((تكرر وصف النبي ﷺ بالأمي؛ وهو الوصف الذي جاءَ في القرآن لغير الكتابي، أو للعرب لأنهم غير كتابيّن)) .

فالواقع القرآني كله يشهد بأن ((النبي الأمّي)) اصطلاح قرآني ؛ ولا يرد في القرآن كله تعبير ((الأمي)) **لغةً** إلاّ في موضع واحد بحق بعض الكتابيين من اليهود : ((ومنهم أمّيون ، لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني ، وإنْ هم إلاّ يظنون)) (البقرة ٧٨) . فالاستناد الى القرآن نفسه في تعبيره ((النبي الأمّي)) للقول بأمية محمد هو إفتراء على القرآن .

ومحمد هو ((النبي الأمّي)) لأنه قبل الأمر اليه في رؤيا غار حرّاء : ((وأمرتُ أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن)) (النمل ٩١ ـ ٩٢) ـ حيثُ أمر أن ينضم الى المسلمين الموجودين بمكّة من قبله وأن يتلو معهم ((القرآن)) الذي يتلون ـ ((ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون)) (العنكبوت ٤٨) . فالآية لا تشهد **بأمية محمد المطلقة** بل بأمية محمد **بالنسبة الى الكتاب المقدس** ، ((القرآن)) على الإطلاق ، قبل مبعثه وهدايته الى الإيمان به : ((وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : **ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ؛ ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ، وإنك لتُهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله)) (الشورى ٥٢ ـ ٥٣) . فمحمد قبل هدايته الى الإيمان بالكتاب المقدس، ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان ! وما كان يتلوه ولا يخطه بيمنه

---

(١) **سيرة الرسول** ١٦:١ و ٤٥.

مثل أهل الكتاب . لكنه لمّا أُمر بالانضمام إلى الكتابيين المسلمين من قبله ، وبتلاوة قرآن الكتاب معهم ، أخذ يتلو الكتاب ، وربما يخطه بيمنه مثلهم ومعهم ، «فدرس» ، «وعلمهم الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل .

فلما «درس» محمد الكتاب (الأنعام ١٠٥) تعلّم «القرآن» أي الكتاب وتعلّم البيان ، كما في قوله : «الرحمان علّم القرآن خلق الانسان علّمه البيان» . فالإنسان كناية هنا عن محمّد ، وينسب تعلم البيان الى الرحمان كما ينسب الى الكاتب بالعدل «أن يكتب كما علمه الله» (البقرة ٢٨٢) .

ثانياً : شهادة القرآن بثقافة محمّد

١ ـ إن أول آية نزلت من القرآن العربي تشهد بأن محمداً كان يقرأ ويكتب :

«إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق
إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم
علّم الإنسان ما لم يعلم»
(العلق ١ ـ ٥)

إن الوحي يأمره بأن يقرأ ما يُعرض أمامه : وهذا عبث إلهي ـ استغفر الله ـ إذا لم يكن محمد قارئاً . وقوله : «علّم بالقلم» شاهد على أن محمداً تعلّم بالكتابة ، فكان يكتب . وقوله لمحمد «علَّم» يدل على أنه تعلّم فكان عالماً . فالآية الأولى تشهد بثقافة محمد وعلمه .

ويأتي الحديث الصحيح في رواية غار حرّاء يروي أن ما عُرض عليه في غار حرّاء للقراءة كان «**درجًا مكتوباً**» أُمر ثلاث مرات بقراءَته فقرأه .

٢ ـ وفي السورة الثانية (القلم) إشارة صريحة الى كتابة الوحي ودراسة الكتاب المقدس ! فهو يستعلي على بني قومه المشركين بقوله : «أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ **أم لكل كتاب فيه تدرسون ؟** ... أم عندهم الغيب فهم يكتبون» (٣٥ ـ ٣٧ مع ٤٧) . محمد وحيد لا جماعة له بعد ، فالمسلمون المذكورون هم الذين أُمر أن ينضمَّ اليهم وأن يتلو القرآن معهم (النمل ٩١ ـ ٩٢) . وهو يستعلي على المشركين المجرمين بانتسابه

إلى أهل الكتاب «المسلمين» أي النصارى من بني إسرائيل ، جماعة ورقة بن نوفل وعداس القسّين في مكّة على النصارى العرب ، والنصارى الأجانب ؛ ويستعلي عليهم بالكتاب الذي يدرسه مع هذه الجماعة ، وبالغيب المنزل فيه ، ومنه يكتب معهم . وهذه شهادة مبكرة جداً وصريحة **بدراسته وثقافته الكتابيتين** . وهي شهادة متواترة : «أم آتيناهم كتاباً ، فهم على بيّنة منه» ؟ (فاطر ٤٠) فهو عنده كتاب ، وهو على بيّنة منه ؛ «وما آتيناهم من كتب يدرسونها» (سبأ ٤٤) ، فهو عنده كتب يدرسها .

٣ ـ لا يكتفي محمّد بدرس الكتاب الإمام ، بل يؤمر بترتيله في قيام الليل :

«يا أيها المزمّل قم الليل إلاّ قليلاً نصفه أو انقصْ منه قليلاً
أو زدْ عليه **ورتّل القرآن ترتيلاً** إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً
(المزمل ١ ـ ٥)

لم ينزل من القرآن العربي بعد سوى عشر آيات في مطلع (العلق والقلم) . ولم يُعرف حتى يُعرّف على الإطلاق : «القرآن» المشهور . فقد اهتدى محمد الى الإيمان بالكتاب (الشورى ٥٢) ؛ وهنا يُؤمر بترتيل قرآن الكتاب : **فالكتاب هو «القرآن» على الإطلاق** . وقيام الليل للصلاة وترتيل آيات الله ليست عادة عربية ، ولا يهودية ، بل نصرانية رهبانية : فمحمد يؤمر بترتيل الكتاب مع جماعة النصارى بمكّة في صلاة الليل ، بعد درسه وكتابة الوحي منه. فقرآن الكتاب هو دراسة محمد ، وصلاته في قيام الليل .

٤ ـ وأهل مكّة يعرفون **أن محمداً يدرس الكتاب ويكتبه** : «وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بُكرَةً وأصيلاً» (الفرقان ٥) . لا يردّ على هذه التهمة ؛ انما يردّ قبل هذه الآية على إفتراء القرآن العربي : «وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلاّ إفك افتراه ! وأعانه عليه قوم آخرون ! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً» (الفرقان ٤) . فمن الظلم والزور أن ينعتوا القرآن العربي «إفكاً افتراه» . لكنه لا يردّ إعانة القوم الآخرين التي يؤكدونها في الآية التالية: «أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً» (الفرقان ٥) . فهذا الاكتتاب لا يمنع تنزيل القرآن : «قلْ : أنزله الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض» (الفرقان ٦) .

فما كان القرآن العربي لينقل تهمة كتابته للكتاب الذي يصفونه «أساطير الأولين» ، لو لم تكن كتابته للكتاب أمراً مشهوداً .

٥ ـ إن محمداً «درس» الكتاب ، كما «يدرسه» أهل الكتاب

يقول : «وكذلك نصرّف الآيات ـ **وليقولوا : درست !** ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون» (الأنعام ١٠٥) . لا يردّ على تهمة الدرس ؛ إنما يبيّن الغاية منها ، وهي تبيان الكتاب الذي يدرس «لقوم يعلمون» . إذا كانوا يعلمون فليسوا بحاجة الى بيان . إنما هو تعبير اصطلاحي كناية عن «أولي العلم» أي النصارى من أهل الكتاب : فقد درس الكتاب ليبيّنه لأهله ، كأنه إمامهم ؛ وليبيّنه أيضاً للعرب الذين غفلوا عن دراسته : «أنْ تقولوا : إنما نزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وإنْ كنّا عن دراستهم لغافلين» (الأنعام ١٥٦) . يظهر محمد كأنه إمام النصارى ، ومعلّم العرب .

وقد «درس» الكتاب كما «يدرسه» أئمته : «ودرسوا ما فيه» (الأعراف ١٦٩) .

٦ ـ والقرآن العربي يكشف عن أئمة الكتاب الذين يدرّسون محمداً : «ولقد آتينا موسى الكتاب : فلا تكن في مرية من لقائه ! وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا** ، لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» (السجدة ٢٣ ـ ٢٤) .

القرآن العربي يقسم بني إسرائيل الى طائفتين : النصارى واليهود (الصف ١٤) . فالنصارى ، في لغة القرآن ، هم حصراً النصارى من بني إسرائيل ، وهو معهم «أمة واحدة» (الأنبياء ٩٢ ؛ المؤمنون ٥٢) . واليهود هم الذين كفروا بالمسيح ، ويكفرون بمحمد ، فليسوا هم أساتذة محمد في علم الكتاب هم علماء النصارى من بني إسرائيل .

٧ ـ وعلماءُ النصارى من بني إسرائيل هم «أولو العلم قائماً بالقسطي» الذين يشهدون مع الله وملائكته «أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) . ويسميهم «الراسخين في العلم» (آل عمران ١٧ ؛ النساء ١٦٢) ، بل «العلماء» على الإطلاق : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (فاطر ٢٨) وكلها اصطلاحات قرآنية يُخطئ من يأخذها على حرف اللغة .

والنبي الأمّي يُؤمن بالله وكلمته بهداية هؤلاء الأئمة النصارى من بني إسرائيل: «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» (الأعراف ١٥٩ قابل ١٨١) لأنهم هم الذين عندهم «علم الكتاب» (الرعد ٤٣) ، والقرآن العربي نفسه «هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم» (العنكبوت ٤٩) .

هؤلاء الأئمة النصارى من بني إسرائيل الذين يعلمون الكتاب والقرآن العربي هم الذين اليهم يحيل محمداً في مشكلاته وشكوكه : ((فإن كنت في شك ممّ أنزلنا إليك فاسأل الذين **يقرأون الكتاب من قبلك** : لقد جاءَك الحق من ربك ، فلا تكوننَّ من الممترين ، ولا تكوننَّ من الذين كذّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين)) (يونس ٩٤ ـ ٩٥) .

فمحمد يقرأ الكتاب على يد أساتذته الذين يقرأون الكتاب من قبله . لذلك فقوله : ((ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ! ـ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين)) (النحل ١٠٣) ، لا ينفي التعلّم والدرس ، إنما ينفي كون القرآن العربي تعليم بشر ، مع كونه ((آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم)) (العنكبوت ٤٩) . أجل ((وإنه لتنزيل رب العالمين ... وإنه لفي زبر الأولين : **أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل**)) النصارى (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧) . فآية محمد أن علماء النصارى من بني إسرائيل يعلمون أن القرآن العربي تنزيل رب العالمين لأنه في زبر الأولين أي ((كتبهم كالتوراة والإنجيل)) (الجلالان) .

٨ ـ ومحمد يستشهد على صحة دعوته ((بمن عنده عِلْم الكتاب)) (الرعد ٤٣) . ويعلم الكتاب يجادل المشركين ويستعلي عليهم : ((ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ، ويتّبع كل شيطان مريد)) (الحج ٣) ، ((ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)) (الحج ٨ ؛ لقمان ٢٠) ـ فمحمد يجادل المشركين بهدى الكتاب المنير والعلم الذي اقتبسه منه ، بتعليم ((من عنده علم الكتاب)) .

٩ ـ فبهذه الثقافة الكتابية التي تعلمها محمد ممن عنده علم الكتاب كان يجادل العرب المشركين ويستعلي عليهم ، لأن له في علم الكتاب سلطاناً مبيناً ليس لهم : ((أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين)) (الصافات ١٥٦ ـ ١٥٧) . لذلك يتحداهم : ((ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين)) (الأحقاف ٤). فهو عنده كتاب من قبل القرآن العربي ، وعنده علْم الكتاب : ((ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة)) (هود ١٧) ، ((ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً)) (الأحقاف ١٢) : فليس في القرآن العربي ، بالنسبة الى الكتاب الإمام ، سوى اللسان العربي المبين .

١٠ـ ان محمداً في القرآن العربي يُؤمر أن يقتدي بهدى أهل ((الكتاب والحكم (الحكمة) والنبوّة)) أي من هم أهل ((الكتاب والحكمة))، التوراة والإنجيل معاً : ((أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة ... أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده)) (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) ـ فثقافة محمد في القرآن العربي كتابية بكل معنى الكلمة ، بل ((نصرانية)) .

١١ـ وما القرآن العربي سوى تفصيل وتصديق للكتاب الإمام (هود ١٧ ؛ الأحقاف ١٢) بين العرب : ((وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ؛ ولكنْ تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه ، من رب العالمين)) (يونس ٣٧) . إن محمداً ، بأمر الله في غار حرّاء ، يفصّل الكتاب للعرب في القرآن العربي . والتفصيل بلغة القرآن يعني الترجمة بلغتنا : ((ولو جعلناه قرآناً أعجمياً ، لقالوا : لولا فُصّلت آياته)) (فصلت ٤٤) . **فالقرآن العربي ترجمة مفصّلة لقرآن الكتاب الذي عند بني إسرائيل النصارى** : ((وقد شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)) (الأحقاف ١٠) . وهذا التفصيل يقتضي العلم الغزير . ولا ننس أن ((التنزيل)) في لغة القرآن تعبير متشابه لا يعرف معناه ومداه إلاّ بالقرائن القرآنية كلها ، ومنها التفصيل والترجمة .

١٢ـ يدل على ذلك صلة القرآن المصدرية بالكتاب الإمام : ((إن هذا (القرآن) لفي الصحف الأولى)) (الأعلى ١٨) ، وإنه في زُبر الأولين ، وإن كان تنزيل رب العالمين: ((وإنه لتنزيل رب العالمين ... وإنه لفي زبر الأولين)) (الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٦) . وهاتان الصفتان للقرآن العربي تدلاّن على أن تنزيل القرآن العربي كان من تنزيل الكتاب الإمام ، فهو تنزيل التنزيل أي تفصيله . ويشهد بذلك أيضاً ، معرفة أولي العلم المقسطين أي النصارى من بني إسرائيل : ((أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)) النصارى (الشعراء ١٩٧) ؛ أنهم يعرفون تفصيل الكتاب في القرآن العربي معرفة الوالد ولده : ((يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم)) (البقرة ١٤٦) ، ((وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم ؛ ومَن بَلَغ ... الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم ـ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)) (الأنعام ١٩ ـ ٢٠) . لذلك ((هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم))، أئمة النصارى (العنكبوت ٤٩) . فهذه الصلة المزدوجة بين القرآن والكتاب ، وبين أهل الكتاب النصارى والقرآن ، حيث هم ((أمة واحدة)) (الأنبياء ٩٢ ؛ المؤمنون ٥٢) يؤمنون أن **التنزيل واحد** ، والاله واحد ،

والإسلام بينهم واحد (العنكبوت ٤٦) ، دليل حاسم على أن القرآن العربي « درس » و « تدريس » للكتاب الإمام .

١٣ـ إن القرآن العربي « درس » و « تدريس » للكتاب الإمام كما يُستدل أيضاً من هذه التصاريح . إن « الحكمة » على التخصيص في لغة القرآن كناية عن الإنجيل : « قال (عيسى): قد جئتكم بالحكمة » (الزخرف ٦٣) ؛ والكتاب كناية عن التوراة والنبيّين ؛ لذلك يقول لعيسى : « وإذ علمتك الكتاب والحكمة ـ والتوراة والإنجيل » (المائدة ١١٠) . والله تعالى قد آتى « آل إبراهيم الكتاب والحكمة » (النساء ٥٤) ؛ « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً » (النساء ١١٣) . **علّمه الكتاب والحكمة ، التوراة والإنجيل** ، بواسطة أولي العلم المقسطين أي علماء النصارى من بني إسرائيل : « فلا تكن في مرية من لقائه ... وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (السجدة ٤٣ ـ ٤٤) فإنّك « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا ، وإنك لتُهدى الى صراط مستقيم » (الشورى ٥٢) . فقد تعلم محمد بواسطتهم الكتاب والحكمة ـ التوراة والإنجيل ، وجعل يعلّمهم للعرب في دعوته : « ويُعلمهم الكتاب والحكمة » (البقرة ١٢٩ ؛ آل عمران ١٦٤ ؛ الجمعة ٢) ، « ويعلمكم الكتاب والحكمة » (الأحزاب ٣٤) .

١٤ـ فالقرآن العربي هو معاً تنزيل وتفصيل ، وتعلّم وتعليم ، لأن العلم لا يمنع التنزيل . فقد أمِرَ **أن يتّبع في دعوته علم أولي العلم** الذين « آتيناهم » الكتاب والحكم [1] والنبوّة ... وآتيناهم بيّنات **من الأمر** . فما اختلفوا إلاّ من بعد ما جاءَهم العلم بيناً بينهم ... ثم جعلناك على شريعة **من الأمر فاتّبعها** ، ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون » أي المشركين (الجاثية ١٦ ـ ١٨) . فهو يميّز بين الذين لا يعلمون ، والذين يعلمون أي أهل الكتاب ، وبين هؤلاء يميز بين الذين اختلفوا لمّا جاءَهم « العلم » الإنجيلي مع المسيح أي اليهود ، وبين النصارى من بني إسرائيل ، « أولي العلم » على التخصيص . فهؤلاء على محمد أن يتّبع طريقتهم في أمر الدين . وعليه أيضاً **أن يقتدي بعلمهم وهداهم** : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة ... أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتدِهْ » (الأنعام ٨٩ ـ ٩٠) .

---

(١) الحكم يعني الحكمة : فقد نقل القرآن العربي تعبيرهم العبري والأرامي بحرفه .

١٥ـ فقد عاش محمد قبل بعثته ، وفي دعوته في بيئة «أولي العلم» . إن «العلم» على التخصيص ، في اصطلاح القرآن ، **هو علم الإنجيل والنصارى من بني إسرائيل** ، هذا «العلم» الذي اختلف فيه اليهود «من بعد ما جاءَهم العلم بغيّاً بينهم» (١٩:٣ ؛ ١٤:٤٢ ؛ ١٧:٤٥) . أما محمد فقد «درس» علم أولي العلم المقسطين (الأنعام ١٠٥) وأخذ يعلم العرب الكتاب والحكمة «بعد الذي جاءَك من العلم» (البقرة ١٢٠) ، «من بعد ما جاءَك من العلم» (البقرة ١٤٥ ؛ آل عمران ٦١) ، «بعد ما جاءَك من العلم» (الرعد ٣٧) . فهو «أمة واحدة» مع «الراسخين في العلم» الذين يشهدون مع الله وملائكته «أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) ويؤمنون على سواء بمحكم القرآن والمتشابه فيه (آل عمران ٧) . **فالقرآن الكتابي آيات بيّنات في صدر محمد ، كما أن القرآن العربي «هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم»** (العنكبوت ٤٩) . لذلك «يرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ، ويهدي الى صراط العزيز الحميد» (سبأ ٦) ، وإن كان «ما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً» (الإسراء ٨٥) . ومحمد يعتزّ دائماً بشهادة «من عنده علم الكتاب» (الرعد ٤٣) ، «الذين أوتوا العلم» (٢٧:١٦ ؛ ٨٠:٢٨ ؛ ٥٦:٣٠) . لذلك أيضاً «يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات» (المجادلة ١١) .

فبيئة محمد قبل بعثته ، وفي دعوته ، هي بيئة «أولي العلم» ؛ وثقافة محمد هي ثقافة «أولي العلم» ؛ وبهذا «العلم» يجادل العرب الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٨:٢٢ ؛ ٢٠:٣١) ، ويشهد لهم في القرآن العربي بشهادة الله وملائكته «وأولي العلم قائماً بالقسط ... أن الدين عند الله الإسلام» (آل عمران ١٨ ـ ١٩) .

١٦ـ والقرآن يشهد أخيراً بأن محمداً تعلّم البيان مع الكتاب . يقول : «الرحمان علم القرآن ، خلق الانسان **علّمه البيان**» (الرحمان ١ ـ ٤) . يقصد «بالانسان» محمداً نفسه لضرورة حمله على «علّم القرآن» ، فهو تخصيص في معرض التعميم . وقوله «علمه البيان» قد يُحمل على «علم القرآن» ؛ لكن يمنع من ذلك ربطه بما قبله مباشرة وهو «خلق الانسان» : فكما أنَّ الخلق بالولادة ليس معجزة ، كذلك تعليم البيان المربوط به ليس عن طريق المعجزة أو عن طريق التنزيل . فالله خلق محمداً وعلمه البيان كسائر أهل البيان ؛ ثم «الرحمان علّم القرآن» . فتعلم البيان لا يقوم على تعلم القرآن ؛ بل هو سابق له مربوط بخلق محمد قبل تنزيل القرآن .

وهكذا فالقرآن يشهد بصراحة أن محمداً «درس» وتعلم «البيان». وهو يدعو أهل مكّة ويجادلهم **بهدى وعلم الكتاب المنير** ، مع «الراسخين في العلم».

وهكذا فجميع القرائن القرآنية الصريحة ـ التي توضح معنى بعض الآيات المتشابهات ـ تشهد شهادة جامعة مانعة **بأن محمداً كان «عالماً» في صحبة «الراسخين في العلم»**.

ثالثاً : شهادة التاريخ بثقافة محمّد الواسعة

إن التفسير الصحيح للقرآن ، والحديث الصحيح ، والتاريخ الصحيح ، كلها تؤيد شهادة القرآن ، بثقافة محمد الكتابية والعامة الواسعة .

١ ـ بيئة النبي والقرآن العلمية والكتابية

علّق الأستاذ دروزة [١] على القرائن القرآنية بقوله : «والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة ، والتاريخ المتّصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن آلافا مؤلفة من العرب كانوا نصارى ، ومنهم البدو ومنهم الحضر ... وفيها دلائل على ما كان عند عرب الحجاز ، **وعرب مكّة خاصة** من إلمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها واشكالات ولادة المسيح ص ونبوته وصلبه ، وما كان فيها من مذاهب وآراء . وطبيعي أن يكون لهذا كله ردّ فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم . ويدل على التأثر بهم بطبيعة الحال . واذا أريد أن يقال إنه لم يكن في بيئة النبي ﷺ الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون له أثر بالغ في العرب ، كالذي يمكن **أن يكون لليهود بسبب كثرتهم** فينبغي أن لا ننسى أنه كان في مكّة من النصارى الذين هم فطنة علم وتعليم ما يكفي لتأثير نابهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي ﷺ والذين حكي القرآن على الأغلب مواقفهم وأقوالهم ؛ وأن مشركي مكّة ذهبوا فيما ذهبوا اليه **أن النبي قد تعلّم وتأثر بهم** (النحل ١٠٣ فرقان ٤) .

«وان لا ننسى تلك **الألوف المؤلفة من متنصرة العرب** الذين كان الحجازيون خاصة يغدون ويروحون اليهم في أسفارهم ورحلاتهم ، ويخالطونهم مخالطة الشقيق ، ويتفاهمون

---

(١) **عصر النبي وبيئته** ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

معهم بلسانهم القومي المشترك . وأن لا ننسى أيضاً أن كثيراً منهم كانوا يشهدون مواسم الحج وأسواقه ، ومنهم مَن كان يبشر ويخطب **كقس بن ساعدة** . وأن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء والأجداد ربطاً وثيقاً تتّصل أواصره وتستمر . وأنه كان كثير من العرب غير النصارى ، وخاصة الحجازيين يصهرون الى عرب النصارى ، وبالعكس ، فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة . وان هذا كله من شأنه أن يُهيئ لعرب الحجاز الفرص الكثيرة الوافية للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر)) .

واستطرد الى **ترجمة التوراة والإنجيل الى العربية** ، فقال : ((إن القرآن يحكي مواقف حجاج ومناظرة دينية بين النبي ﷺ من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى ... والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة ، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن **آلافا مؤلفة من العرب كانوا نصارى ، ومنهم البدو ومنهم الحضر !** واستتباعاً لهذا فإن السائغ أن يقال : إنه لا بد من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والعهد الجديد ، إن لم يكن جميعها قد ترجمت الى العربية قبل الإسلام ، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدوّنة في غمرات الثورات والفتن والحروب . ولعلّ ما في القرآن من أسماء وكلمات معرّبة كثيرة ، ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الأسفار ، ممّا تصح أن تكون قرائن على ذلك . ونرى أن هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات ألوف العرب النصارى ، **وآلاف الرهبان ، والقسيسين العرب ، ومئات الكنائس والأديار العربية**)) .

وصحيح البخاري (١:٢ ـ ٣) ينقل لنا أن العالم النصراني ، ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة ، زوج النبي ، كان في مكّة يترجم التوراة والإنجيل الى العربية ، ويدعو بترجمته الى نصرانيته . وقد حضر محمد هذه الترجمة ، بعد زواجه من خديجة ، ابنة عم ورقة وبإرشاده ، مدة خمسة عشر عاماً مبعثه .

وفيما يخص **النبي محمد مباشرة** يقول الأستاذ دروزة [1] : ((ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا (عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة) أن أهل بيئة النبي ﷺ كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية ، عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة الى البلاد المجاورة . وأن كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسرّبت الى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة ؛ وليس

---

(١) **سيرة الرسول** ١:٣٩ ـ ٤١.

من الطبيعي ، ولا من المعقول أن يبقى **النبي** ﷺ **في عزلة ، أو غفلة عن هذا كله** . حقيقة قد علّم الله النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلاً عنها هو وقومه ، ولكن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلاً عن كل ما حوله من أمور ، وما يدور في بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين ، عرب وغير عرب ، من أنباء وقصص وظروف وحالات : فإن هذا يناقض طبائع الأشياء ... **وفي القرآن إشارات الى أمور كثيرة جداً** مما كان عليه الناس في بيئة النبي ﷺ ودائراً فيها من شؤون وظروف وحالات دينية واجتماعية وأخلاقية ومعاشية ومعارف وأنباء تناولها القرآن بالذكر جدلاً وعظة وتعليماً وتنديداً واصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة . ولو يقول أحد بطبيعة الحال أن هذه الأمور جاءَت في القرآن **جديدة** . أو أن النبي ﷺ كان أو يمكن أن يكون في غفلة أو عزلة عنها قبل بعثته ، وكثير منها متصل بتاريخ وأحوال وتقاليد ظروف عربية وغير عربية . وليس هناك فرق فيما نعتقد ، في المدى ، بين الحالتين » .

وعلى الخصوص يشهد التاريخ والقرآن أن محمداً انخرط قبل بعثته في الحركة الحنيفية ، التي كانوا يسمونها «**ملّة إبراهيم**» : «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين» (النحل ١٢٣) ؛ فاتبعها ودعا اليها وصبغ ملته بصبغتها : «وما جعل عليكم في الدين من حرج ، **ملة أبيكم إبراهيم**» (الحج ٧٨) . قال أيضاً دروزة [1] : «فهذه الآيات وأمثالها تلهم أن **ملّة إبراهيم ص . التوحيدية الحنيفية** كانت ممّا تتداوله الألسن قبل البعثة ، وعنواناً على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته ... والذي نعتقده ، وهو ما وصلنا الى استنتاجه في كتابنا (عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة) ، ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه : **أن النبي** ﷺ **كان من هؤلاء** الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية ، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملّة إبراهيم ص . أو ما ظنوه كذلك أو أخذوا يبحثون عنها ، ولم يعتنقوا اليهودة ولا النصرانية ... **وأنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه** ... وأن اقترانه بالسيدة خديجة ر. ساعده على التفرّغ لاتجاهه وحياته الروحية ، هذه التي كان من مظاهرها تلك **الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية** في رمضان وفي غار حرّاء خاصة... الى أن خصه الله بفضله ، فاصطفاه دون غيره من أهل طبقته لما علم فيه

---

(١) **سيرة الرسول** ١:٣١.

من **مواهب عظمى جعلته أهلاً للرسالة**)) . والحنيفية مثل الإسلام اسمان أشاعهما النصارى في الحجاز لإيلاف أهله .

إن الرياضات النسكية الروحية السنوية عادة رهبانية أخذها الحنفاء عن مرشديهم الرهبان مثل القس ورقة بن نوفل ؛ والإسلام معروف اسماً وموضوعا قبل القرآن : ((هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا)) القرآن (الحج ٧٨) .

وقد تمت هداية محمد وتعليمه ((الكتاب والحكمة)) على مرحلتين : الأولى بمناسبة زواجه من خديجة : ((ألم يجدك يتيما فآوى ! ووجدك ضالاً فهدى ! ووجدك عائلاً فأغنى)) (الضحى ٦ ـ ٨) كان عائلاً فقيراً فاغتنى بزواجه من الشريفة خديجة . وهدايته المذكورة هنا كانت في زواجه ؛ فمن الواضح أنها كانت الى التوحيد الحنيفي النصراني . والهداية الثانية كانت للدعوة الى التوحيد الكتابي على طريقة ورقة بن نوفل في بعثته وفي رؤيا غار حرّاء : ((وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي بن مَن نشاء من عبادنا ، وأنك لتهدى الى صراط مستقيم)) (الشورى ٥٢) فاهتدى وآمن : ((وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب)) (الشورى ١٥) فانضم الى أهل الكتاب المسلمين وتلا قرآن الكتاب معهم : وأمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن)) (النمل ٩١ ـ ٩٢)، وصار معهم ((أمة واحدة)) (الأنبياء ٩٢ المؤمنون ٥٢) .

وعلى هامش انضمام محمد الى الحركة الحنيفية ، ((منذ أن نضج شبابه)) كان له **حلقة رفاق** يجتمع اليهم ويبحثون في الأدب والدين والتوحيد . قال أيضاً الأستاذ دروزة [1] : ((في سورة النحل آية تحكي دعوى بعض الكفّار أن شخصاً أجنبياً معيناً كان يعلّم النبي ، وتردّ هذه الدعوى . وهذه هي الآية (ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ! ـ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) ـ (١٠٣) . والآية تنفي التعليم الذي أراد ناسبوه في ادعائهم جحود نزول الوحي الرباني بالقرآن على النبي ﷺ . غير أنها لا تنفي اتصالاً ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر . والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ما قالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي ﷺ كان يتردّد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكّة، **هو أهل علم وتعليم ديني ، وله وقوف على الكتب الدينية**

---

(١) **سيرة الرسول** ١:٣٦ ـ ٣٧.

السماوية ... وأنه كان يستمع أحياناً الى ما يُقرأ من تلك الكتب . وليس من المستبعد ، إن لم نقل من المرجح ، أن يكون هذا الاتصال قبل البعثة ثم امتد الى ما بعد البعثة .

«وفي سورة الفرقان آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفّار أن النبي ﷺ كان يستعين **في نظم القرآن** «**بقوم آخرين**» كما ترى (وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلاّ إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ») ـ (٤) ـ والآية إنما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفي اتصالاً أو صحبة بين النبي ﷺ وفريق من الناس ، كما أن تعبير «قوم آخرون» ، يلهم أن المنسوب اليهم أكثر من واحد . وبالتالي يسوغ القول إنه غير الشخص الأعجمي المعني في آية النحل (١٠٣) . والذي يتبادر الى الذهن أن الكفّار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه ، مما حكته الآية ، لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي ﷺ **حلقة ، أو رفاق** يجتمعون اليه ويجتمع اليهم ، ويتحدثون في الأمور الدينية . وليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد الى ما بعدها . وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية» .

٢ ـ حاشية محمّد قبل البعثة وبعدها كانت حاشية علم وتوحيد كتابي

قبل البعثة كان محمد حنيفاً يؤمن بالتوحيد ويبحث عنه وفيه مع زملائه . وكان له أيضاً رفقة من أهل الكتاب ومن العرب يجتمعون ويبحثون في الدين والتوحيد .

وبعد البعثة نرى في حاشية محمد جلّة القوم من الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعليّ وكلّهم من أهل العلم والمعرفة بشؤون الدين والدنيا . وخاصته من أهل الكتاب سلمان الفارسي النصراني الخبير بالدين وشؤون الحرب وهو صاحب فكرة الخندق حول المدينة للدفاع عنها ؛ وصهيب الرومي الثري ؛ وبلال الحبشي مؤذن النبي ؛ ثلاثة نصارى من بلاد مختلفة ، ذوي معارف مختلفة ، يحلّون ويرحلون مع محمد ؛ ومعه اثنان من علماء اليهود ، كعب الأحبار وعبد الله بن سلام . فهذه الحاشية الكريمة ، والصحابة اللامعة **دليل بيئة متثقفة في الأدب والدين والكتاب المقدس** ، أكفاء لحمل الدعوة الكتابية مع الداعي الأكبر .

ونقل محمد صبيح [١] أن «الذين كانوا يعرفون القراءَة والكتابة من أصحابه الأُوَل : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير . وقد أحصى كتاب الإسلام والحضارة العربية **اثنين**

---

(١) **عن القرآن** ص ٧٨.

وأربعين كاتباً كانوا يؤلفون الديوان النبوي ... وتقول دائرة المعارف الإسلامية ، نقلاً عن البقلاذري أن **حفصة وأم كلثوم** كانتا تعرفان القراءَة والكتابة ، وأن **عائشة وأم سلمة** كانتا تعرفان القراءَة ولا تعرفان الكتابة ... وعن الأزرقي أن بلداً مثل مكّة كانت تكثر فيه التجارة مع الخارج ، ما كان يمكن أن يخلو من كثيرين يكتبون ويقرأون **: فالتجارة تحتاج الى حساب والحساب يحتاج الى تدوين**)) .

من هذا يتضح أن الأرستقراطية المكية كانت تقرأ وتكتب ، وعلى ثقافة واسعة . ومحمد تربى عند عمه أبي طالب ، الذي ثقّف عليّاً ثقافة عالية ، فكان كاتباً وخطيباً شق (نهج البلاغة) للعرب : أيكون محمد ، وهو أمانة عند عمه ، دون ابن عمه ؟

٣ ـ يدلّنا على ثقافة محمد ظاهرتان أخريان : التجارة والثقافة

أجمعت المصادر أن محمداً تعلم التجارة بين اليمن والشام على يد عمه . ولمّا برع فيها استخدمته السيدة خديجة بنت خويلد في تجارتها ، فأعجبها فعرضت عليه الزواج منها وكان ذلك . ((ثم خرج على تجارة خديجة ، التي كانت قيمتها تعادل قيمة تجارة قريش مجتمعة . أي **إنه كان يخرج على نصف تجارة قريش كلها**)) [١] . تجارة كهذه تحتاج الى الحساب الدقيق ، والحساب الكبير يحتاج الى تدوين . من هذا الوجه ، هذا دليل أول على أن محمداً لم يكن أمّيّا . ومن وجه آخر ، هذه الرحلات المتواصلة الغنية ما بين اليمن والشام ، كانت سبب اتصالات مالية وثقافية نادرة ، سمحت لمحمد الحنيف اللقاء بالمفكرين وعلماء الدين . فكان محمد بعد زواجه **أكبر تاجر دولي في قريش ، وأوسع أهلها ثقافة عربية وأجنبية** .

والظاهرة الثانية **أن محمداً بحكم تجارته كان يعرف لغات أجنبية** ، ويؤثر الاتصال بالأجانب المقيمين في مكّة . قال محمد صبيح [٢] : ((ومن هنا يمكن أن نقرّر أن أهل مكّة عرفوا لغات أجنبية ، الى جانب لغتهم الأصلية ؛ وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التي تنتقل الى مكّة من الأجانب المقيمين بها ، أو تنتقل اليها مكّة في متاجرها . وقد كونت هذه الرحلات وهذه الاتصالات ، الى جانب التأثير اللغوي ثقافة غير هينة ، كما وجدت حركة تدوين وقراءَة ... **ولم يقل أحد إن رسول الله لم يكن يعلم شيئاً من أمر هذه اللغات التي تأثرت بها مكّة ، وأمر هذه الثقافات التي ذابت فيها** .

---

(١) عبد الرزاق نوفل : **محمّد رسولاً نبيّاً** ص ٩٧.
(٢) **عن القرآن** ص ١١٦ ـ ١١٧.

« بل أكثر من هذا ، فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله ، وهو في مكّة بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها ، **وكان يزورهم ويطيل صحبتهم** . فقد روي عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان روميّان **يقرأان كتابا لهما بلسانهما** ، فكان النبي ﷺ يمرّ بهما فيقوم فيسمع منهما . وروي عن ابن اسحاق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة الى سبيعة ـ غلام نصراني يقال له جبر ـ عبد لبعض بني الحضرمي . وعن ابن عباس أن النبي كان يزور ، وهو في مكّة ، **أعجمياً اسمه بلعام** ، وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده . وفي رواية أخرى أن غلاما (كان لحويطب بن عبد العزّى) اسمه عائيش أو يعيش ، وكان صاحب كتّيب ! وقيل هو جبر ، وقيل هما اثنان جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكّة **ويقرأان التوراة والإنجيل : فكان رسول الله اذا مرّ عليهما وقف يسمع ما يقرأان . واذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكّة ، وكان يفهم ما يُتلى عليه** » .

وهكذا كان محمد يعرف اللغة الحميرية والحبشية الشائعة في اليمن ، ويعرف اللغة السريانية لغة سوريا مع الرومية الشائعة فيها ، والفارسية التي تتاجر فيها معها . واستشهاد القرآن بالكتاب وأهله في مكّة ، وجداله لليهود في المدينة ، وتحديهم أن يأتوا بالتوراة فيتلوها أمام الناس ، دليل على اطلاعه على العبرية أيضاً . فقد كان محمد **لغوياً عالميّاً** يعرف الحبشية والحميرية والسريانية والرومية والفارسية والعبرية ، أو يعرف بعضها ويلمّ ببعضها. والقرآن شاهد عدل بما فيه بغير لغة الحجاز من لغات العرب المختلفة ، وبما فيه بغير لغة العرب ، كما جمعها السيوطي في (الإتقان ١:١٣٤ و١٣٦) . « وقد ذكر ابن النقيب في (خصائص القرآن) أن القرآن احتوى جميع لغات العرب ؛ وأنزل فيه **بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير** » [١] . « وقد فهم الصحابة القرآن إجمالاً ، ولكن ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم ، بل أن بعضها لا يزال مستغلقاً علينا الى اليوم على الرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا » [٢] .

فتلك التعابير بغير لغة الحجاز ، أو بغير لغة العرب ؛ سواءٌ دخلت لغة قريش قبل القرآن ، أو أدخل القرآن معظمها في لغته ليبهرهم بإعجازه اللغوي ، إنما هي شواهد قرآنية

---

(١) **عن القرآن** ص ١١٩.
(٢) **عن القرآن** ص ١١٧.

ملموسة ، على سعة علم محمد قبل مبعثه ، وعلى اطلاعه على لغات العرب وعلى لغات أجنبية عديدة .

قال أيضاً الأستاذ دروزة [1] : «في القرآن بعض آيات تذكر أنّ النبي ﷺ كان غافلاً قبل نزول القرآن عليه كما ترى في الآية التالية (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ـ يوسف ٣) . وأن الله قد علمه ما لم يكن يعلم : (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلّمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ـ النساء ١١٣) . وأنه لم يكن يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون ـ العنكبوت ٤٨) وقد سبق هذا للتدليل على عدم وجاهة ارتياب الجاحدين في صحة التنزيل والوحي الرباني . فهذه الآيات وأمثالها قد حملت على ما يبدو بعض علماء المسلمين على نفي **الاكتساب العلمي** عن النبي ﷺ قبل البعثة ، بل على بذل الجهد في هذا النفي وتوكيده ... ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ﷺ قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي . كما أننا لا نرى هذه الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي ﷺ قد **اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغيرها** من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص، ممّا كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك ، كتابيين كانوا أو غير كتابيين : بسبب تلك **الاتصالات** التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية ؛ وبسبب **الرحلات** التي اجمعت الروايات على أن النبي ﷺ قد قام بها ؛ وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تلم إلماماً غير يسير بهذه المعارف ، وكل ما في الأمر أن هذه الآيات هي بسبيل توكيد صحة الوحي الرباني والتنزيل القرآني ؛ **والتنبيه على أن النبي ﷺ لم يكن قد فكّر قبل الوحي والتنزيل بالدعوة** ، أو أمَّل بأن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلاً لوحيه وتنزيله ، ممّا يمكن أن تكون الآيات التالية قد أرادت تقريره ، كما ترى فيها : «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ـ يونس ١٦) ؛ وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربك ـ القصص ٨٦) ؛ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا : ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ـ الشورى ٥٢» .

---

(١) **سيرة الرسول** ١:٣٨ و٤٦.

وأضاف : ((أما الدعوى بأن ما اكتسبه النبي ﷺ من **معارف كثيرة ، كتابية وغير كتابية ، وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية ، تتوقف على معرفة الكتابة والقراءَة** فمنشأها في نظرنا أن الباحثين ينظرون بعين الحاضر وعقله أكثر مما ينظرون بعين زمن مضى منذ أربعة عشر قرناً ، وعقله في بيئة مثل بيئة الحجاز بنوع خاص . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة : فلا مطابع ، ولا مكاتب ، ولا وراقة ، ولا كتب منتشرة متيسرة . وكل ما هناك بعض كتب ورسائل وصحف دينية مكتوبة على الأعم الأغلب بغير اللغة العربية ، وفي نطاق محدود جداً . ومن المعقول جداً **أن يكون الاعتماد في مثل هذه الظروف على الذاكرة الواعية** ؛ وليس بدعاً ولا غريباً **أن يكون السماع والحفظ هما طريق اكتساب المعارف التي اكتسبها النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها** - إن لم يكن اكتساب بالوحي الرباني - ومثل هذا غير نادر الوقوع في كل زمان ومكان في اليوم ، ومن الأولى أن يكون هو الأكثر حدوثاً في عصر النبي ﷺ وبيئته)) .

وأصحاب الشعر الجاهلي ورواته ، وحفظة القرآن نفسه هم خير دليل .

فالتاريخ والتفسير والحديث تؤيّد تلقينات القرآن وتصاريحه بأن محمداً لم يكن على شيء من الأمية . فليست الأمية التي ينسبها القرآن إلى محمد لغوية علمية ، بل قومية بحسب اصطلاح الكتاب والقرآن . لم يكن من أهل الكتاب ، بل عربيّاً من الأمم التي ليس لها الكتاب المنزل .

٤ ـ دور ورقة بن نوفل في ثقافة محمد ودعوته

والسر الخطير في ثقافة محمد ودعوته هو وجود العالم النصراني ورقة بن نوفل ، ابن عم السيدة خديجة ، واستاذ محمد الأكبر . كان ولي خديجة وهو الذي أزوجها محمداً لِمَا توسَّم فيه من المزايا التي تجعله أهلاً للرسالة التي يقوم بها في مكّة والحجاز . كان يترجم التوراة والإنجيل الى العربية ، ويدعو بترجمته الى التوحيد الكتابي النصراني .

وقصة علاقة محمد بورقة بواسطة خديجة ينقلها صحيح البخاري (١:٢ ـ ٣) وصحيح مسلم ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للمسعودي ، وغيرهم .

تاجر محمد لخديجة ثم تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي ابنة أربعين . وعاش محمد ، صهر ورقة ، في جوار العالم النصراني وصحبته خمسة عشر عاماً قبل بعثته. يطّلع

أثناءَها على ما يترجم ورقة الى العربية من التوراة والإنجيل . وكان محمد ذاته يفهم لغتهما . وكم من أحاديث عن التوحيد الكتابي والنصرانية ، وقصص الأنبياء ، كانت تدور بينهما وتلك **العشرة الكريمة العلمية** هي التي أوصلت محمداً من التوحيد الحنيفي الى التوحيد الكتابي النصراني الذي اعتنقه في رؤيا غار حرّاء: «وأمرتُ أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن» (النمل ٩١ ـ ٩٢) . «قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب» (الشورى ١٥) .

ودليل على صلة محمد الدينية العلمية بورقة بن نوفل ، ما رواه البخاري من نزع السيدة خديجة بالفطرة الى ابن عمها العالم الفقيه ، اذ رجع محمد مضطرباً بعد رؤيا حراء ، تروي له ما جرى لزوجها الكريم ، ثم كيف قادت محمداً الى ورقة يقص عليه قصته . «فقال له ورقة : هذا هو الناموس الذي نزل على موسى » ! ثم ثبّته في هدايته ، وحمله على الدعوة لها في لقاء ثانٍ في فناء الكعبة . وأكبر دليل على ذلك ما تختم به عائشة حديثها عن تلك الصلة الكريمة : «**ثم لم ينشب أن توفي ورقة وفتر الوحي**»! فما سرّ علاقة فتور الوحي بوفاة ورقة؟ أليس أنه من بواعثه ؟ ويذكر الحديث أن محمداً حزن لوفاة ورقة حزناً بليغاً أوصله الى القنوط واليأس ، حتى لقد همّ مراراً بالانتحار ، لولا أن تداركه الله ، وعاد اليه وحيه . ألا يدل هذا الهوس على أن محمداً كان يعتبر ورقة استاذه الأكبر ؟ أجل إن شيئاً من سر محمد في ثقافته وهدايته وبعثته ودعوته قائم على وجوده في جوار ورقة أستاذه في التوراة والإنجيل . وكان ورقة قسّ مكّة ، بلغة السريان ، أو أسقفها ومطرانها بلغة الروم .

وهكذا يظهر محمد قبل بعثته : تاجراً دولياً ما بين اليمن والشام وما اليهما ، **عالماً لغويّاً** بلغات العرب ولغات الأجانب في أطراف الجزيرة العربيّة ، **حنيفاً وبحاثة دينيًّا** يجوب البلاد في سبيل التجارة والعلم والدين ، **مطلعاً على التوراة والإنجيل** ، ينتسب إليهما ، ويفهم لغتهما ويسمع قراءَتهما بارتياح .

فالثقافة لا تمنع النبوّة . ولكن ثقافة محمد العالية تقضي على أساس عميق من أسس معجزة الإعجاز : أمية محمد . فمعجزة إعجاز القرآن **لا أساس لها** في القرآن والسيرة ، من حيث أمية محمد . فهي معجزة مشبوهة في عرْف المنطق والتاريخ . إن النبوّة تأتلف مع العلم والثقافة .

بحث ثان

القرآن كلام اللّه . فهو معجز في ذاته

(الأساس الثاني للإِعجاز)

ان الأساس الثاني لإِعجاز القرآن هو أنه كلام الله ، وكلام الله معجز في ذاته للمخلوقين أجمعين .

أولاً : كلام الله في القرآن

وهذا الأساس تفرّع الى ثلاث مقالات :

المقالة الأولى : إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات الإلهية . قال السيوطي في (الإتقان ٢:١١٨) ينقل المقالة ويرد عليها : ((فزعم قوم أنّ التحدّي وقع **بالكلام القديم** الذي هو صفة الذات ؛ وأن العرب كُلّفت في ذلك ما لا يُطاق ، به وقع عجزها . وهو مردود لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يُتصوَّر التحدي به ! والصواب ما قاله الجمهور إنه وقع **بالدالّ على القديم** ، وهو الألفاظ)) .

المقالة الثانية : إنه حكاية عن كلام الله القديم . هذه مقالة الجمهور ، بحسب السيوطي، في إِعجاز القرآن . قال أحمد أحمد بدوي [1] : ((كما لا نقبل قول مَن قال : إن وجه الإِعجاز في نظم القرآن أنه **حكاية عن كلام الله القديم** . لأنه لو كان كذلك ، لكانت **التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله معجزات في النظم والتأليف** ، وما قال بذلك أحد ، ولا ذكرته تلك الكتب نفسها [2] . وكذلك كان من الواجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها منفردة ـ وذلك ما لم يقل به أحد)) .

---

(١) **من بلاغة القرآن** ص ٤٩.

(٢) إن الكاتب واهم في الأمرين معاً . قابل كتاب الأستاذ يوسف درة الحداد : مصادر الوحي الإنجيلي : **الدفاع عن المسيحية**

المقالة الثالثة : كلام الله المنزل معجز في ذاته . هذا قول ابن حزم في كتابه (الفِصَل) . وعنه تناقلوه الى اليوم . قال : ((لم يقل أحد إن كلام غير الله تعالى معجز . لكن لمّا قاله الله تعالى وجعله كلاماً له ، أصاره معجزاً ومنع من مماثلته ... وهذا برهان كافٍ لا يحتاج الى غيره)) .

وفي أيامنا يقول عبد الكريم الخطيب [1] : ((إن القرآن ، وهو كلام الله ، لا يمكن أن يوازن به كلام ، فهو لهذا معجز في ذاته)) .

وقد ردّ هذه المقالة مصطفى صادق الرافعي [2] : ((قال (ابن حزم) : ((وهذا برهان كاف لا يحتاج الى غيره)) ـ نقول : بل هو فوق الكفاية ، وأكثر من أن يكون كافياً أيضاً ، لأنه لمّا قاله ابن حزم وجعله رأياً له ، أصاره كافياً لا يحتاج الى غيره ... **وهل يُراد من اثبات الإعجاز للقرآن ، إلاّ إثبات أنه كلام الله تعالى**)) ؟ يعني أنه منطق معكوس . إنه يثبت ما يُراد إثباته بدون برهان .

ثانياً : البيّنة على كلام الله بالمعجزة لا بالإِعجاز

أجل إن كلام الله معجز في ذاته للمخلوقين أجمعين . ولكن ما البرهان على أنه كلام الله ؟ وما البيّنة على صدق النبي أنه ينقل كلام الله ذاته ؟

فالسر ، كل السر ، في الجزم أنه كلام الله ، للاقرار بإعجازه . وبما أن كلام الله لا يصلنا إلاّ بواسطة بشر ، وبكلام بشر ، **فالبيّنة على أنه كلام الله لا تكون في ذاته . ولا تكون أيضاً في واسطته** ، لئلا يشتبه الأمر علينا بين كلام الخالق وكلام المخلوق ؛ فالحقيقة في ذاتها واحدة ، سواء كانت كلام الخالق أم كلام المخلوق ، وخصوصاً أنها في الحالين تأتينا بواسطة المخلوق .

إن كلام الله يأتينا على لسان بشر ، وبلغة البشر ؛ فلم يعد معجزاً في ذاته . والقول بأن إعجاز القرآن معجزة له ، لأنه كلام الله ، **منطق معكوس** ، فهو يثبت بدون برهان ما يُراد

---

(١) **إعجاز القرآن** ١:٣٤٠.
(٢) الرافعي : **إعجاز القرآن** ص ١٦٤.

اثباته . فما البرهان أنه كلام الله ؟ وما الدليل على صدق النبي في زعمه أنه كلام الله ؟ ﴿قلْ: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ !

والبرهان خارج بطبيعته عن الكلام المزعوم لله ، وعن النبي الذي يدّعيه . قال الجويني في (الارشاد ص ٣٣١) : ﴿لا دليل على صدق النبي غير المعجزة . فإن قيل : هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة ؟ ـ **قلنا : ذلك غير ممكن**﴾ .

لذلك كان قول ابن خلدون : ﴿إن أعظم المعجزات دلالة القرآن ... لاجتماع الدليل والمدلول عليه ﴾ ، فيه مغالطتان بل تناقضان : المدلول عليه هو كلام الله وهذا ما يُراد إثباته! والدليل عليه هو إعجاز هذا الكلام إعجازاً إلهياً ، فما هو برهان إعجازه ؟ وهكذا فالمدلول بحاجة الى برهان ؛ والدليل بحاجة أيضاً الى برهان . والبيّنة التي تحتاج الى بيّنة ، لا تكون بيّنة كافية من ذاتها . إنها بحاجة إلى بيّنة أخرى لا تتصل بها في الذات . ولإثبات قول نبي أنه كلام الله فهو بحاجة الى ﴿معجزات خارقة لا تتصل به في الذات﴾ [1] .

ثالثاً : كلام الله والإعجاز

والقول بأن القرآن معجزة لأنه كلام الله ، ليس ميزة له وحده ، لأنه في هذا هو التوراة والإنجيل سواء ؛ كلها في نظر القرآن كلام الله المنزَّل تنزيلاً : ﴿آلم . الله لا إله إلاّ هو ، الحيّ القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان﴾ (آل عمران ١ ـ ٤) .

فبحسب منطق القرآن ، إن كل كتب الله معجزة لأنها كلام الله . فليس للقرآن ميزة عليها، من حيث هو كلام الله ، في الإعجاز والمعجزة . بل الميزة للكتاب على القرآن لأن القرآن جاء ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ ، بل هو ﴿تفصيل الكتاب﴾ (يونس ٣٧) ؛ والكتاب إمامه في الهدى والبيان : ﴿ومن قبله كتاب موسى (وعيسى) إماماً ورحمةً ؛ وهذا كتاب مصدّق لساناً عربياً﴾ (الأحقاف ١٢) ، فالإمام هو الكتاب ؛ وما القرآن سوى نسخة عربية عنه ليس فيها من مزيد سوى اللسان العربي المبين : **وحسب النسخة في الإعجاز والمعجزة أن تكون مثل إمامها** .

---

(١) دروزة : **سيرة الرسول** ١:٢٧٩.

يردّ الباقلاني على هذا بقوله : «فإن قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عزّ وجلّ معجز كالتوراة والإنجيل والصحف ؟ قيل : **ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف** ـ وإن كان معجزاً كالقرآن في ما يتضمن من الإخبار بالغيوب ـ وإنما لم يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن (من الإعجاز) ؛ ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدّي اليه كما وقع التحدي الى القرآن . وبمعنى آخر وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي الى حدّ الإعجاز .. ومعنى آخر ، وهو أنّا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتابهم ، ولا ادّعى لهم المسلمون . **فعُلم أن الإعجاز ممّا يختص به القرآن**» .

هذا الذي جاءَ به الباقلاني ما زال يتردّد الى اليوم . وهو متناقض في ذاته : كيف يكون كلام الله معجزاً في كتاب وغير معجز في كتاب آخر ؟ وهل ينزل كلام الله بدون نظم ولا تأليف ؟ وهل يمكن أن نفصل كلام الله ، وهو بمثابة الروح ، من الألفاظ والنظم والتأليف، التي هي جسده ؟

ووصف الكتاب أي الإنجيل والتوراة أنه «إمام» القرآن ، أبلغ من التحدّي . ومن علّم الباقلاني أن العبرية التي نزلت بها التوراة , وأن اليونانية التي نزل بها الإنجيل ، «لا يتأتى فيهما من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي الى حدّ الإعجاز» ؟

ومَن قال للباقلاني إن أهل التوراة والإنجيل لم يدّعوا الإعجاز في الهدى والبيان لكتابهم ؟ وقد تحدّى أهل الكتاب محمداً على حياته بإعجاز الكتاب في التأليف ، وبتفضيله في التأليف على القرآن : «إنّا لا نراه يتناسق ، كما تناسق الكتاب» [1] ! واستشهاد القرآن المتواتر على صحته بأهل الكتاب ، وإحالة النبي حين الشك من نفسه ومن قرآنه (يونس ٩٤ ـ ٩٥) على أساتذته من «الراسخين في العلم» ، دلائل على إعجاز الكتاب قبل القرآن .

والقرآن نفسه يتحدّى بالكتاب والقرآن معاً : «قلْ : فأتوا بكتاب من عند الله **هو أهدى منهما** أتّبعْه ، إن كنتم صادقين ! فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءَهم ! ومَن أضلّ ممّن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين» (القصص ٤٩ ـ ٥٠) .

---

(١) قابل (**أسباب النّزول**) للسيوطي ، على سورة البقرة.

والقول الفصل أن القرآن يتحدّى ((**بمثله**)) . وها إن ((مثله)) عند أولي العلم من أهل الكتاب : ((وشهد شاهد من بني إسرائيل على **مثله**)) (الأحقاف ١٠) . فليس ((الإعجاز ممّا يختص به القرآن)) ، كما يدّعي الباقلاني . إن الإعجاز في ((المثل)) وفي ((الإمام)) قبل النسخة التي هي ((تفصيل الكتاب)) . والمحكّ الأكبر هو الترجمة الى لغات العالم . فهل يبقى من إعجاز القرآن في الترجمة كما يبقى من إعجاز الإنجيل ؟

رابعاً : الجدل في أزليّة القرآن

ويتعلّق بالقول بإعجاز القرآن معجزة إلهية ، الجدل الشهير : هل القرآن ، بصفته كلام الله ، مخلوق أم غير مخلوق ، محدث أم قديم في ذات الله ؟

يقولون : كلام الله صفة ذاتية في الله ؛ والقرآن هو كلام الله ؛ فالقرآن إذن صفة ذاتية في الله ، فهو قديم غير مخلوق .

وهذا القياس يشتمل على مغالطة أساسية : بين عمل الله في ذاته ، وعمل الله خارجاً عن ذاته . فالقدرة على الخلق صفة ذاتية في الله ؛ أمّا الخلق فهو عمل في خارج الله . وكذلك كلام الله ؛ فهو بكونه صفة ذاتية فهو في ذات الله ؛ أمّا التنزيل فهو عمل في خارج الله ، وكما أن الخلق بكلام الله وأمره محدث ، كذلك تنزيل كلام الله ، أو كلام الله المنزل خارج الله ، محدث . فالخلق والتنزيل من صفات الله وأعماله : فمن حيث القدرة الذاتية والصفة الذاتية هما من ذات الله ؛ أما من حيث العمل خارج الذات الإلهية فالتنزيل محدث كالخلق ؛ وكلام الله المنزل محدث كأمر الله في الخلق .

فلا يكون القرآن ـ ولا غيره من الكتب المنزلة ـ بصفته كلام الله ، غير مخلوق ، ومعجزاً بذاته كصفات الله الذاتية . والاعتماد على إعجاز القرآن بصفته كلام الله منطق معكوس . فكلام الله على نوعين : **كلام الله الذاتي** ، وهو صفة القديم ؛ **وكلام الله المنزل** وهو محدث كالخلق .

نشأت هذه المسألة من جدال المسيحيين للمسلمين في المسيح الذي يصفه الإنجيل (يوحنا ١:١) والقرآن (النساء ١٧١) انه ((كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه)) . يقولون : إن السيد المسيح ، لا بصفته عيسى ، ابن مريم ، بل بصفته ((كلمة الله وروح منه)) هو قديم

قائم في ذات الله ، من ذات الله ، كنطقه الذاتي في ذاته . فردّ المسلمون أن القرآن هو أيضاً كلام الله ، فهو قديم في القديم وغير مخلوق . وفاتهم أن المسيح ، بصفته «كلمة الله» ؛ ذات ؛ وأن كلام الله **شيء** . وفاتهم الفرق الجوهري بين كلام الله في ذاته ، وكلام الله في التنزيل : **فكلام الله المنزل هو غير ذات الله** ؛ وكلام الله الذاتي هو ذاته ، أو من ذاته في ذاته ، فلا هو عين الذات ولا هو غيرها .

ولم يكن احتجاج المعتزلة على أهل السنة والجماعة كفراً ، ولا سَخَفاً . نقل الجاحظ استجواب الإمام أحمد بن حنبل ، بحضرة المعتصم : «أن أحمد بن أبي داود قال له :

أليس لا شيء إلاّ قديم أو حديث ؟

ـ قال : نعم .

قال : أوليس لا قديم إلاّ الله ؟

ـ قال : نعم .

قال : فالقرآن اذن حديث !

ـ قال : ليس أنا متكلّم» .

وسُئل جعفر بن محمد عن القرآن : «أخالق أم مخلوق؟»

ـ فقال : «ليس خالقاً ولا مخلوقاً ؛ ولكنه كلام الله عز وجل» [1] .

إن القديم وغير المخلوق هو من ذات الله ، في ذات الله ؛ فلا ينفصل عن ذات الله في التنزيل ، كما ينفصل كلام الله المنزل . **وكلام الله المنزل ليس كلام الله القديم في ذاته** تعالى ليكون غير مخلوق ومعجزاً في ذاته .

إن قضية قدم القرآن أم حدوثه مسألة طارئة على البحث في إعجاز القرآن بصفته كلام الله . واعتبار كلام الله المنزل صورة لكلام الله الذاتي النفسي لاثبات الإعجاز الذاتي لكلام الله المنزل ، هو ما أورد القوم ذلك المورد المشبوه . فليس كلام الله المنزل هو عين

---

(١) عن (**إعجاز القرآن**) لعبد الكريم الخطيب ١:٤٣٠ ـ ٤٣١.

كلام الله في ذاته ، من ذاته ، لذاته . فكما أن الخلْق هو عمل الخالق وليس الخالق ، فكذلك كلام الله المنزل هو عمل الله وليس الله . فلا مجال لإثبات الإعجاز الذاتي لكلام الله المنزل ، لأنه كلام الله ؛ فهو يأتينا بواسطة بشر ، وبلغة البشر ؛ وما هو بشري في جهة من جهاته لا يلزمه إعجاز الله في ذاته البشرية . فلا بدّ من برهان خارج عن ذاته يدل على أنه من الله . ومتى ثبت أنه من الله ثبتت قدسيته ، ودانت له النفوس والعقول والقلوب والأجسام . فقبل التقرير بأن القرآن كلام الله ، فهو معجز في ذاته ، يجب البرهان على أنه كلام الله ، بإثبات صدق النبي الذي ينقله عن الله . وهذا عمل المعجزة ، لا صفة الإعجاز في ذاته . فالأساس الثاني لإعجاز القرآن كمعجزة متهافت مشبوه .

بحث ثالث

وجه الإعجاز في القرآن

(الأساس الثالث في الإعجاز)

أوّلاً : الإعجاز لغز وسر

إن الأساس الثالث في إعجاز القرآن هو معرفة وجه الإعجاز فيه . وهذا هو «**اللغز الذي حيّر الناس**» ، كما يقول محمد زغلول سلام [1] .

لقد عرف الناس بالفطرة ثم بالمنطق أن المعجزة دليل النبوّة الأوحد . وبما أن علماء الكلام المقسطين لم يجدوا في القرآن **معجزة حسيّة** ، «سُنّة الأنبياء الأولين» ، وقد لحظوا فيه تحدياً «بمثله» للمشركين ، فسمّوه إعجازاً ، واتخذوا هذا الإعجاز معجزة لغوية على صحة النبوّة والقرآن .

---

(١) **أثر القرآن في تطور النقد العربي** ، ص ٣٥٧.

وصارت معجزة القرآن اللغوية **شبه عقيدة** عندهم ، لو لم يقم المعتزلة قديماً ، وبعض أهل المدرسة العصرية في أيامنا ، يقولون : لم يجعل الله القرآن دليلاً على النبوّة ! **وبرهانهم القاطع** في ذلك أن الناس لا يعرفون وجه الإعجاز فيه . يقول عبد الكريم الخطيب [1] : «إن إعجاز القرآن ـ في نظرنا ـ **سرّ محجوب عن الأنظار** » ؛ «غير أن هناك دراسات اتجهت اتجاهاً مباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن ، فلم يكن من همّها شيء إلاّ أن تكشف النقاب عن هذا **السر المحجب** » .

إن «سراً محجوباً» عن الناس ، وإن «لغزاً حيّر الناس» لا يكون معجزةً لهم . فهو مثل متشابه القرآن «لا يعلم تأويله إلاّ الله ! والراسخون في العلم يقولون : آمنا» ! (آل عمران ٧) .

ثانياً : اختلاف دائم على وجه الإعجاز

وقد عقد السيوطي في (الإتقان ٢:١١٨) فصلاً قيّماً يعدّد فيه المحاولات المتعدّدة المتعارضة لمعرفة وجه الإعجاز في القرآن . قال : «لمّا ثبت كون القرآن معجزة نبيّنا ص ، وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز . وقد خاض الناس في ذلك كثيراً ، فبين محسن ومسئ .

١ ـ «فزعم قوم أن التحدّي وقع **بالكلام القديم** الذي هو صفة الذات .

٢ ـ «ثم زعم **النظام** أنه **بالصرفة** ـ أي أن الله صرف الناس عن معارضته ، وكان ذلك مقدوراً لهم .

٣ ـ «وقال قوم : وجه إعجازه ما فيه من **الإخبار عن الغيوب** المستقبلة .

٤ ـ «وقال آخرون : ما تضمّنه من الأخبار عن **قصص الأولين** وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها .

٥ ـ «وقال آخرون : ما تضمنه من الإخبار عن الضمائر ، من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل .

---

(١) **إعجاز القرآن** ١:٣٦ و١٢٥.

٦ ـ «وقال القاضي أبو بكر (الباقلاني) : وجه إعجازه ما فيه من **النظم والتأليف** والترصيف ؛ وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتادة في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم .

٧ ـ «وقال الإمام فخر الدين (الرازي) : وجه الإعجاز الفصاحة، **وغرابة الأسلوب،** والسلامة من جميع العيوب .

٨ ـ «وقال الزملكاني : وجه الإعجاز راجع الى **التأليف الخاص به** ، لا مطلق التأليف ، كل فنّ في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى .

٩ ـ «وقال ابن عطية : والذي عليه الجمهور والحذّاق في **وجه إعجازه أنه بنظمه** وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة الفاظه ... فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة .

١٠ـ «وقال حازم : وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها ، في جميعه ، **استمراراً لا يوجد له فترة** .

١١ـ «وقال المراكشي : الجهة المعجزة في القرآن تُعرف بالتفكير في علم البيان ... لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه ، والاّ كانت قبل نزوله معجزة ؛ ولا مجرّد تأليفها ، وإلاّ كان كل تأليف معجزاً ؛ ولا بالصرف عن معارضتهم . **إنه في أحوال تركيبه** . فعلى إعجازه **دليل إجمالي** وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها .

١٢ـ «وقال الأصفهاني : إن إعجاز القرآن ذكر من وجهين : احدهما إعجاز متعلق بنفسه ، والثاني بصرف الناس عن معارضته . فالأول يتعلق **بالنظم المخصوص** ، وهذا النظم مخالف لنظم ما عداه ؛ والقرآن جامع لمحاسن جميع أنواع الكلام ، على نظم غير نظم شيء منها : لا يصح أن يُقال له رسالة أو خطابة ، أو شعر أو سجع . والثاني عجزت كافة البلغاء عن معارضته ، مصروفة في الباطن عنها .

١٣ـ «وقال السكاكي : إعجاز القرآن يُدرك **ولا يمكن وصفه !**

١٤ـ «وقال أبو حيّان التوحيدي : القرآن لا يُشار الى شيء منه إلاّ وكان ذلك المعنى آية ، لذلك **حارت العقول وتاهت البصائر عنده** .

١٥ـ ((وقال الخطابي : إن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظام وتأليف ، مضمّنا أصح المعاني ، **جامعاً في ذلك الدليل والمدلول عليه** . وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس ، وهو صنيعه في القلوب ، وتأثيره في النفوس .

١٦ـ ((وقال ابن سراقة : ذكروا في إعجازه **وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب** : الايجاز مع البلاغة ، البيان والفصاحة ، الوصف والنظم ، خروجه عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر ، قارئه لا يكل وسامعه لا يمل .

١٧ـ ((وقال الزركشي : الإعجاز وقع **بجميع ما سبق من الكلام** ، لا يكل واحد على انفراد ، مع روعته وجمعه بين صفتي الجزالة العذوبة ، وكونه آخر الكتب غنيّاً عنها ، وهي ترجع اليه .

١٨ـ ((وقال الرماني : وجوه إعجاز القرآن **تظهر من جهات** : ترك المعارضة ، والتحدّي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والإخبار عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة , **وقياسه بكل معجزة** .

١٩ـ ((وقال القاضي عياض في (الشفاء) : إن القرآن منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة . وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها **أربعة** : الأول حسن تأليفه والتئام كَلِمِه وفصاحته ووجوه ايجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب . الثاني صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومنها نظمها ونثرها . الثالث ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات . الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة)) .

وكان السيوطي آخر مَن تكلّم في الإعجاز .

وجاءَ أهل العصر يرون فيه وجوهاً جديدة من الإعجاز :

١ـ فكان مصطفى صادق الرافعي أول من تكلّم في (إعجاز القرآن) من أبناء العصر. ((فالرافعي لم يخرج في إعجاز القرآن عن هذا الوجه الذي جرى عليه مَن سبقه من القائلين بأن **النظم هو سر الإعجاز فيه**)) [1] ـ وهو من القائلين **بالإعجاز المطلق** في القرآن . ((إن

---

(١) عبد الكريم الخطيب : **إعجاز القرآن** ١:٣٠٢ و٣٠٤ و٤٠٥.

الناس كلهم يعجزون عن مثله . ومعجز في أثره الانساني ، ومعجز كذلك في حقائقه)) [1] . والخطيب يرد هذه الوجوه الثلاثة من حيث هي وجوه الإعجاز [2] .

٢ ـ فريد وجدي لا يرى أجمع عليه القوم أن إعجاز القرآن في نظمه البياني ؛ بل هو في ((**روحانية خاصة**)) هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره . وناهيك بروحانية الكلام الإلهي . ((نعم إن جهة إعجاز الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك (**الروحانية العالية**) التي قلبت شكل العالم)) . وهو يستند الى قوله : ((وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا)) (الشورى ٥٢) . وفاته أن ((الروح)) هنا هو ملاك الوحي ، بحسب قوله : ((يلقي الروح من أمره على مَن يشاء من عباده)) (غافر ١٥) .

٣ ـ محمد أبو زهرة يرى أن **التشريع في القرآن** أفضل وجوه الإعجاز فيه ، وأن العلماء لم يذكروه مع أنه أقواها ، وبه يكون معجزاً لكل الناس ، لا للعرب وحدهم .

٤ ـ عبد الرزاق نوفل يرى وجه الإعجاز في علم القرآن الذي سبق علوم المتقدمين والمتأخرين . فهو مثلا يرى علم الذرة العصري في كلمة ((ذرة)) اللغوية الواردة في القرآن . فخلط بين اللغة والعلم التقني .

٥ ـ عبد الكريم الخطيب يرى من (الإعجاز في مفهوم جديد) أنه أقام الحجة البالغة المعجزة على العرب المشركين ، وعلى أهل الكتاب من يهود ونصارى ؛ وأن شخصية محمد إحدى معجزات القرآن ؛ وأن وجوه الإعجاز الذاتية فيه هي : الصدق المطلق الذي نزل به ، وعلو الجهة المنزل منها ، وحسن الأداء في النظم والفاصلة ، وروحانية القرآن .

٦ ـ الدكتور أحمد أحمد بدوي يرى أن ((البلاغة هي سر هذا الإعجاز)) .

٧ ـ وسيد قطب يرى أن وجه الإعجاز في ((التصوير الفني في القرآن)) .

وهناك دراسات لا تأتي بجديد في الكشف عن ((سر الإعجاز)) .

ثالثاً : الإعجاز في نظم القرآن

والجميع يرجعون الى مقالة الجاحظ أن سر الإعجاز في نظم القرآن مبنى ومعنى . ولذلك فهو **معجز في ذاته** ، لا بمعجزة حسية مضافة اليه . ولذلك يعتبرونه مع ابن خلدون أعظم المعجزات دلالة على صدق النبوّة وصحة الدعوة **لاجتماع الدليل والمدلول عليه فيه** .

(١) الرافعي : **إعجاز القرآن** ، ص ١٧٥.
(٢) عبد الكريم الخطيب : إعجاز **القرآن** ١:٣٠٦ ـ ٣١٥.

قال شيخ القائلين بإعجاز القرآن ذاته معجزة له ، الباقلاني : ((**إن نبوّة النبي ﷺ معجزتها القرآن** : والذي يوجب الاهتمام بمعرفة إعجاز القرآن أن **نبوّة نبينا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة** ... وذلك يكفي في الدلالة ، **ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه** من الأنبياء ... فبان أن بناء نبوته ﷺ على دلالة القرآن ومعجزاته ؛ وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يُعلم أنه كلام الله تعالى . وفارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء ، لأنها لا تدل على نفسها إلاّ بأمر زائد عليها ، ووصف مضاف اليها ، **لأن نظمها ليس معجزاً** وان كان ما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزاً . وليس كذلك القرآن لأنه يشاركها في هذه الدلالة ، ويزيد عليها أن **نظمه معجز** ، فيمكن أن يدل به عليه . وحلّ في هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم)) .

لكن اختلاف القوم في وجه الإعجاز ، وحيرتهم التاريخية في معرفة سر إعجازه ، جعلهم يعتبرون إعجاز القرآن ((**سراً محجوباً**)) ، و :اللغز الذي حيّر الناس)) .

يقول عبد الكريم الخطيب [1] : ((فلو أن سر الإعجاز قد انكشف ـ وهيهات ـ لعرفه الناس ! ومن ثَم لم يعد بعيداً عن متناول أيديهم ... وكان في مستطاعهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن)) .

وهذا الخلاف المتواتر المتواصل على وجه الإعجاز دليل الحيرة في العقيدة ، والعقيدة لا تكون في حيرة ؛ والمعجزة لها وجه مشرق لا يختلف الناس فيه : فإن اختلفوا في وجه الدلالة ضاعت المعجزة ـ **فإن ((اللغز الذي حيّر الناس)) لا يكون معجزة لهم** . ولجوؤهم في ختام المطاف الى اعتباره ((**سراً محجوباً**)) **و** ((**اللغز الذي حيّر الناس**)) فيه القضاء المبرم على اعتبار الإعجاز في القرآن معجزة له : لأنه من البديهة أن ((**ما لا يمكن الوقوف عليه ، لا يتصور التحدّي به**)) [2] . وهكذا ينهار الأساس الثالث في اعتبار الإعجاز القرآني معجزة .

---

(١) **من بلاغة القرآن** ، ص ٥٣.
(٢) الخطيب : **إعجاز القرآن** ١٥٢:١.

خاتمة

لا يقوم اعتبار الإعجاز معجزة على أساس صحيح

تلك هي الأسس الثلاثة التي قام عليها اعتبار إعجاز القرآن معجزة له . وكلها أسس مشبوهة ، لا يقوم له قائمة ، تصلح قاعدة لعقيدة هي دليل النبوّة الأوحد .

فليس محمد «بالنبي الأمّي» . لقد كان علاّمة بلده ، وتلميذ علاّمة ، ابن عمه ورقة بن نوفل ، قسّ مكّة ، في «علم الكتاب» .

ولا يشك أحد بأن كلام الله معجز بذاته للمخلوق . لكن القرآن ، كلام الله ، هو المدلول عليه بدليل الإعجاز . فلا يقوم المدلول عليه بدل الدليل . إنها مغالطة منطقية .

ووجه الإعجاز مختلف فيه . ولا يصح اختلاف في أساس العقيدة والإيمان ، بالقرآن ، كلام الله . فهذا الاختلاف القائم برهان قاطع على أنه لا يصح اعتبار الإعجاز معجزة .

فبناء معجزة القرآن والنبوّة على تلك الأسس الثلاثة ، بناء غير قويّ .

وبعد ، فتبقى شهادة القرآن لحقيقة إعجازه ، ففيها «القول الفصل ، وما هو بالهزل» (الطارق ١٣ ـ ١٤) .